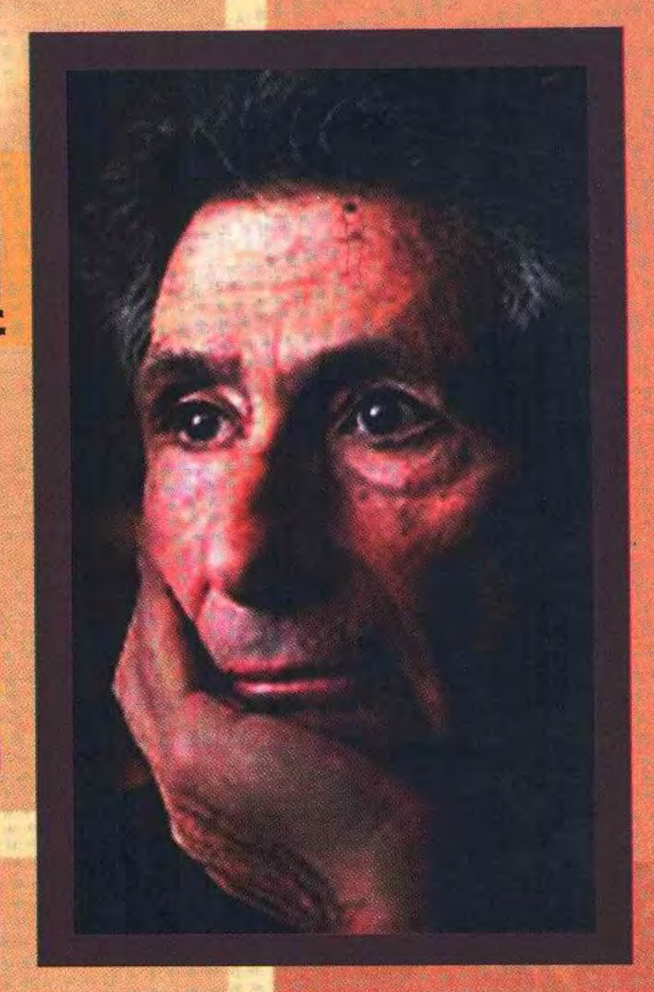
المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة



إدوارد سعيد

الثقافة و المقاومة

حاوره: دايفيد بارساميان

ترجمة: علاء الدين أبو زينة

1065

دار الآداب

الثقافة والمقاومة

المشروع القومى للترجمة

إشراف : **جابر عصفور**

– العدد : ١٠٦٥

– الثقافة والمقاومة

– إدوارد سعيد

– ديفيد بارساميان

– علاء الدين أبو زينة

– محمد شاهين

– الطبعة الأولى / دار الآداب (لبنان ٢٠٠٦) ، المجلس الأعلى للثقافة (مصر ٢٠٠٧)

هذه ترجمة كتاب :

Culture and Resistance

Conversations With Edward W. Said
Interviewed by : David Barsamian
South End Press. 2003

طبعة خاصة لمصر بالتعاون بين دار الآداب والمجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومى للترجمة

الثقافة والمقاومة

تـأليف : **إدوارد سعيد**

حـاوره : **ديڤيد بارساميان**

ترجمـة : **علاء الدين أبو زينة**

مراجعة : **محمد شاهين**

دار الآداب ـ بيروت



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

سعيد ، إدوارد

الثقافة والمقاومة / تأليف : إدوارد سعيد ؛ حاوره : ديفيد بارساميان؛

ترجمة : علاء الدين أبو زينة ؛ مراجعة : محمد شاهين - ط١ -

القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧

١٩٢ ص ؛ ٢٤ سم .

١ - الثقافة .

(أ) بارساميان ، ديفيد (محاور)

(ب) أبو زينة ، علاء الدين (مترجم) (جـ) شاهين ، محمد (مراجع)

(د) العنوان ٣٠١,٢

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٤٨٥٦

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 437 - 227 - 1

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

تقديم

تشكّل هذه المقابلات امتدادًا لخطاب إدوارد سعيد في كتاباته وأحاديثه ومحاضراته التي ألقاها في أمكنة مختلفة وأزمنة مختلفة، وهو خطاب يتناول قضايا مهمّة في الحياة الفكريّة والسياسيّة.

في تقديمه لهذا الكتاب يذكر لنا ديڤيد بارساميان أنّ السؤال الأوّل الذي استقبله به إدوارد سعيد في مكتبه بجامعة كولومبيا كان: «هل لديك أسئلة وجيهة؟»، ثم يذكر لنا أنّ التوتر الذي كان يعتريه قبيل لقائه بمضيفه قد تبدّد واختفى فقط عندما ألقى بارساميان مقاطع من شعر محمود درويش، حينئذ فقط انطلق إدوارد سعيد في الحديث الذي انتهى إلى إجابات تلقائيّة، من دون مراجعة للأسئلة أو إجراء تمرينات عليها.

ربّما يذكّرنا هذا اللقاء بداية بقصّة البحّار القديم في قصيدة كوليردج الشهيرة The Rime of the Ancient Mariner. التي تحكي قصّة بحّار قديم جاء من أقاصي الأرض محمّلاً بالتجربة والحكمة وهبط إلى عالم الناس. وفي الليل التقى برجل كان في طريقه لحضور حفلة زفاف فاستوقفه ليقصّ عليه حكايته. تردّد الرجل في البداية لأنّه كان على موعد مع حفلة الزفاف، لكنّه سرعان ما وجد نفسه مسمّرًا في حضرة هذا الملاّح. ولشدّة ما أبدع الملاّح في سرد الحكاية وجد الرجل نفسه مأخوذًا ومشدودًا لسماع القصّة قبل أن يواصل سيره إلى العرس. وما إن انتهى البحّار من رواية قصّته حتى شعر الضيف أنّ مشاعره قد تغيّرت. وهكذا، تنتهي القصيدة بنهاية تلخّص تجربة إنسانيّة تتخطّى حدود الزمان والمكان: أفاق الرجل في صبيحة اليوم التالي وقد صار أكثر حزنًا وحكمة.

إدوارد سعيد هنا أشبه بالملاّح القديم الذي أتى إلى هذا العالم من دون هويّة

محدّدة (وقد ذكر ذلك عن نفسه في غير مناسبة). وربما يكون هذا ما دعا البروفيسور جورج شتاينر إلى القول: «إنّ إدوراد سعيد نصّ مفتوح على العالم». ربما وجد إدوارد نفسه مثل البحّار القديم، يحمل قصّة أزليّة تلحّ عليه بأن يبحث عن راوٍ لها من بعده لينقلها إلى العالم بكل ما فيها من أثر وتأثير يأسر المتلقّي إثر سماعها فيتبنّاها طوعًا. هنا، كان المتلقّي هو بارساميان الذي أصبح أسير الأجوبة الوجيهة التي أثارتها الأسئلة الوجيهة، والتي أثارت بدورها قصّة الأزل وأخرجتها من جعبة الراوي. هل أدرك بارساميان لماذا أمل إدوارد سعيد أن تكون أسئلته وجيهة، وأن سؤاله عن طبيعة تلك الأسئلة كان يعني أكثر من روح دعابة ذكية؟ وهل عرف بارساميان أنّ إدوارد كان يأمل بداية ألاّ يكون بارساميان مثل العشرات الذين يأتون إليه لإجراء مقابلات معه بأسئلة أشبه بكلام عابر، من دون أن يكون لديهم أسئلة وجيهة ومن دون وعي مسبق منهم بأنّ إدوارد سعيد هو رجل الأزل؟ أغلب الظنّ أنّ بارساميان كان على وعي بذلك بدليل أنّه يبدأ مقدّمته باقتطاف قول إدوارد سعيد: «لم أستطع أن أعيش حياة ساكنة أو غير ملتزمة، ولم أتردّد في إعلان انتمائي والتزامي بواحدة من أقلّ القضايا شعبيّة على الإطلاق». وأكثر من ذلك فإنّ بارساميان أدرك مثلما أدرك إدوارد سعيد من قبله أنّ قضيّة فلسطين التي التزم إدوارد بها طوعًا هي أشبه بالأم الثكلى التي لا بواكي لها مثل بقيّة الأمهات. وما إن يبدأ بارساميان بإلقاء مقاطع من شعر محمود درويش حتى يوقن إدوارد سعيد أنّ مقابله ليس في غفلة عن ثقافة القضيّة وشعبها، وأنّه، بعكس الآخرين، إنّما يحمل أسئلة وجيهة. وكثيرًا ما اشتكى إدوارد سعيد من كثرة الذين قدموا للتحدّث معه دون إلمام بأيّ شيء له علاقة بالتزامه وانتمائه. وعلى أيّ حال، فإنّ بارساميان يتفوّق على ضيف البحّار القديم لأنّه لم يكن في حاجة إلى إلحاح البحّار حتى يوقفه ويروي عليه روايته، إذ يكتفي البحّار هنا بلفتة سريعة تضمّنتها تلك الإشارة إلى أسئلة وجيهة.

علاوة على الشبه بين إدوارد سعيد والبحّار القديم، فإنّ إدوارد يشبه مبدع تلك القصيدة الرائعة. إذ يحكى أنّ كوليردج كان يعرّج على بعض المكتبات المحلّيَّة وهو في طريقه إلى البيت فيقرأ حكاية في كتاب متواضع، ثم لا تلبث الحكاية المنسيّة أن تتحوّل على يديه إلى قصيدة رائعة، تصعب إحالتها إلى مرجعها الذي أتت منه أصلاً لكثرة ما طرأ عليها من تحوّل، حتى أصبحت إيحاء جديدًا له معالمه التي لا تتطابق مع الأصل. ويندرج هذا الفهم في المنظومة الرومانتيكيّة، فهو ينطلق من الاعتقاد بأنّ

العقل (الخيال) نور يسطع لا مرآة تعكس. ولا شكّ أنّ إدوارد سعيد ينسجم مع هذه المنظومة، لكنّه، وهذا هو المهمّ، لا يتوقّف عندها. فالإيحاء عنده ليس مجرّد شِعر يرفرف في عالم مجرّد ينأى بنا عن العالم الذي نعيش فيه ونعايشه يوميًّا. ما يميّز إدوارد هو أنّه لم يعرض عن المجرّد، بل نقله إلى العالم المحسوس إيمانًا بأنّ الإيحاء الأكبر يتكوّن في العالم مثل نبع الإيحاء المجرّد من العالم أصلاً. ويؤمن إدوارد سعيد بما آمن به كوليردج من أنّ الإيحاء يسافر من مكان إلى مكان ومن زمان إلى آخر، لكنّه يعتقد أنّ السفر لا ينتهي في منطقة البحيرات الخمس بشمال إنجلترا، مهد الشعراء الرومانتيكيين أمثال كوليردج، أو في الأمكنة الخياليّة الأخرى التي ابتدعها خيالهم اليوتوبي. فهو يرى أنّ الإيحاء غير ساكن وأنّه في سفر مستمرّ، وأنّ آفاق سفره لا يحدّدها الخيال المجرّد فقط بل العالم المحسوس. مثل هذا التميّز هو الذي جعل بارساميان يصف إدوارد سعيد بأنّه رجل نهضة Renaissance موحيًا لنا بأنّ إدوارد قد نهض بنا من عالم المجرّد الضائع إلى عالم المحسوس، الذي تلقاه كل يوم مثلما نهض علماء أوروبا بمجتمعهم من ظلمات العصور الوسطى إلى النور.

ومن منظور مشابه فإنّ إدوارد سعيد هنا يلعب دورًا أشبه بدور مارلو في رواية «قلب الظلام» لجوزيف كونراد، والذي يروي قصّة تجربته في الكونغو على مسمع أربعة من رفاقه على ظهر السفينة نيللي، التي كانت راسية في مياه نهر التيمز تنتظر هبوب الرياح المواتية لتقلع. ولا بدّ أن يروي المرء روايته لمن يحسن الاستماع. وهو شرط مبدئي يلبّيه بارساميان في هذه المقابلات، فهو يشبه رفاق مارلو التوّاقين إلى الاستماع. فقصّة مارلو شبيهة أيضًا بقصّة إدوارد سعيد في خطوطها العريضة. إنّها قصّة الاستعمار التي حاول مارلو جاهدًا نقلها في شكل روائي لكي يفهمها هو ويجعلها مفهومة للآخر، فوجد نفسه يروي قصّة رحلته إلى الكونغو لإحضار كورتز موظّف الشركة السابق الذي أصبح إلٰهًا عند الأفارقة وطريدًا عند الشركة.

إنّها قصّة معقّدة ومأسويّة وجدت تعبيرًا لها في تلك الصيحة الشهيرة التي أطلقها كورتز عندما تراءت له ممارسات الاستعمار البشعة، فلم يجد غير كلمتين اعتبرهما مارلو التعبير الأدقّ عمّا جهد دون طائل في محاولة التعبير عنه: «الرعب، الرعب».

إدوارد سعيد هنا مثل مارلو يجهد في تطويع اللغة من أجل الوصول إلى أدقّ تعبير يصف القصّة المعقّدة. وهو مثل مارلو أيضًا يتوجّه إلى مستمعيه بين الفينة والأخرى

مستفسرًا عن قدرته اللغويّة في توصيل خبايا الرواية وأجندتها المعقّدة إليهم من خلال أقصى درجات التعبير التي تتسنّى للراوي أثناء العمليّة الروائيّة.

إنّ الرواية عند إدوارد سعيد هي الثقافة التي تحصّن أصحابها وتحميهم من الذوبان في منظومة الهيمنة التي تُملى عليهم من الخارج. وعند الحديث عن الثقافة، لا بدّ أن نذكر أنّ إدوارد سعيد تمكّن من اختراق حجب التقاليد الثقافيّة الغربيّة التي شُيّدت على مدى عقود طويلة في القرنين الماضيين، وكيف استطاع أن يحوّل الأنظار إلى ما هو هام وحيوي وكوني. ففي منتصف القرن التاسع عشر نشرت مقالة ماثيو أرنولد الرائدة «الثقافة والفوضى» Culture and Anarchy، التي ما زال بعض الناس يحفظ عن ظهر قلب بعض عباراتها التي تعرّف الثقافة بأنّها «أفضل ما قيل وما جال في الفكر»، وكذلك قوله إنّ الثقافة معبر إلى الجمال والإشراق. وتتلخّص أطروحة آرنولد في أنّ الثقافة التي غالبًا ما تجسّدت عنده في آداب الإغريق إنّما تمثّل الخلاص من الحياة المادّيّة، التي غرقت فيها الطبقة الوسطى وحرمتها من حياة روحيّة مثلى، أفضل بكثير من حياة الآلة الصناعيّة التي خلّفت دمارًا روحيًّا في العصر الڤكتوري أيّام وصلت الثورة الصناعيّة في بريطانيا أوجها. وباختصار، فقد آمن آرنولد بأنّ الثقافة قيمة عالية جدًّا تمتلكها صفوة المجتمع. وهي أشبه برسالة تحملها هذه الصفوة لتشيع روحها بين الجماهير علّها تكون خير مناهض لجبروت الحياة المادّيّة المهيمنة.

وبعد عقود من الزمن، حمل هذه الراية ف. ر. ليڤيز، ناقد كيمبريدج المعروف الذي يذكره تاريخ النقد الأدبي على أنّه كان رائدًا في تسليط الضوء على النص في دراسة الأدب بدلاً من دراسته بوصفه مادّة تاريخيّة أو سيرة ذاتيّة. وكان أوّل كتاب نشره بعنوان «حضارة الجماهير وثقافة الأقلّيّة Mass Civilization and Minority Culture، والذي عبّر فيه عن خوفه من الثقافات الجماهيريّة كما هي الحالة في المعسكر الشيوعي خشية أن يؤثّر ذلك على ثقافة النخبة.

وفي الخمسينيّات وأوائل الستينيّات انهارت المؤسّسة الليڤيزية التي كانت قد جمعت حولها أتباعًا عرفوا باسم ليڤيز، وحلّت الثقافة بحرفها الأوّل الصغير (culture)، والتي تشير في الوقت ذاته إلى مجموعة الثقافات ، محل ثقافة الصفوة الواحدة التي تكتب عادة بحرف كبير (Culture)، من أجل الاحتفاظ بتميّزها لثقافة الصفوة البرجوازيّة، إذ أصبحت الثقافة تعني نصوصًا أخرى علاوة على النصّ الأدبي الذي ربّما تكون له

الصدارة في جميع الأحوال. وأهمّ ما حدث من تطوّر في هذا المجال هو إحالة الثقافة إلى المجتمع بطريقة فاعلة بدلاً من العمليّة السلبيّة التي نادى بها آرنولد و ليڤيز والتي كانت تقوم على إحالة المجتمع إلى الثقافة في صورة مجرّدة أشبه باليوتوبيا. وكان رائد هذا التغيير الجذري هو ريموند وليمز، الذي يعدّ كتابه المشهور «الثقافة والمجتمع» Culture and Society أهم مرجع في هذه العمليّة. وقد تأثّر بهذا الكتاب العديد من الروّاد، وعلى رأسهم إدوارد سعيد الذي ظلّ يكنّ احترامًا خاصًّا له. وكانت أوّل أطروحة يقدّمها وليمز هي أنّ الثقافة ليست ثقافة صفوة، بل ثقافة جمهور. وهي ثقافة مجتمع، للفرد فيها نصيب مثلما أن للمجتمع فيها نصيبًا، وكلاهما يؤثّر في الآخر. وفي مقالة له بعنوان «الأدب في المجتمع» يقول وليمز إنّ حرف الجر «في» in ربما يكون أدقّ تعبيرًا من حرف العطف «و» and لأنّه يبيّن أنّ الأدب في المجتمع ومنه ولا يأتي في مرتبة لاحقة. أي أنّ الأدب لا ينتظر الحدث لأن يتكوّن أوّلاً في المجتمع حتى يسجّله أو يعكسه أو يرويه لاحقًا، بل هو يواكب حدوثه ليكون الصانع الأمهر في تشكيله وليكون عاملاً فاعلاً فيه لأنّه يتجذّر فيه أصلاً.

وفي الستينيّات وأوائل السبعينيّات، ظهرت البنيويّة، ربّما لتقول لروّاد الثقافة أنّ اللّغة نظام لا شأن له بالمجتمع، لكن الثقافة استوعبتها. وكان إدوارد سعيد على رأس من أعملوا معولهم في البنيويّة التي انتهى أمرها في أقل من عقدين تقريبًا، إذ لم تستطع أن تصمد أمام أطروحة الثقافة التي شيّدها روّادها على أساس بنيان مرصوص بين الثقافة والمجتمع. وهكذا، أعلنت البنيوية إفلاسها على يد أولئك الروّاد الذين أعلنوا على الملأ أن لا معنى لنظام لغوي في حدّ ذاته وبوصفه منفصلاً عن المجتمع.

لقد قدّم لنا إدوارد سعيد مساهمة جليلة في مجال الثقافة شهد العالم له بها، بدءًا من محاضراته التي دعي لإلقائها في هيئة الإذاعة البريطانيّة، وهي سلسلة المحاضرات التي دعي لإلقائها مشاهير العالم من أمثال برتراند راسل، ونشرت فيما بعد تحت عنوان «صورة المثقّف»، والتي دعا فيها المثقّف إلى أن يجهر بالحقيقة في وجه السلطان، وإلى أن يكون المثقّف هاويًا لا مهنيًّا، بمعنى أن يكون حرًّا، إلى كتابه «الثقافة والإمبريالية» الذي أصبح مرجعًا مهمًّا في ميدان الثقافة. وليس من قبيل المبالغة أن نقول إنّ إدوارد سعيد نجح في إدخال مفهوم الثقافة إلى العربيّة، إذ كثيرًا

ما اختلط هذا المفهوم بمفهوم الحضارة، بل إنّ بعضنا ما زال يعتبر كلمة «حضارة» أرفع مستوى من «ثقافة»، لكنّ الفارق بدأ يتضح على يدي إدوارد سعيد.

يخبرنا إدوارد سعيد أنّ الثقافة تمتلك عنصرًا كونيًّا يجعلها تسمو على الإقليميّة والقوميّة والمحليّة والآنيّة والعرقيّة والطبقيّة، إلى آخر ذلك من التصنيفات التي ظلّت إلى عهد قريب تثقل كاهل الثقافة. وقد أوضح لنا أنّ ثقافات العالم متداخلة وأنّها تأخذ من بعضها بعضًا وتعطي بعضها بعضًا أيضًا، وهذا ما يغني الثقافة على المدى البعيد. ومن المعروف أنّ إدوارد سعيد ساهم في إخراج الثقافة من برجها العاجي الذي ظلّت تقبع فيه ردحًا من الزمن، إذ قدّمها على أنّها نمط من العيش يمارسه المجتمع بتلقائيّة تجعل من الصعب إخضاعه لمنطق جاهز أو تبرير مسبق.

وينسحب خطاب إدوارد سعيد بالنسبة للقضيّة الفلسطينيّة والثقافة على قضايا أخرى مثل قضيّة اللغة العربيّة، التي يقول إدوارد في خاتمة مقابلاته في هذا الكتاب إنّها أرسطيّة إلى أبعد حدّ في بنيتها، وهو ما يؤهّلها لأن تكون أجمل اللغات بسبب تناسق بنيتها ومنطقها.

إنّ هذه المقابلات لا تحتاج إلى تقديم، فنصوصها هي التي تقدّم نفسها. ولكنّي أودّ أن أقدّم بضع ملاحظات من شأنها أن تذكّرنا ببعض مقوّمات خطاب إدوارد سعيد الفذّ. من هذه الملاحظات أنّ خطاب إدوارد سعيد يتّصف بالكونيّة أكثر من الشمول، أو بالشمول الذي يتحوّل على يديه إلى كونيّة. فهو خطاب جامع يرتبط فيه الأدب مع السياسة وتتداخل فيه الفلسفة مع الدين لتكوّن جميع هذه العناصر منظورًا يفوق حدود المكان والزمان. ولدى إدوارد سعيد القدرة على تخطّي المألوف واستبطان هذه الكونيّة في القضايا التي يعالجها، ويمكن لنا أن نرى اهتمامه بالكونيّة حين يذكر لنا في حديثه مع بارساميان مثلاً أنّ محمود درويش رجل أممي وكوني في مذاقاته ومنظوره.

هذه الرؤية الكونيّة هي التي ارتقت بالمسألة الفلسطينيّة التي كرّس إدوارد سعيد حياته لها، فقد تبنّى قضيّة الأزل الفلسطينيّة وهو يعلم حقّ العلم، كما صرّح في بداية هذه المقابلات، بأنّها قضيّة لا يجد من يتبنّاها دعمًا مثلما تجد قضايا النضال المختلفة الأخرى في العالم، وخصوصًا من الغرب الذي تسبّب في المشكلة أصلاً. وإذا كانت القضيّة في حدّ ذاتها تشكّل إيحاء خاصًّا يدفعه إلى تبنّيها بسبب معايشته لها شخصيًّا ومعاناة شعبه منها، فإنّ هذا لا يعني عنده أنّ هذا الإيحاء سيكون مقبولاً عند

الآخرين بشكله الذي قبله هو. وهذا ما يجعل إدوارد سعيد يعيد إنتاج هذا الإيحاء ليولد منه إيحاءً آخر جديدًا يجد هوى في نفوس الآخرين البعيدين عن القضيّة مكانًا وزمانًا وارتباطًا.

في معالجته للقضيّة الفلسطينيّة لم يضع إدوارد سعيد فلسطين في المنظور الذي يتطلّب سفر العالم إليها ليدرك أبعاد مأساتها، بل سافر إدوارد بفلسطين إلى العالم وأرسى دعائم سفرها المتواصل في أرجاء المعمورة. وهكذا أسمع صوته الدنيا ولم ينتظر حتى تسمع الدنيا صوته. كل هذا مردّه إلى إيمانه الثابت بأنّ العقل (الخيال) يجب أن يقوم بدور فعّال يتخطّى الحدود الإقليميّة والأبعاد الزمنيّة، إذ لا يكفي أن ينكفئ المرء على نفسه لأنّه صاحب قضيّة عادلة، ولا ينبغي أن يشكّل الإحساس المجرّد بعدالة القضيّة آخر المطاف. وكم اشتكى إدوارد سعيد من الأساليب العقيمة التي استخدمت في طرح القضيّة الفلسطينيّة. وكم نبَّه إلى ضرورة الاهتمام بطريقة التوصيل Communication التي من دونها تظلّ القضيّة حبيسة الصدور عند أصحابها. إنّ التوقّف عند القناعة الذاتيّة بالقضيّة سيجعلها في حالة سكون إلى الأبد. وفي جميع الأحوال، فإنّ خطاب إدوارد سعيد هو أقوى خطاب حظيت به القضيّة الفلسطينيّة. من المؤكّد أنّ ما ستجنيه هذه القضيّة مستقبلاً سيكون من ثمار هذا الخطاب الذي استطاع إدوارد سعيد أن يوصله إلى الغرب، صاحب أعقد خطاب في التاريخ الحديث. فخطاب إدوارد سعيد المميّز هو الذي جذب إليه صفوة أصحاب العقول الغربيّة وغير الغربيّة، والذين هرعوا إليه من كل صوب يقابلونه ويحاورونه ويستمعون إلى خطابه العظيم. هو فعلاً سفيرنا في هذا العالم المريب، يوحي إليه ويوحي إلينا.

محمد شاهين



مقدمة

بقلم: ديفيد بارساميان

كتب إدوارد سعيد: «لم أستطع أن أعيش حياة ساكنة أو غير ملتزمة. ولم أتردّد في إعلان انتمائي والتزامي بواحدة من أقلّ القضايا شعبيّة على الإطلاق».[١]

حرّضت حرب ١٩٦٧ إدوارد سعيد على أن ينشط على الصعيد السياسي، وبعد سنة ظهرت مقالته السياسيّة الأولى «صورة العرب». وعندما أطلقت رئيسة الوزراء الإسرائيليّة «جولدا مائير» تصريحها الشائن عام ١٩٦٩، والذي قالت فيه: «لم يكن الأمر وكأنّ هناك شعبًا فلسطينيًّا.. إنّهم لم يوجدوا»، قرّر سعيد أن يضطلع بما أسماه: «تحدّي دحض ما ذهبت إليه والذي يمازجه شيء من منافاة العقل، والشروع بإنطاق تاريخ الخسارة والفقدان الذي ينبغي أن نبوح به ونحرّره دقيقة بدقيقة وكلمة بكلمة وإنشًا بإنش[٢]» ـ هكذا كتب إدوارد سعيد.

لسنوات طويلة، كان إدوارد هو المتحدّث الرئيسي باسم القضيّة الفلسطينيّة في الولايات المتحدة. وهو يقول معلّقًا على ذلك: «إنّ فلسطين قضيّة غير مجزية.. فأنت لا تأخذ شيئًا في مقابل التزامك بها سوى الازدراء والاضطهاد والنبذ... كم من الأصدقاء يتجنّبون الخوض في هذه المسألة! وكم من الزملاء لا يرغبون في سماع أيّ خطاب فلسطيني! وكم يصرف الليبراليّون المتحمّسون من الوقت في الاهتمام بقضايا البوسنة والشيشان والصومال ورواندا وجنوب إفريقيا ونيكاراغوا وفيتنام والحقوق الإنسانيّة والمدنيّة في أيّ مكان على وجه البسيطة، ولكنّهم لا يفعلون شيئًا من ذلك عندما يتعلّق الأمر بفلسطين أو بالفلسطينيين؟»[٣]

دفع إدوارد سعيد ثمنًا باهظًا بسبب مكانه البارز في مشهد القضيّة الفلسطينيّة، فوُصم بأنّه «بروفيسور الإرهاب»، ودعته قائمة الدفاع اليهوديّة بالنازي، وتمّ إحراق مكتبه في كولومبيا، وتلقّى هو وأفراد عائلته «تهديدات بالموت لا حصر لها» كما كتب إدوارد نفسه(٤).

ظلّ سعيد عضوًا في المجلس الوطني الفلسطيني لأكثر من عقد من الزمن، احتمل خلاله نقمة القوميين العرب بسبب دفاعه عن «فكرة التعايش بين اليهود الإسرائيليين والفلسطينيين العرب»، ولأنّه أدرك أنّه «لا مكان للخيار العسكري». وقد كتب إدوارد متحدّثًا عن ذلك: «كنت أوجّه نقدًا صارمًا لاستخدام الشعارات والكليشيهات نحو «الكفاح المسلّح» ولروح المقامرة الثوريّة التي نجم عنها موت الأبرياء، في وقت لم تسهم فيه بإحراز أيّ تقدم للقضيّة الفلسطينيّة على الصعيد السياسي»(٥).

ومنذ استقالته من المجلس الوطني الفلسطيني عام ١٩٩١، أصبح سعيد واحدًا من أبرز المناهضين علنًا لياسر عرفات ولما يسمّى بعمليّة السلام، وظلّ صوتًا متفرّدًا للمقاومة وسط كل اللغط الذي ساد آن توقيع اتفاقيّة أوسلو في الحديقة الجنوبيّة للبيت الأبيض في أيلول عام ١٩٩٣. وقد أدرك على الفور معنى أوسلو وأسماها «فرساي الفلسطينية»(٦). وهو الذي قال لي معلّقًا على ذلك الحدث: «كان كلينتون أشبه بأمبراطور روماني يجلب ملكين تابعين من ملوك الإقطاعيّات إلى بلاطه الأمبراطوري ويدفع بهما إلى التصافح»(٧).

وفي موازاة نشاطه السياسي تنهض إسهامات إدوارد سعيد الهائلة في حقل الإنسانيّات، فبكتابه «الاستشراق» غيَّر إدوارد سعيد الطريقة التي كنّا نقرأ بها الصورة النمطيّة التي يقدّمها الأدب الغربي للإسلام والعرب والشرق الأوسط، كما قام باستكشاف الطريقة التي يجري بها توظيف المعرفة للدفاع عن السلطة وإكسابها المشروعيّة. ويعتبر كتاباه «الثقافة والإمبرياليّة» الذي ظهر عام ١٩٩٣ و«الاستشراق» من قمم إنجازه الثقافي العظيم.

على نحو ما، وفي خضمّ انشغالاته وفي أوقات فراغه، يستطيع رجل النهضة والتنوير هذا أن يجد الوقت ليعزف البيانو ويكتب عن الموسيقى والأوبرا، وهو متأثّر جدًّا بالشاعر أيمي سيزير Aimé Césaire ويحبّ أن يقتبس من قصيدته:

لكنما عمل الإنسان لما يبتدئ بعد،

وإنّما يتبقّى على الإنسان أن يقهر

كل القسوة الهاجعة في حنايا هواه

وما من سلالة تملك للجمال احتكارًا،

ولا للفكر، ولا للقوّة..

وهناك مكانٌ ومتّسَعٌ للجميع

حيث ثمّةَ موعد مع الانتصار(٨)

وأقول بالمناسبة إنّ الشعر ربما كان الشيء الذي أحدث الأثر المطلوب بالنسبة لي في المرّة الأولى التي أجريت فيها مقابلة معه. التقينا في مكتبه في كولومبيا وكنت متوتّرًا قليلاً، ولم تخفّ حدّة قلقي عندما سألني منذ البدء إذا ما كانت لديّ أسئلة وجيهة، ولم ينطلق في الحديث إلاّ عندما ألقيت بيتين من الشعر لمحمود درويش رائد الشعر الفلسطيني المعاصر. وفي السنوات التالية، أجرينا سلسلة من اللقاءات التي أثمرت كتاب «القلم والسيف» The Pen and the Sword، وهو مجموعة مقابلات صدرت عن كومون كوريج بريس عام ١٩٩٤.

من الصعب أن أنقل على الورق كلّ تلك الطاقة الهائلة والإثارة العقليّة والحماس التي يستطيع سعيد أن يولّدها. إنّه يمنح نكهة رائعة للأخذ والرد في الحوار. وربّما يهمّ الجمهور أن يعرف أنّ كل إجاباته كانت تلقائيّة، وأنّنا لم نقم أبدًا بمراجعة أيّ من الأسئلة أو إجراء تمرينات عليها.

منذ أوائل التسعينيّات، بدأ إدوارد سعيد يصارع مرض سرطان الغدد اللمفاويّة، وكان يمضي الوقت بين المشافي وخارجها، إمّا على وشك البدء في دورة من العلاج أو بصدد الانتهاء منها. وتمكّن خلال ذلك كلّه من الكتابة وإلقاء المحاضرات. إنّ خصومه يريدونه صامتًا، ولكنّه يقول في واحدة من المقابلات التي يضمّها هذا الكتاب: «ذلك ما لن يحدث إلاّ إذا مت».

هوامش المقدمة

(1) Edward W. Said, «Between Words,» *London Review of Books* 20:9 (May 7, 1998). See also Edward W. Said, *Out of Place: A Memoir* (New York: Knopf, 2000).

(2) Edward W. Said *«The Arab Portrayed,» in Ibrahim Abu-Lughod, ed., The Arab Israeli Confrontation of June 1967: An Arab Perspective* (Evanston: Northwestern University Press, 1970), pp. 1-9 See also Said, «Between Worlds,» and Noam Chomsky, *Fateful Triangle: The United States, Israel, and Palestinians*, updated ed. (Cambridge: South End Press, 1999), p. 51.

(3) Edward W. Said, «Cherish the Man's Courage,» in Eqbal Ahmad, *Eqbal Ahmad: Confronting Empire*, interviews with David Barsamian (Cambridge: South End Press, 2000).

(4) Said, «Between Worlds».

(5) Said, «Between Worlds».

(6) Edward W. Said, «A Palestinian Versailles,» *The Progressive* 57: 12 (December 1993): 22-26.

(7) Edward W. Said, Interview with David Barsamian, *The Progressive* 63: 4 (April 1999).

(8) Aimé Césaire, «At the Rendezvous of Victory,» tran. C.L.R. James, quoted in Edward W. Said, *Culture and Imperialism* (New York: Knopf, 1993), p. 280. Edward W. Said, «A Palestinian Versailles,» 22-26. David Barsamian, Interview with Edward W. Said, *The Progressive* 63: 4 (April 1999): 34 - 38.

حل الدولة الواحدة

KGNU, Boulder, Colorado, February 8, 1999

من الواضح أنّ ياسر عرفات ليس على ما يرام، فهو يرتجف ويبدو مأخوذًا وفاقدًا للحيوية. أيّة معلومات تصل إليك عن صحّته؟

ـ يقول الموالون له والذين قابلت واحدًا منهم بالصدفة المحضة، حيث كنّا نسافر على الطائرة نفسها، إنّه يتمتّع بكامل الصحّة، وهو يعاني فقط من ذلك الارتجاف أو الارتعاش الخفيف، بينما يبدو آخرون مقتنعين بأنّه يعاني من مرض «باركنسون»، ومن هؤلاء طبيب يعيش في غزّة كان قد عاينه. لكن كل من تحدّثت إليهم خلال السنة الأخيرة ممّن قابلوا عرفات ـ أنا لم أقابله بالمناسبة ـ، يقولون إنّ أداءه قد تباطأ بشكل ملحوظ وأنّه لم يعد يقظًا ومعتدًا كما كان في العادة. أنا أعتقد بأنّ هذا صحيح، لكن الحقيقة على كل حال هي أنّه لا يزال يسيطر على كل شيء، فهو يوقع كل قصاصة ورق بما في ذلك إجازات مستخدميه وحركة الاعتمادات الماليّة الضخمة ووثائق الدولة، ولا بدّ أن يمرّ كل شيء عبر طاولة مكتبه. إنّه لا يزال يدير كل شيء ويهتم بدقائق الأمور، وهو لا يبدي أيّ إلماح إلى تفويض السلطة بأيّة طريقة جادّة. معظم موظّفيه يذمّونه بمن فيهم وزراؤه، لكنّهم عاجزون عن فعل أيّ شيء.

أظنّ من الضروري ملاحظة شيء ربما لا ينتبه إليه الناس، وهو أنّ عرفات أكبر مستخدِم فرد في المناطق الفلسطينيّة؛ فبالإضافة إلى بنية بيروقراطيّة هائلة، تضمّ أجهزته الأمنيّة أربعين ألف رجل(١)، وهو ما يشكّل في مجموعه شريحة تتسم بمنتهى عدم الإنتاجيّة على صعيد الاقتصاد. زد على ذلك غياب أيّ استثمارات جادّة في البنية التحتيّة بفضل عاداته في الإنفاق. وهكذا تسود حالة من الركود، والتي، فيما أرى، تزداد سوءًا كل يوم بسبب من أساليبه بشكل خاص، والتي تهدف بشكل

أساسي إلى الاحتفاظ بالسيطرة والتأكّد من عدم وجود مناوئين أو حصول أيّ تغييرات في البنية القائمة، التي أملتها عليه إسرائيل والولايات المتحدة في معظمها كما هي الحال في الأردن.

كان قد تمّ حظر كتبك في مملكة عرفات، فهل لا يزال الحال كذلك؟

ـ من الصعب معرفة جليّة الأمر؛ لكن بوسعك أن تبتاعها هناك، وهي متوافرة بشكل مستتر ويتمّ تداولها خفية، ففي عصر البريد الإلكتروني واستنساخ الوثائق والنواسيخ لا يمكن حظر أيّ شيء في الحقيقة. وحدث مؤخّرًا عندما كنت هناك في السنة الماضية أن تعرّفت إلى بقّال وبائع كتب في الوقت نفسه، وقال لي: «إنّ كتبك لديّ، لكنّني أبقي عليها تحت الطاولة، إذ ربما يمرّ أحد أفراد السلطة»! كان ذلك في الخليل. ولكي تكون الأمور أكثر غرابة وبعثًا على السخرية، كتب إليّ ياسر عبد ربه وزير الثقافة الفلسطيني رسالة يسأل فيها إذا ما كان بوسعهم التوصّل إلى ترتيب معي يستطيعون بموجبه نشر كتبي في الضفّة الغربيّة. كان ذلك بعد سنة من حظر كتبي بناء على أمر من الوزير نفسه والذي كان مرسوم الحظر موقّعًا باسمه(٢). قل لي ما معنى ذلك! فأنا لا أستطيع فهمه.

ماذا عن إسرائيل؟

ـ إنّ كتبي متوافرة هناك.

ماذا عن البلاد العربيّة الأخرى؟

ـ ذلك يعتمد على وضع الدولة المعنيّة. أنا لم أجر مسحًا، ولكن أغلب الظنّ أنّها متوافرة في مصر ولبنان. وقد سمعت أخبارًا عن حظر بعض كتبي في الأردن، كما حظرت كتب أخرى في دول الخليج المختلفة. لكن ذلك هو قدر الجميع هناك. إنّنا نتحدّث عن أوتوقراطيّات وأنظمة حكم مطلق حيث لا يتوافر نموذج قابل للفهم. يكفي أن يرى أحد ما شيئًا على أنّه عدائي فيقولون: لا نستطيع تقبّل ذلك، ثم يحظرونه، وربما يحظرون طبعة من صحيفة أو مجلة. وهكذا يبدو الأمر برمّته في منتهى الغرابة والخروج على المألوف. لكنّني أعرف من ناشري اللبناني أنّ الطبعة العربيّة من كتاب «الثقافة والإمبرياليّة» ممنوعة في بعض دول الخليج الأكبر مساحة مثل الكويت والعربيّة السعوديّة، وهكذا تبدو الصورة هناك وكأنّما يكتنفها الغموض.

وأعتقد بأنّ الأمر نفسه ينطبق على المغرب وتونس، ولا أعرف ما هو عليه الحال في الجزائر ولا أظنّهم يستوردون الكثير من الكتب هناك في هذه الآونة.

لم تتوقّف انتقاداتك لما يسمّى على نطاق واسع بعمليّة السلام منذ إبرام اتفاقيات أوسلو في سبتمبر عام ١٩٩٣. ولسنوات، تعمّدت وسائل الإعلام السائدة تجاهلك بشكل متعمّد، ومع ذلك، نجم في المدّة الأخيرة اهتمام واندفاع إزاء قدرتك على الرؤية من قبل وسائل الإعلام المهمّة مثل النيوزويك، والنيويورك تايمز ومحطّة الإذاعة الوطنيّة والبي بي إس (PBS) والوسائط الأخرى. ما الذي أثار مثل هذا الاهتمام؟

ـ لا أظنّ الأمر يتعلّق بانتقاداتي وحدها وفي ذاتها وحسب، ولكنّه يعود أيضًا إلى أنّ كثيرًا من الناس قد أصبحوا أكثر قدرة على رؤية الواقع. لنعد مرّة أخرى إلى نموذج الرقابة الذي كنّا نتحدّث عنه للتو؛ ثمّة نوع من الرقابة هنا في الولايات المتحدة يتمّ عبر تهميشك بحيث لا تستطيع الظهور في وسائل الإعلام الرائجة. لكن ما يحدث أيضًا هو أنّ مقالاتي حيث تظهر على شبكة الإنترنت ـ في الدول العربيّة مثلاً ـ فإنّ الناس يلتقطونها ويقرأونها. وعندما تلقّيت طلبًا لكتابة مادّة لمجلّة نيويورك تايمز أضمّنها وجهة نظري إزاء الحل المتمثّل في دولة ثنائيّة القوميّة تضمّ الفلسطينيين والإسرائيليين، فقد تمّ ذلك لأنّ أحدًا ما قرأ وجهة نظري على الإنترنت[٣]، وهكذا اتصل بي المحرّر. أضف إلى ذلك، كما قال لي المحرّر، أنّ عقم عمليّة السلام قد بات واضحًا. والحال نفسه، كما قال، ينطبق على فكرة الصهيونيّة. ولهذه الأسباب يغيّر القائمون على الإعلام محطّ اهتمامهم. لكنّني لا أظنّ الأمر يعدو كونه نوعًا من نظرة إلى الوجه الآخر من العملة، من قبيل: «حسنًا، إنّنا نريد أن نكون شاملين ومتنوّعين بحيث يمكننا أيضًا أن نشمله». أظنّ أنّ هذه هي حقيقة الأمر. وإذا تأمّلت الإعلام بوجه عام، خاصّة حين يتعلّق الأمر بالمسائل الأكثر جدّة مثل توقّف عمليّة السلام بعد اتفاقية واي، فإنّ الإعلان عن اقتراب الانتخابات الإسرائيليّة ووفاة الملك حسين.. إلخ، إضافة إلى الكليشيهات التقليديّة والأنماط القديمة والخطاب القديم الذي يشكّل منظومة في حدّ ذاته، كل ذلك يظلّ يحتلّ مكانته بشكل مطلق دون أن تمسّه يد الواقع أو الحقائق، وهو أمر يبعث على الدهشة حقًّا. إنّهم يبدون غير مدركين أنّ شيئًا مهمًّا يجري. أتذكّر ظهوري ذات مرّة في برنامج شارلي روز The Charlie Rose Show على البي بي إس PBS..[٤]. لقد استمرّ المضيف يومها في

ترديد الحكمة السائدة على مسامعي ولم يدعني أتمّ عباراتي. ولعلّ ما كنت أقوله كان مفرطًا في الكشف بحيث لم يستطع السماح له بأن يقال بطريقة معينة.

لماذا تدعو إلى دولة ثنائية القوميّة في هذا الوقت بالذات؟

ـ إنّها المرّة الأولى في حياتي التي أذهب فيها إلى الضفّة الغربيّة وغزّة وإسرائيل بطريقة عادية منذ غادرت فلسطين في نهايات عام ١٩٤٧. لقد قمت بخمس زيارات خلال السنة الماضية، وكلّما زاد عدد المرّات التي أذهب فيها، أصبحت أكثر اقتناعًا بحقيقة أنّ اليهود الإسرائيليين والفلسطينيين منضفرون ديمغرافيًا على نحو يتعذّر تغييره، وهو أوّل شيء يفاجئك هناك. للإسرائيليين هوس ببناء الطرق التي ينشئون الكثير منها في الضفّة الغربيّة وغزّة بحيث تدور حول البلدات والقرى الفلسطينيّة. ولكن هناك حقيقة لا تقلّ أهمّيّة وهي أنّ المكان يبدو صغيرًا جدًّا بحيث لا يمكنك فيه أن تتجنّب الطرف الآخر كلّيًّة. ثانيًا: يقوم الإسرائيليون بتشغيل الفلسطينيين في بناء وتوسيع مستوطنات الضفّة الغربيّة وقطاع غزة، وهي واحدة من أغرب المفارقات على الإطلاق. كما يعمل الفلسطينيون في المطاعم داخل إسرائيل وفي أماكن مثل تل أبيب والقدس الغربيّة وحيفا، وطبعًا في الضفّة الغربيّة، حيث يتواجد المستوطنون في مدن مثل الخليل. أمّا في أماكن مثل القدس وضواحيها، والتي تضمّ بلدات فلسطينيّة كبيرة مثل بيت حنينا، التي لم تكن أبدًا جزءًا من القدس لكنّها أصبحت جزءًا من حدود بلديّة المدينة، فإنّ التفاعل بين الفلسطينيين والإسرائيليين يتسم بالكراهية والعداء بمنتهى الوضوح، لكنّهم يتواجدون فيزيائيًا معًا في المكان نفسه. لقد أصبحت مقتنعًا بشكل ما، متأثرًا بما عاينته وبما أعرفه على أنّه حقيقة بأنّ هذا الواقع لا يمكن تغييره بسحب الناس وراءً إلى حدود أو دول منفصلة. إنّ تورّط كلٍّ في الآخر والذي يعود في أساسه إلى العدائيّة التي مارسها الإسرائيليّون منذ اللحظة الأولى التي دخلوا فيها المناطق الفلسطينيّة، ومنذ اللحظة الأولى التي غزوا بها الفضاء الفلسطيني، كل ذلك يفضي إلى أنّ شكلاً من التسوية ينبغي أن ينشأ بحيث يسمح للشعبين بأن يعيشا معًا بشكل سلمي، ولا أرى أنّ الحل سيتأتى عبر الفصل.

ثمّة عامل آخر أظنّه على قدر بالغ من الأهمّيّة، وهو وجود جيل أصغر من الفلسطينيين الذين هم أيضًا مواطنون إسرائيليّون، والذين يقودهم عضو الكنيست عزمي بشارة. لقد عاش هؤلاء مع الإسرائيليين اليهود كمواطنين من الدرجة الثانية أو

بوصفهم غير مواطنين عندما يتعلّق الأمر بشؤون مثل الهجرة وملكيّة الأرض. وهم مدركون بشكل دقيق لطبيعة الصعوبات التي يواجهونها بوصفهم أقلّيّة مضطهدة، وقد شرع هؤلاء بالنضال فيما يتعلّق بمسائل الحقوق المدنيّة وحقّ المواطنة، وهم يتلقّون دعمًا ضمنيًا ملفتًا من العلمانيين الإسرائيليين، الذين يبدون في غاية القلق إزاء سلطة المتدينين المتعاظمة، وإزاء مسألة سَنّ قوانين الدولة برمّتها على أسس دينيّة، في سياق الجدل الدائر حول تحديد ماهية اليهودي، كما يبدون قلقين إزاء تعاظم قوّة اليهود المتديّنين المتعصّبين في مقابل حركات المحافظين والإصلاحيين. كل ذلك بلور في إسرائيل جسمًا مهمًا من الرأي العام العلماني، رغم أنّ وسائل الإعلام هنا في هذا البلد تتجنّب الخوض في ذلك مرّة أخرى. وقد شرع هذا التيّار بالتحدّث عن أشياء مثل الدستور الذي لا تمتلكه دولة إسرائيل، وحول مفهوم المواطنة التي تصنّف الناس ليس على أسس إثنيّة وإنّما على أساس تصنيف وطني ممّا سيقود حتمًا إلى ضمّ العرب. كل ذلك يؤثر فيّ بشكل كبير. وقد تحدّثت إلى مجموعات من كِلا الطرفين، بشكل مستقلّ ومعًا. وهناك لا يمكن للعين أن تخطئ المسار.

أمّا العنصر الرابع الذي أدّى إلى ما خلصت إليه فهو الواقع الديمغرافي الذي لا ينفصل بالطبع عن خلفيّة فشل أوسلو وإفلاس رؤية نتنياهو وعرفات وكلنتون. يقرّر الواقع الديمغرافي أنّ تفاوتًا ديمغرافيًا سينجم بين الفلسطينيين والإسرائيليين بحلول نهاية عام ٢٠١٠[٥]. ولست أتحدّث هنا عن كل اليهود في العالم أو عن كل الفلسطينيين في العالم، وإنّما أتحدّث وحسب عن أولئك الذين يعيشون الآن هناك حيث يتصارع الناس على بقعة صغيرة من الأرض. وتجدر ملاحظة أنّ الناس في جنوب إفريقيا لم يتمكّنوا من تكريس وإدامة سياسة التمييز العنصري في بلاد أكبر بعشرين مرّة وفي زمن أطول. وهكذا، فإنّه يبدو من غير المحتمل أن تتمكّن إسرائيل المحاطة بالدول العربيّة من جميع الجهات من إدامة ما لا يعدو كونه في نهاية المطاف سياسة تمييز عنصري تجاه الفلسطينيين، في وقت يكون فيه الفلسطينيون مساوين لهم في العدد، أضف إلى ذلك الفلسطينيين الآخرين والعرب الآخرين في المنطقة، والذين يتفوّقون على الإسرائيليين عدديًا بشكل هائل.

وهكذا، وبأخذ كلّ هذه العناصر بعين الاعتبار، ورغم أنّ ذلك يبدو الآن شططًا وإفراطًا في اليوتوبيا، إن لم نقل إنّه يشكّل بالنسبة للكثيرين فكرة مجنونة، فإنّها الفكرة

الوحيدة التي يمكن طرحها. إنّها رؤية تقوم على المساواة والندِّيَّة، والتي ستمكّن الشعبين من العيش معًا بدلاً من أن يعمل كلّ منهما على إقصاء الآخر. وأنا آمل أنّني قد تمكّنت من إثارة النقاشات واستمزاج مختلف التوجّهات، الأمر الذي يمكن أن تنجم عنه مثل هذه الدولة أو تقترب من الظهور.

إنّ رؤيتك حول الاحتواء وحلّ الدولة الواحدة ترجّع في الحقيقة صدى واحدٍ من التيّارات التقليديّة في الحركة الصهيونيّة.

ـ لقد قمت ـ مثلما فعل الكثير من الفلسطينيين ـ بقراءة تاريخ الحوارات التي كانت تدور في داخل حركة المستوطنين الصهاينة. كان هناك أشخاص، وسأستخدم المصطلح بأكثر الطرق شموليّة، من ذوي الوزن الثقيل، أمثال مارتن ببر Martin Buber، ويوداه ماجنيس Judah Magnes الذي كان أوّل رئيس للجامعة العبريّة، وحنّا أردنت Hannah Ardent، إضافة إلى آخرين أقلّ شهرة، وقد شكّل هؤلاء جميعًا النجوم العالميين الذين أدركوا أنّ صدامًا سوف يجري إذا ما استمرّت سياسات الاستيطان العدائيّة، وطالما تمّ المضي قدمًا في تجاهل العرب على نحو يتّسم بالطيش. وكان ديفيد بنغوريون قد صرّح في الحقيقة بأنّ التاريخ برمّته لم يشهد حالة يستسلم فيها شعب ببساطة ويسمح لشعب آخر بالاستيلاء على أرضه[٦]. وهكذا، فإنّ هؤلاء الأشخاص كانوا يستشرفون حتميّة نشوب الصراع والأزمة، خاصّة ماجنيس الذي كان مثاليًّا حقًّا.

كلّما أمعن المرء في القراءة عن ماجنيس والتأمّل فيه، وجد فيه روحًا متميّزة ورجلاً تقدّم بأشواط على عصره. كان أميركيًّا، وهو أمر يثير الاهتمام. وقال: «دعونا نفكّر بالعرب على أساس أخلاقي وعميق. لنفكّر بهم على أساس وجودهم وليس على أساس غيابهم». إنّني أجد تلك الروح، وهو أمر مثير للاهتمام، تتجدّد بشكل ما في أعمال المؤرّخين الإسرائيليين الجدد، بعضهم بشكل ظاهر وبعضهم بشكل محتجب، والذين يعاودون النظر في الرواية القوميّة لقيام إسرائيل ويعيدون اختبارها وتمحيصها مستندين إلى المصادر التاريخيّة والأرشيفيّة حول أسطورة استقلال إسرائيل وما يدعى بالتحرير، وهم يكتشفون كم من تفاصيل تلك الرواية يقوم على إنكار وجود العرب ومحوهم ويرون حجم التصلّب العنيد والمبيّت إزاء الاستمرار في تجاهلهم[٧]. كل ما استطاعت إسرائيل أن تحقّقه خلال السنوات

الخمسين الأخيرة لم يكن، بالطبع، على أيّ صلة بتحقيق الأمن لنفسها، إذ ليس ثمّة أمن من ذلك النوع. لكنّها كانت تنجز نوعًا من عمليّة الحجز يجري في سياقها إبقاء العرب خارجًا. وبمرور الوقت لا يمكن لذلك أن يظل مجديًا بسبب الديمغرافيا وحقيقة أنّ الناس لا يستسلمون إذا ما كانوا يتعرّضون للضربات. إنّهم في الحقيقة يتماسكون على نحو أكثر إصرارًا وعنادًا.

وهكذا، فإنّك تستطيع أن ترى تشكُّل مناخ جديد من الرأي الذي ربما يبدو كما لو أنّه يأتي من رحم الصهيونيّة، ولا أريد أن أبدو وكأنّني أتخذ موقفًا سلبيًّا أو منتقدًا إزاء هذا الأمر. إنّ الكثير من مفرداته هي عبارة عن حوار داخل ـ يهودي وليست نواتج حوار يجري بين الفلسطينيين والإسرائيليين. إنّه حوار يجري في داخل المعسكر الصهيوني أو اليهودي كما حدث في حالة ماجنيس وآردينت وببر. لقد جرت محاولات للتماس مع الفلسطينيين، لكنّ الإرهاص برمّته تمّ استقطابه حيث كان البريطانيون يلعبون دورًا ميكافيليًّا، وكان المجتمع الصهيوني يخضع لقيادة أشخاص مثل بيرل كاتزنيلسون Berl Katznelson وديفيد بنغوريون David Ben-Gurion وحاييم وايزمن Chaim Weizmann وآخرين، وهم سياسيّون محنّكون إلى حدّ أنّهم لم يتيحوا لأولئك الذين كانوا في النهاية مجرّد أفراد أيّة فرصة. كان ذلك في الحقيقة حوارًا مقيّدًا ومحصورًا، ولا أظنّ أنّ على المرء أن يمنحه الكثير من الاهتمام.

أظنّ الآن أنّ أناسًا من أمثالي، والذين ليس عليهم، لحسن الحظ، أن يواجهوا الضغوط اليوميّة التي ينطوي عليها العيش في أيٍّ من فلسطين أو إسرائيل، ولكن لديهم الوقت للتأمّل عن بعد، يمكن لهم أن يلعبوا دورًا حيال إثارة النقاش والتحاور مع نظرائهم من المعسكر المقابل، وهو الأمر الذي بدأ بالحدوث فعلاً بطريقة أو بأخرى. ثمّة بعض الحوارات وبعض المؤتمرات التي تنعقد بين المثقّفين الفلسطينيين والإسرائيليين بين الفينة والأخرى وعلى نحو شبه منتظم، ليس أملاً في حل المسألة بشكل رسمي على النحو الجاري لسنوات طويلة من محاولة حل المسألة على مستوى حكومي ورسمي وذي صلة بعمليّة السلام، فهناك الكثير من ذلك الصنف الذي عفا عليه الزمن ولم يفض إلى أيّ مكان. إنّ ما يجري هنا هو نوع جديد من النقاش الذي يقوم على دراسة صبورة وعمل أرشيفي يجري على أساس مبدئي وبعناية ودقّة فائقتين. إنّه ليس جهدًا يقوم به أشخاص ذوو طموحات

سياسيّة، وإنّما يقوم عليه أشخاص هم في أغلبهم أكاديميّون وأناس بعيدون عن التيّارات السياسيّة السائدة على كلا الجانبين، أناس يحتلّون مكانة ما ومنزلة معيّنة داخل مجتمعاتهم بوصفهم أكاديميين ومثقّفين. إنّ ما يجري يمثّل ظاهرة فريدة وفي منتهى الجدّة، ولا أظنّها تحظى باهتمام لائق من الإعلام الذي يبدو مأخوذًا تمامًا بعملية السلام المتداعية.

في الحالة الإسرائيليّة التي تنطوي على خصوصيّة، يشكّل الفلسطينيون ما نسبته ٢٠٪ من مجموع السكان[٨]. وفي نهايات عام ١٩٩٨، تسنّت لك فرصة للتحدّث إلى البعض منهم في مدينة الناصرة، مسقط رأسك، في مكان يحمل اسم فرانك سيناترا Frank Sinatra البغيض.

ـ إنّه مكان موّل إنشاءه فرانك سيناترا الذي كان من أكبر المساندين لإسرائيل، وأظنّ أنّ ذلك كان في السبعينيّات، حيث تمّ إقناعه بتمويل إقامة مرفق خدمي في الناصرة، المدينة ذات الأغلبيّة العربيّة والتي يقطن بعض اليهود في أعاليها تحديدًا. كانت الفكرة أن يكون هذا مرفقًا رياضيًا حيث يمكن للشباب من اليهود والعرب أن يجتمعوا في مكان واحد ويلعبوا كرة السلة. لكن، لا يبدو أنّ ذلك المسعى لم يذهب شوطًا بعيدًا رغم أنّ القاعة قد بنيت، فقد استولى عليها اتحاد العمّال الإسرائيليّين (الهستادروت)، ثم تحوّلت بمرور الزمن إلى مرفق معروض للإيجار حيث يمكن لك أن تستأجر القاعة في المساء أو في بعض المناسبات. وقد لاحظت أنّ المرفق لا يضمّ تلك القاعة الكبيرة وحسب، وإنّما يضمّ أيضًا مقهى وبارًا وبركة سباحة مغطّاة وأماكن يمكن للناس أن يلتقوا فيها.

لقد رتّب عزمي بشارة لي ذلك اللقاء ليكون أوّل مقابلة عامّة ألتقي فيها بالفلسطينيين الذين يعتبرون مواطنين إسرائيليين، والذين يمثّلون بوضوح شريحة سكّانيّة شديدة التباين. حيثما يتواجد الفلسطينيّون فإنّك تجد العشرات والعشرات من التيّارات والأحزاب. وهكذا دعا عزمي بشارة جماعته بشكل أساسي، وتقاطر مساندوه شبابًا وشيبًا، إضافة إلى آخرين جاؤوا بدافع الفضول من أولئك الذين لم تسبق لهم رؤيتي من قبل ورغبوا في رؤيتي. كانت تلك أمسية رائعة، طُلب إليّ فيها أن أعرض تاريخ آرائي السياسيّة وكيف وصلت إلى المكان الذي أحتلّه الآن. لم يكن الكثير من الحاضرين على معرفة معقولة بآرائي، حتى أنّ بعضهم لم يكن يعرف مَن أكون.

وهكذا، كانت تلك رياضة مثيرة. ثم أتيح المجال لمشاركة الحضور الذين كانوا يستطيعون طرح أيّ سؤال رغبوا في طرحه، وكنت متأثّرًا جدًّا. يمكنك أن ترى هناك بيسر انعكاس التيّارات والجدل السائد عليهم، وإذا ما كنت شخصًا مهتمًّا باللغة، فإنّ بوسعك أن تلمح لهجات خطاب السياسيين من العرب الآخرين ـ البعثيين والناصريين والقوميين العرب والماركسيين ـ وهي تطلّ برؤوسها من وراء بعض الأسئلة والتعليقات. لكنّني لاحظت أيضًا أنّ هناك نوعًا من المزاج المستقلّ والخاص. ثمّة لغة عكست حقيقة كون هؤلاء الناس قد خبروا تجارب تختلف عن كل ما عرفه العرب الآخرون. إنّهم يعيشون بوصفهم أفرادًا ينتمون إلى الأقلّيّة الفلسطينيّة في داخل الدولة اليهوديّة. وهكذا، تسنّى لهم أن يكونوا على معرفة أوثق بإسرائيل من أيّ مجموعة عربيّة أخرى سبق لي أن التقيتها. إنّ هؤلاء الناس يخوضون مواجهات يوميّة، في الجامعة وفي مكان العمل، وهكذا.

لقد جعل ذلك من النقاش أكثر إمتاعًا وغنى. كان بوسع المرء أن يتحدّث مباشرة عن إسرائيل، ولم يكن هناك تخوّف حيال الخوض في مسائل الدين. وبما أنّ بشارة نفسه ماركسي سابق تحوّل الآن إلى ديمقراطي اجتماعي، لكن جدّ متطرّف، فإنّ معظم الناس في المكان، بل في الحقيقة كل أولئك الذين استمعت إليهم كانوا أساسًا من العلمانيين. ربما كان هناك بعض الإسلاميين، ولكن كما هي الحال مع أحاديثي الأخرى التي أدلي بها في العالم العربي، فإنّهم دائمًا هناك، وفي بعض الأحيان يمكنك أن تتحسّس وجودهم من النساء اللواتي يرتدين غطاء الرأس والرجال ذوي اللحى في مكان مثل مصر. لكن أحد النماذج الفريدة التي لاحظتها هو أنّني رغم استعدادي الدائم لسماع شيء منهم عنّي بوصفي علمانيًّا ومناهضًا تمامًا للسياسة المتديّنة، فإنّهم لم يقولوا أيّ شيء أبدًا وقلّما كانوا يطرحون الأسئلة، ونادرًا ما واجهوني علنًا. وهكذا كان الأمر في الناصرة. لم يكن هناك أيّ توجّه إسلامي ظاهر على الإطلاق، واقتصرت الأسئلة على طلب معلومات أو الاستفسار عن ماهيّة شعوري حيال عمليّة السلام. وطبعًا كان كل امرئ يريد أن يعرف ما هو البديل، وهو السؤال الذي تصعب الإجابة عليه. لكن الفكرة الرئيسيّة كانت الانخراط في مناقشة المسألة.

لقد فتح ذلك اللقاء الباب الآن لرحلة أخرى سأقوم بها في آذار، حيث سأكون في الناصرة لثلاثة أيام لحضور مؤتمر للطلاب العرب، وكذلك في الجمعيّة

الأنثروبولوجيّة الإسرائيليّة في الناصرة التي طلبت إليّ أن ألقي خطابًا افتتاحيًّا في اجتماعها السنوي. وهكذا فإنّني أجد الأمر جدّ قيّم بالنسبة إليّ، ويشكّل خروجًا من الفضاءات المقيّدة في العالم العربي بعامة والعالم الفلسطيني بخاصّة، وهي عوالم تعيش في حالة حصار يمكن للمرء أن يتحسّسها على الفور. إنّني ألاحظ في كلّ مكان أذهب إليه فرقًا ملحوظًا عندما يتعلّق الأمر بالأجيال. ولا يساورني أدنى شكّ حيال ظهور شجاعة جديدة وروح شكّاكة، ويمكنك أن ترى فضولاً عقليًّا يطفو على السطح في الناس الذين في معظمهم في أعالي العشرينيّات مثلما هو الحال في أولئك الأصغر سنًّا، وهو أمر يختلف تمامًا عن أيّ شيء سبق أن خبرته في الناس الذين ينتمون إلى جيلي والجيل الذي أعقبه مباشرة.

هل يمكن أن يُعزى ذلك إلى أنّ أبناء هذا الجيل لم يتعرّضوا لصدمة الحرب التي خلّفتها النكبة، كارثة عام ١٩٤٨؟

ــ ثمّة علاقة. كما أنّ لذلك علاقة أيضًا بما ذكرته آنفًا، والذي لا ينبغي التقليل من أهمّيّته والذي شكّل لي على الدوام مصدر إلهام. لقد بات بوسع الناس الآن أن يقرأوا أشياء لم يكن بوسعهم أن يقرأوا مثلها لخمس سنوات خلت، وذلك بسبب انتشار الإنترنت والبريد الإلكتروني وتوافر ما يمكنك أن تعتبره أشبه بالأدبيات السرّيّة samizdat(*) السريعة الحركة. ثمّة إمكانيّة لتجاوز الإعلام الرسمي الذي يقدّمه المذياع والتلفاز من خلال استثمار كلّ أشكال المصادر البديلة. ولا تنس أنّ هذا الجزء من العالم يبدو متخمًا حين يتعلّق الأمر بالإعلام. معظم الناس هناك يحصلون على معلومات متنوّعة من خلال الأطباق اللاقطة، وهم يستقبلون البثّ التلفزيوني من البلدان العربيّة وكلّهم يلتقطون محطّة سي إن إن. وهكذا فإنّ بوسعهم المقارنة. ثمّة تنوّع هائل هناك، وهناك رغبة أكبر في الاكتشاف والحوار ومحاكمة البدائل خاصة في أوساط الجيل الشاب. وهكذا، فإنّني أجد في هذا المشهد مبعثًا على الأمل أكثر من أيّ وضع آخر سبق لي أن خبرته منذ عام ١٩٦٧، حين يتعلّق الأمر بإمكانيّة تبادل الآراء وتوافر الإمكانيّة لإحداث التغيير السياسي في المستقبل.

(*) تطلق لفظة samizdat على نشر وتوزيع الأدب الممنوع في الاتحاد السوفياتي السابق، أو الأدب المنتج بالطريقة المذكورة (المترجم).

في الطريق إلى وجهتك في الناصرة، أتيحت لك الفرصة لأن تلتقط فلسطينيًّا من الضفة الغربيّة على إحدى الطرق يتنقّل بركوب السيّارات العابرة، وتبادلتما حديثًا يمتاز بالكشف.

ـ كان شابًّا ينحدر من قرية قريبة من أريحا. وكنت أسافر من رام الله إلى الناصرة عبر العفولة، وهي بلدة إسرائيليّة داخل الخطّ الأخضر. وقد التقطنا الشاب خارج نابلس مباشرة، وتبيّن أنّه مدير ألعاب قمار تحت التدريب في الكازينو الفلسطيني الجديد الذي يجسّد إحدى التداعيات الغريبة التي تمخضّت عنها عمليّة السلام. كان الشاب تحت التدريب. وهكذا فإنّه يتنقّل بركوب السيارات العابرة. وقد أوضح لنا أنّه في غضون أسابيع قليلة، عندما ينتهي تدريبه، سيترتّب عليه أن يعيش هناك لأنّهم بصدد إنشاء أماكن سكنى لعاملي الكازينو. الكازينو في جزء كبير منه عمليّة نمساويّة، رغم أنّ سلطة عرفات تمتلك ٣٠٪ منه(٩)، وزبائنه الرئيسيّون من الإسرائيليين حيث المقامرة ممنوعة في إسرائيل. إنّهم يذهبون إلى هناك وينفقون الكثير من النقود على البلاك جاك والروليت والبكرات، ويقطن العاملون الأجانب في مستوطنة إسرائيليّة لا تبعد كثيرًا عن المكان، وكذلك مدير المشروع.

وهكذا، فإنّك أمام حالة استثنائيّة ترى فيها هذا الكازينو، الذي يبدو واضحًا أنّه غير منتج على الإطلاق، يمتلكه أجانب ويديرونه ويدعمه الفلسطينيّون، وتذهب عوائده بالطبع إلى السلطة ولا يتمّ إنفاق أيّ جزء منها على الشعب الفلسطيني، بينما تعمل مجموعة صغيرة من فلسطينيي القرى المجاورة هناك وينحنون للأغنياء الإسرائيليين والأجانب وللأغنياء الفلسطينيين الذين أظنّهم يأتون أيضًا لينفقوا نقودهم. وربما يبدو ملفتًا أنّ مدير المقامرة المتدرّب ذاك ينتمي إلى الأقلّيّة المسيحيّة. وبمرور الوقت، علمت أنّهم سيبنون هناك بركة للسباحة. وربما تجدر الإشارة إلى أنّ أريحا هي آخر مكان يمكن التفكير فيه لإنشاء كازينو. إنّها أخفض بقعة على الأرض قياسًا إلى سطح البحر، ولا بد أنّ الحرارة تصل هناك في الصيف إلى ١٤٠ درجة [فهرنهايت] في الظل. إنّها ليست من ذلك النوع من الأماكن الذي يجذبك بطبيعته. ولكنّ المشهد يدهشني برمّته بوصفه ثمرة للتنافر وانعدام الاتساق الماثل فيما يتمّ تسويقه على الإسرائيليين والفلسطينيين على أنّه المستقبل. إن في ذلك مؤشّرًا لا يبعث على الأمل.

لقد أصبح موضوع الكازينو عرضة للفحص والتقييم حتى من قبل شخص مثل سهى عرفات زوجة الرئيس الفلسطيني، التي وجّهت نقدًا لاذعًا لموضوع الكازينو، وقد وصفته بأنه: «عار ومخجل» في مقالة نشرت على الصفحات الأولى من صحيفة نيويورك تايمز، قالت فيها: «إنّي مشمئزّة من الموضوع، إنّه من أكثر الأمور التي اقترفها المستشارون الاقتصاديّون للسلطة الفلسطينيّة بعثًا على الخجل؛ فالمشروع يتمّ إنشاؤه على مقربة من مخيّم فلسطيني، لا أقل. ونحن ليست لدينا مستشفيات، ولا إمدادات طبّيّة، ولدينا أطفال مرضى، بل مجتمع مريض برمّته، ولكن، أوه.. لدينا مقامرة، يا له من أمر عظيم!»[١٠].

ـ إنّ تصريحاتها تلك تمثّل جزءًا من خليط غير متساوق؛ فهي تتجوّل في محيط غزّة بسيّارتها الزرقاء من طراز «بي إم دبليو»، وتقضي الكثير من وقتها في باريس ولديها شقّة في شارع سانت لويس، ولديها حلاّقون باريسيّون وحاشية وعائلتها عائلة أعمال. أنا لا أفهم تمامًا طبيعة ما يكمن وراء ماهية الشخصيّة الجديدة التي تتقمّصها سهى عرفات سوى أنّه محاولة لصرف الانتباه قليلاً عن سوأة الوضع برمّته. إنّ ما تقوله صحيح بالتأكيد، ولكن ينبغي عدم القول بأنّها لا تشارك أشخاصًا آخرين كثيرين من زمرة عرفات في لعب دور لتكريس مثل هذا النوع من الفساد.

بعد أن قمت بزيارة إلى إسرائيل، ذهبت إلى مصر. حيث تعرّضت إلى بعض التهويش. هل تفاجأت بذلك؟

ـ كلا، لأنّني سبق وأن تعرّضت لذلك من قبل. ويمكن القول إنّ ما تلاحظه في أوساط الفلسطينيين، سواء في داخل إسرائيل أو في الضفّة الغربيّة وغزّة، إنّما هو إحساس بالعزلة. ليس هناك أدنى شك في أنّهم لا يزالون يعيشون تحت ظل السلطة الإسرائيليّة، والأمر الذي يفتقدونه حقًّا هو التواصل السهل والطبيعي مع بقيّة العالم العربي. إنّك لا تستطيع كفلسطيني أن تذهب إلى أيّ مكان في العالم العربي من إسرائيل أو الضفّة الغربيّة وغزّة دون المرور بإجراءات شديدة التعقيد، وهو ما يجعلك تفكّر ثلاث أو أربع مرّات قبل أن تقدم على ذلك. إنّك تحتاج إلى إذن للمرور عبر الحدود، وتمرّ عبر مراكز جمركيّة لا حصر لها. وينبغي القول إنّ حقيقة كونك فلسطينيًّا يسافر عبر العالم العربي تعني أنّه ينبغي أن يتم عزلك على جهة. إنّك تصبح مشبوهًا بصورة أوتوماتيكيّة، وهو الأمر الذي ينطبق عليّ شخصيًّا، مع أنّني أحمل

جواز السفر الأميركي. ولكن وجود معلومة فيه تقول بأنّني ولدت في القدس يعني أن أتعرّض للإجراء نفسه. وهكذا فإنّ مسألة تنقّل الفلسطينيين وبقائهم على اتصال مع العرب في العالم العربي تبدو أمرًا بالغ الصعوبة.

الأهمّ من ذلك أنّ القليل جدًّا من العرب من غير الفلسطينيين يأتون إلى المناطق الفلسطينيّة، وبالكاد يأتي واحد منهم، وعمليًّا لا أحد منهم يذهب إلى إسرائيل. إنّ هناك فهمًا سائدًا في المنطقة حيال مقاومة التطبيع، وهو أمر يصعب شرحه. فبين القوميين والمثقفين الراديكاليين في معظم البلدان العربيّة، ومن ضمن هؤلاء شعوب الخليج، وكذلك كل من مصر وسوريا ولبنان والأردن، يسود مفهوم معارضة ما يدعونه «التطبيع». والتطبيع في العربيّة يعني إسباغ نسق طبيعي على العلاقة بين إسرائيل من جهة وبين البلدان العربيّة من جهة أخرى، كما هو حال الأردن ومصر، وهما البلدان العربيّان اللذان أنجزا سلامًا رسميًّا مع إسرائيل. ويوصف السلام في حالة مصر، كما هو الحال في الأردن، بأنّه سلام بارد. وبكلمات أخرى، فإنّ الأردنيين والمصريين العاديين لا يذهبون إلى إسرائيل ولا شأن لهم أبدًا بالإسرائيليين. ويذهب الإسرائيليّون إلى كل من الأردن ومصر ويزورون المواقع التاريخيّة في الحافلات لفترات قصيرة؛ ولكنّ الأمور لا تذهب كثيرًا أبعد من ذلك حين يتعلّق الأمر بالتفاعل، على سبيل المثال، في مسائل التبادل بين الجامعات أو بين مجتمعات المثقّفين وفي قطاع الأعمال وغير ذلك من العلاقات، على النحو القائم بين البلدان الأوروبيّة والبلدان المجاورة التي تسود معها علاقات سلام في أيّ مكان آخر من العالم. ويكمن أحد الأسباب الرئيسيّة وراء ذلك في رفض أولئك المثقّفين الصارم لإقامة أيّة صلات مع إسرائيل تضامنًا مع الفلسطينيين.

تتمثّل المشكلة التي يثيرها هذا الواقع بالنسبة للفلسطينيين، الذين يحاولون إنشاء مؤسّسات، في حرمانهم من المساعدة التي يمكن أن يحصلوا عليها من العرب. وعلى سبيل المثال، فإنّه يمكن للأطبّاء والمهنيين الطبيين الآخرين من مصر وسوريا ولبنان والأردن القدوم ومساعدة الفلسطينيين في إنشاء العيادات والمشافي، ويمكن لهم أن ينخرطوا في إطار واسع من الأنشطة بدءًا بالإدارة وانتهاء بإنتاج الأدوية، لكن ذلك لا يحدث بسبب من هذه النظرة تجاه التطبيع. وعلى نحو مشابه، فإنّ طلاب

الجامعات الفلسطينيين يقرأون ما يكتبه المثقّفون والكتّاب والشعراء من مختلف البلدان العربيّة دون أن تتسنّى لهم فرصة الالتقاء بهم.

عندما أقابل العرب الآن أو أذهب إلى البلدان العربيّة، فإنّني أقول لهم، خصوصًا للمصريين: يمكنكم الذهاب إلى فلسطين. يمكنكم العبور من إسرائيل لأنّ إسرائيل ومصر في حالة سلام. يمكنكم الاستفادة من ذلك في الذهاب إلى الفلسطينيين ومساعدتهم في بناء مؤسساتهم، يمكن لكم الظهور والتحدّث والمكوث هناك لبعض الوقت وتدريبهم. فيقولون : كلا، لا نستطيع أن نصم جوازات سفرنا بالأختام الإسرائيليّة. لن نذهب إلى السفارة الإسرائيليّة للحصول على تأشيرة، ولن نخضع للإهانة التي ينطوي عليها تفتيشنا من قبل رجال الشرطة الإسرائيليين على الحدود أو الحواجز.

إنّني أجد مثل هذا الطرح مقبولاً إلى حدّ ما وعلى نحو غامض، ولكنّه ينطوي في الوقت ذاته على جبن كبير. يبدو لي أنّهم لو أخرجوا الكبرياء من الموضوع، وإذا ما مرّوا عبر نقاط التفتيش والمتاريس والحواجز الإسرائيليّة فإنّهم سيمرّون بما يمرّ به الفلسطينيّون الآخرون كل يوم، وسيرون كيف هو واقع الحال على الأرض. ثانيًا، وهو ما أداوم على قوله لهم، إنّ القيام بذلك لا يمنح إسرائيل أيّ اعتراف ولا أيّ رصيد، بل على العكس من ذلك. إنّ المرور عبر كل ذلك من أجل دعم الفلسطينيين والبقاء معهم ومساعدتهم هو أمر يستحق العناء. وعلى سبيل المثال، بينما يواجه الفلسطينيّون الجرّافات الإسرائيليّة وهي تخرب الأرض وتدمّر البيوت من أجل بناء المستوطنات، فإنّه سيكون عظيمًا لو كان هناك عدد كبير من المصريين والأردنيين والآخرين، الذين يمكن لهم أن يتواجدوا مع الفلسطينيين ويواجهوا معهم ذلك التهديد الماثل في كل يوم ودقيقة بدقيقة. والأمر ذاته ينطبق على الجامعات حيث يمكن للكتّاب المعروفين والمثقّفين والمؤرّخين والفلاسفة ونجوم السينما أن يذهبوا إلى هناك، لكنّهم يقولون : لا نريد أن نطلب التأشيرات من القنصليّة الإسرائيليّة في القاهرة. قلت لهم إنّهم ليسوا مضطرين للقيام بذلك وأنّ بوسعهم الطلب إلى السلطة الفلسطينيّة التي لديها سفير في القاهرة أن تزوّدهم بدعوات إلى غزّة، ومن ثم يمكنهم الوصول إلى الضفّة الغربيّة.

وهكذا، فإنّ هناك دائمًا طرقًا للالتفاف على الأمر. إنّ هذا الواقع ليس كلّه ضيّقًا

في أفق التفكير بقدر ما ينطوي على نوع من الكسل، على نوع من الجلوس وانتظار الآخرين ليقوموا بالعمل نيابة عنّا، وأظنّ أنّ في ذلك أكبر عدوّ لنا، وعلى غياب الحافز والدافعيّة. إنّنا دائمًا نتوقّع أنّ الإسرائيليين هناك، والأميركيين يحيكون المؤامرات، ومؤسّسة فورد. إنّ كثيرًا من الناس يرغبون في العمل مع هذه المجموعات، لكنّهم يتخوّفون من القيام بذلك في العلن بينما هم يفعلونه خلسة. إنّهم يتّخذون في العلن موقف المعارضة ويقولون: سوف نظلّ في منأى عن أن يمسّنا هذا. إنّنا لن نقدم على التطبيع. إنّنا نرفض أن تكون لنا أيّة صلة بالإمبرياليّة، ونرفض أن نجلس ونخطّط لشيء ربّما يساعد الفلسطينيين حقًّا ويتعلّق حتمًا بإسرائيل، ليس بوصفها كائنًا خرافيًّا قصصيًّا، وإنّما باعتبارها قوّة حقيقيّة تؤثّر سلبًا وبالكثير من الطرق على الحياة العربيّة.

إنّ ذلك التفكير يتجسّد فيما أرى في واقع الجامعات التي أعرفها في العالم العربي. لا توجد جامعة واحدة حرّة من بين كل تلك الجامعات، فهي جميعًا مسيّسة ومحتواة إلى حدّ كبير. ثمّة كل أنواع الضغوط تمارس على أساتذتها وطلبتها، وهو أمر واضح تمامًا، لكن أيًّا من الجامعات العربيّة المهمّة لا تضمّ دائرة للدراسات الإسرائيليّة على سبيل المثال، ولا يدرس الناس العبريّة، وهو ما ينطبق حتى على الجامعات الفلسطينيّة. يمكنك أن تفهم ذلك الغياب مجدّدًا على أنّه نوع من الدفاع ضدّ هذه القوّة الكبيرة التي اقتحمت كل مناحي حياتنا، بحيث لا نرغب بأن يكون لنا أيّ شأن بها. لكنّني أرى أنّ الخلاص الوحيد يكمن في الحقيقة في مواجهتها مباشرة، بأن نتعلّم لغتها كما هو حال الكثير من علماء السياسة الإسرائيليين وعلماء الاجتماع والمستشرقين ورجال المخابرات الذين يصرفون الكثير من الوقت في دراسة المجتمع العربي. فلمَ لا نقوم نحن بدراستهم؟ إنّ تلك هي الوسيلة لمعرفة من هو جارك، أو عدوّك، إذا كان هذا حاله. وهو طريقة للخروج من السجن الذي يناسب الإسرائيليين تمامًا لكي يضعوا العرب فيه، سواء الفلسطينيين أو الآخرين.

وللأسف، فإنّني أظنّ الأمر يتجاوز هذه السلبيّة، هذه الإقليميّة. وهي سلبيّة لا تتجاوز في حالة العالم العربي إسرائيل وحسب، وإنما بلدانًا أخرى غير أميركا. هناك هذا المسّ والهوس في العالم العربي إزاء الغرب والولايات المتحدة وهارڤارد وساموپل هانتنجتون وكلينتون ومونيكا لوينسكي وبقيّة الجوقة. كل ذلك يتمّ عبر معروضات الإعلام التي تتسم بمنتهى السذاجة والسوقيّة، بينما القليل من الانتباه

ينصرف إلى الهند واليابان والصين وإلى الحضارات العظيمة في بقيّة العالم. إنّك تذهب إلى جامعة مثل تلك التي في عَمّان، وبوسعي أن أؤكد أنّك لن تجد فيها أحدًا يدرس إفريقيا أو أميركا اللاتينيّة أو اليابان. وهي مجدّدًا علامة على كوننا، كهويّة اجتماعيّة، كشعب، وفي اللحظة التاريخيّة التي نمرّ بها، إنّما نعاني حالة من الميوعة والضعف والهمود الثقافي. كل ذلك يفقِدنا حسّ الفضول ويجعل منّا غير عابئين بمعرفة أيّ شيء عن تلك الأجزاء الأخرى من العالم.

إنّ واحدًا من الأشياء التي أحاول فعلها بطريقة بعيدة عن المواربة ولا تقبل المساومة، هو القول بأنّ علينا أن نتخلّص من هذا التوجّه. إنّ علينا أن نتحرّر من القيود التي تطوّق عقولنا والتي صنعناها بأنفسنا حتى يتسنّى لنا أن ننظر إلى بقيّة العالم ونتعامل معه كأنداد. إنّنا نعاني من كمّ كبير جدًّا من التقوقع الدفاعي ومن إحساس مفرط بالاضطهاد والسخط وغير ذلك. وهو ما يعود في جزء كبير منه إلى غياب الديمقراطيّة. إنّ السبب فيه لا يعود فقط إلى استبداد الحكّام ولا إلى مؤامرات الإمبرياليّة، وهو لا يتعلّق بوجود أنظمة الحكم الفاسدة ولا البوليس السرّي وحسب، بل هو يعود في نهاية المطاف إلى افتقار مثقّفينا إلى الإحساس بالمواطنة، وذلك أمر بالغ الأهمِّيّة بحيث ينبغي التأكيد عليه والاستمرار في الإلحاح على إيضاحه. بالنسبة لي، ثمّة القليل ممّا أستطيع فعله من هذا البعد، سواء بشخصي أو بكتاباتي، وهو المداومة على توضيح هذه النقطة. إنّ الطريقة الوحيدة لتغيير وضعٍ ما هو أن يقوم المرء بالعمل على تغييره بنفسه، بالقراءة وطرح الأسئلة والمواجهة والخروج من السجن.

واحد من الأشياء التي تصرّ عليها هو حاجة الإسرائيليين إلى معرفة وفهم ما اقترفوه ضدّ شعبك من الفلسطينيين. لِمَ تعتقد ذلك أمرًا مهمًّا؟

ـ لأنّ الكثير من تاريخنا قد جرى طمسه. إنّنا أناس غير مرئيين. وتعود قوّة وهيمنة الرواية الإسرائيليّة إلى كونها تعتمد كلِّيّة تقريبًا على نوع من الرؤية البطوليّة للروّاد الذين قدموا إلى صحراء. لم يتعاملوا في نهاية المطاف مع سكّان محليين ذوي وجود راسخ ومتجذّر ويعيشون في البلدات والمدن ويمتلكون بنيتهم الاجتماعيّة الخاصّة، بل مع مجرّد صحراء يقطنها بدو هائمون على وجوههم بحيث يسهل طردهم. إنّ قيام الصهيونيّة برسم صورة البدوي الهائم كان إجراء في منتهى التعقيد، لكنّ الصهيونيّة عمدت بالتأكيد إلى استخدامه في التعامل معنا كشعب. ومن أحاديث

العديد من الإسرائيليين الذين تحدّثت إليهم، وبخاصّة من أبناء جيلي، يدرك المرء أنّ ذلك الجزء من قصّة إنشاء الدولة الخاص بتثقيف المواطنين الإسرائيليين وتشكيلهم في الخمسينيّات والستينيّات إنّما كان يتركّز بالتحديد على ترسيخ فكرة إغلاق الباب في وجه الفلسطينيين. إنّ تلك فكرة تبدو صعبة القبول، والتي تقوم على أنّك هناك ليس لأنّك كائن عظيم بطولي هارب من الهولوكوست، ولكن جزءًا كبيرًا من وجودك هناك قائم على حساب شخص آخر حللت محلّه أو قتلته أو أقصيته.

يبدو لي في منتهى الأهمِّيّة والحالة هذه أن نخلق نوعًا ما من التطبيع الحقيقي، حيث يمكن للإسرائيليين أن يكونوا جزءًا من الشرق الأوسط وليس معتزلاً معزولاً مرتبطًا بالغرب على نحو كثيف، بينما يقوم بازدراء وتجاهل وإنكار حقوق الفلسطينيين. من مؤشرات ذلك أنّك حيثما حللت في إسرائيل، فإنّك تجد شواخص الطرق مكتوبة بالإنجليزيّة والعبريّة ولا تجد كتابة عربيّة. وهكذا، فإنّك تضلّ الطريق إذا كنت عربيًّا ولا تستطيع قراءة الإنجليزيّة أو العبريّة. إنّ ذلك يبدو مخطّطًا محكمًا. إنّه طريقة لتغييب ٢٠٪ من السكّان. وهكذا، فإنّ من الضروري جدًّا أن يتمّ إجبار الإسرائيليين ثقافيًّا وعقلانيًّا وأخلاقيًّا على مواجهة الحقائق التي ينطوي عليها تاريخهم.

إنّ هذا دور ينبغي أن يضطلع به المؤرّخون الجدد. لكن من الضروري للفلسطينيين أيضًا أن يقوموا بتوصيل ذلك مباشرة إلى الإسرائيليين ويقولوا: هذا هو الواقع. وأظن أنّ واحدة من نتائج عام ١٩٤٨ هي أن يتسنّى لنا في هذا الوقت المتأخّر، وبعد مرور خمسة عقود، التمكّن من الشروع بالتحدّث عن التاريخ الفلسطيني والإسرائيلي معًا. ينبغي أن نتمكّن من رؤية التاريخين المتباعدين وهما ينضفران ويمتزجان معًا. وبدون ذلك، فإنّ الآخر سوف يظلّ على الدوام فاقدًا للإنسانيّة وشيطانيًّا وغير مرئي. يجب أن نجد طريقة بحيث يصبح دور العقل والثقافة والوعي الأخلاقي دورًا حاسمًا. لا بدّ أن تكون هناك طريقة ملائمة للتعامل مع «الآخر» وإفساح مكان له في مواجهة فكرة عدم وجود الحيّز. وهكذا فإنّ هذا الطرح يبتعد كل البعد عن اليوتوبيّا. إنّ اليوتوبيا تعني اللامكان، بينما يعني هذا الطرح توضيعًا للآخر في حيّز وتاريخ حسيَّين.

هذا هو السبب وراء فكرتي حول ضرورة قراءة الخرائط والجغرافيا وخلق الحيِّز الذي يتّسع لكل ذلك، ليس للتاريخ وحسب، وهو الأمر الذي يفعله المرء على أيّة حال ويستطيع أن يكتب من خلاله روايات من نوع خيالي، وإنّما بالنظر إلى

التضاريس الحقيقيّة على الأرض. لقد أطلق موشيه دايان ملاحظة مهمّة في أواسط السبعينيّات حين قال: «لا يوجد مكان واحد بني في هذا البلد لم يكن فيه سكّان عرب من قبل»(١١). لقد استطاع دايان رؤية ذلك، ثم قال: «لقد استولينا على هذه الأماكن بالقوّة. لا تنسوا ذلك». لكن الأجيال اللاحقة، وبتأثير القرب من الولايات المتحدة ومجتمع يهود الشتات الأميركيين قاموا بنحت وتعرية أي إمكانيّة لذلك الإحساس وإضعافه. إنّه من الضروري لأولئك الذين استطاعوا أن يحرّروا أنفسهم من قيود الدوغماطيّة والاعتقاد الصارم والسلطة أن يقوموا بتلك الخطوات وأن يكشفوا للناس عن تلك الأماكن كما هي في حقيقتها. كما أنّ من الضروري للعرب أن يفهموا أيضًا أنّ تلك المسألة ليست ظاهرة ثانويّة أو مصاحبة وعرضيّة مثل تجربة الصليبيين أو الإمبرياليين الذين يمكن إعادتهم إلى مكان ما. من المهم جدًّا لنا أيضًا أن نصِرّ، كما أفعل أنا دائمًا، على أنّ الإسرائيليين هم إسرائيليّون. إنّهم سكّان مجتمع يسمّى إسرائيل، إنّهم ليسوا «يهودًا» بهذه البساطة، وبحيث يمكن التفكير بهم مرّة أخرى على أنّهم جوّالون يمكنهم العودة إلى أوروبا. إنّ هذا النوع من المفردات المتعلّقة بالوجود المؤقّت والانتقالي هو أمر ينبغي على المرء رفضه كلّيًّة.

دانييل بارنبويم Daniel Barenboim عازف بيانو وقائد أوركسترالي معروف على نطاق عالمي، ولد في الأرجنتين وترعرع كإسرائيلي. وقد كانت لك معه تفاعلات موسيقيّة مثيرة للاهتمام.

ـ تقابلنا أنا ودانييل لسبع أو ثماني سنوات خلت، ومن المثير للدهشة حقًّا أنّنا أصبحنا أصدقاء حميمين. إنّه يسافر كثيرًا وكذلك أنا وتتقاطع دروبنا في بعض الأحيان.. وقد حاولنا أن نقوم ببعض الأشياء وأجرينا حوارات علنيّة، ليس بينها الكثير من الحوارات السياسيّة، لأنّه ليس أبعد منّي انخراطًا في السياسة. إنّه يتحدّث عن أشياء مثل الموسيقى والثقافة والتاريخ، وهو شديد الاهتمام كإسرائيلي أو موسيقي يهودي بأعمال أناس مثل ڤاغنر، الذي يمثّل ما يمكن وصفه بفكر الإنكار التام لليهود مع أنّه كان مع ذلك موسيقيًّا عظيمًا. وهكذا فإنّه مهتم بهذه المفارقة حيث تعمل الثقافة والموسيقى على نحو متواز بينما هما يشكّلان نقيضين في الوقت نفسه. ونحن الآن نعمل معًا في إعداد كتاب يقوم على مناقشة هذه الفكرة(١٢). لكن بارنبويم في الوقت نفسه غير قانع، كما هو شأني، بالتزمت السائد في مجتمعه الخاصّ. إنّه

لم يعد يقيم في إسرائيل مؤخّرًا، وقد رفض في السنة الماضية أن تكون له أيّ صلة بالاحتفال الأوركسترالي بمناسبة الذكرى الخمسينيّة لإنشاء إسرائيل. إنّه يعارض بشدّة احتلال الضفّة الغربيّة ويتحدّث علنًا عن دولة فلسطينيّة. إنّه رجل يتحلّى بالشجاعة وذو شخصيّة عقائديّة ملتزمة. إنّ الموسيقى تصل فيما بيننا، لكن الحقائق البيوغرافيّة تفعل ذلك أيضًا؛ فهو قد وصل إلى فلسطين أو تل أبيب حيث تقيم عائلته تقريبًا في الوقت ذاته الذي تمّ فيه طرد عائلتي.

ثمّة علاقة دافئة وحميمة تجمع بيننا. وقد رتّبت له مؤخّرًا في الأسبوع الماضي وللمرّة الأولى على الإطلاق لكي يقدّم عزفًا منفردًا في جامعة بير زيت، كبرى الجامعات في الضفّة الغربيّة، وكانت تلك إيماءة عظيمة من جانبه. وقد استغرق العمل على إنجاح ذلك النشاط الكثير من الجهد والوقت؛ وكانت هناك مختلف أنواع العوائق التي لم تكن في جانبه. فقد تم إغلاق بير زيت من قبل الإسرائيليين لمدّة أربع سنوات خلال الانتفاضة، وكان قد تمّ إبعاد رئيس الجامعة لمدّة عشرين سنة ما بين عام ١٩٧٤ وعام ١٩٩٤. وقبل شهرين قتلت القوّات الإسرائيليّة طالبًا بالقرب من الحرم الجامعي. كان هناك كل هذا التاريخ الطويل من العداء والكراهية بين بير زيت والإسرائيليين.

وهكذا، فقد كان من الصعب في بداية الأمر طرح فكرة أن يذهب إسرائيلي للعزف هناك، لكنّ الأمر حظي بالقبول بمرور الوقت. وكان ذلك نجاحًا رائعًا، بل لقد كان واحدًا من أبرز الأحداث التي شهدتها في حياتي. وإذا جاز لي أن أتحدّث باسمه، فإنّني أقول إنّ تلك ربّما كانت المرّة الأولى في حياته التي استطاع فيها دانييل أن يفعل مثل ذلك ويتسامى من خلال فعل ليس ثقافيًّا محضًا وحسب، وإنّما إنساني ينطوي على الكثير من روح التضامن والصداقة. لقد عرض دانييل خدماته والتي يعلم الله كم هي مطلوبة في أيّة صالة حفلات في العالم وكم هي مكلفة. إنّ دانييل رجل في قمّة الحرفيّة الموسيقيّة كعازف بيانو عظيم وكقائد فرقة بارع، وقد جاء ببساطة ليعزف، وأحضر معه آلته نظرًا لعدم توافر آلة بيانو هناك. جاء ليقدّم عزفًا منفردًا لجمهور فلسطيني في معظمه. ومن المفارق أنّه جاء ليعزف في تلك القاعة من قاعات الجامعة التي تحمل اسم كمال ناصر ابن عم رئيس الجامعة، والذي كان قد اغتيل في بيروت عام ١٩٧٣ ــ كان كمال صديقًا حميمًا لي وكنت هناك عندما تمّ اغتياله. وكان

يقود فريق الاغتيال إيهود باراك الذي يتزعّم الآن حزب العمل، والذي كان آنذاك ضابطًا في الاستخبارات[١٣].

كل ذلك أعطى للأمسية طابعًا عاطفيًا مؤثّرًا، وربما أقول: رجعًا ثقافيًا لم يغب وقعه أبدًا عن أيّ من الحاضرين هناك. وقد حضر أيضًا «زوبين مهتا» Zubin Mehta وهو صديق قريب من دانييل، ومدير الجمعيّة الموسيقيّة الإسرائيليّة. إنّه هندي ومنافح غيور عن إسرائيل ولم يكن قد سبق له زيارة الضفّة الغربيّة، لكنّه جاء، وكانت الدموع تنحدر على وجنتيه. كانت تلك مناسبة ذات معنى وجديرة بالاعتبار، لاسيما وأنّها لم تكن ذات طابع سياسي بالمعنى الصريح. لم يكن هناك من يحاول أن يقارف قتلاً أو يسجّل نقطة، بل كانت محض إيماءة إنسانيّة وفعلاً تضامنيًا وحسب، قائمًا على الصداقة التي تجمع بيني وبين بارنبويم ودائرة من الأصدقاء الفلسطينيين الذين يحبّونه والذين يحبّ أن يكون بينهم. إنّ بارنبويم لم يتّخذ الموقف الذي تتّخذه إسرائيل، والتي يعتقد بأنّه ينبغي عليها العيش ضمن علاقات من الصداقة والمساواة مع العرب والمسلمين إذا ما كانت ترغب بالاستمرار في الوجود. إنّه يتوق توقًا شديدًا إلى تعلّم اللّغة العربيّة. وهو يمثّل حالة غير عادية لا تصدّق ومتقدّمة إلى حدّ يجعلها قريبة من شخصيّة نبي عبقري. وهو ينتمي إلى نوع نادر من الأشخاص الذين لم نعد نجد الكثير منهم الآن. وأنا آمل أن نتمكّن من تعزيز هذا النوع من الأنشطة مع مرور الوقت.

ربما ينبغي أن أشير أيضًا إلى أنّ دانييل سيقوم مع يو يو ما Yo Yo Ma بتقديم شيء في ڤيمر Weimar هذا الصيف، وڤيمر هي العاصمة الثقافيّة لأوروبا لعام ١٩٩٩. لقد فكّرنا في استقدام عدد من الموسيقيين الموهوبين إلى ڤيمر غالبيّتهم من العرب مع قليل من الموسيقيين الإسرائيليين من أعمار تتراوح بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين حيث يقيمون لمدّة عشرة أيّام تقريبًا. ولعلّ ما تجدر الإشارة إليه أنّ ڤيمر تقع على بعد ساعة واحدة من بوخينڤالد Buchenwald، وهكذا فإنّ لها هذا الطابع التاريخي إضافة إلى كونها مدينة كلّ من غوته وشيلر وليتزت الذين يمثّلون أعلى ذرى الثقافة الألمانيّة. ولمدينة ڤيمار هذه صلة بإنشاء دولة إسرائيل وبمشكلة الفلسطينيين وما نجم عنها من شتات وإحباط بسبب قربها من باخينڤالد. وهكذا، فإنّ للفكرة علاقة بالدراسة الموسيقيّة على أيدي دانييل ويويو وموسيقيين آخرين من فرقة أوبرا الدولة الألمانيّة التي يقودها دانييل. وفي المساءات نقيم حوارات أقوم أنا على

إدارتها حول العلاقات بين الثقافة والسياسة والتاريخ، خاصّة الموسيقى. وقد تقدّم لنا موسيقيّون رائعون وأرسلوا تسجيلات لأعمالهم تمّ الاستماع إليها وتقييمها وقبولهم بناء عليها. وهي تجربة تَعِدُ بأنّها ستكون رائعة وممتعة لنا جميعًا.

إنّ الأمر الجيّد بالنسبة لي في هذا الأمر، بوصفي الشخص الذي أنا عليه، هو أنّه ليس ثمّة برنامج لهذا النشاط ولا يترتّب على أيّ شخص أن يوقّع على إعلان في النهاية. إنّه وحسب مجرّد نوع من المزيج الفريد الذي يلتفّ حول شيء مركزي ثقافي الطابع، والذي يمكن أن ينجم عن تجربته الكثير من النتائج الممكنة التي لا يمكن التنبؤ بماهيتها، والتي ربما تكون سياسيّة في نهاية المطاف. لكن، وبما أنّه ليس فينا من هو سياسي محترف، فإنّنا لسنا معنيين حقًّا بذلك البعد من المسألة. إنّ ما نوليه الاهتمام فعلاً هو قدرة الموسيقى والحوار والثقافة على خلق حسّ بالمساواة والندِّيّة والرفقة، تلك الأمور التي لا تتسنّى لنا ونحن في خضمّ كل ذلك الغضب والتوتّر الذي يسم حياتنا الخاضعة للاستقطاب في الشرق الأوسط.

مرّت ثماني سنوات منذ اكتشفتَ خلال فحص روتيني لمستوى الكوليسترول وجود مرض اللوكيميا لديك، والناس يريدون أن يعرفوا شيئًا عن صحّتك، فكيف تحسّ؟

ـ أشكرك على السؤال. لقد مررت بفترات سيّئة. في السنوات الثلاث الأولى لم أكن بحاجة إلى علاج. وفجأة، وفي ربيع ١٩٩٤ بدأت بتلقّي العلاج الكيماوي في البداية ثم الإشعاعي. وقد أدّى كل ذلك إلى كثير من الأعراض والعوائق الموهنة التي كانت خلال عامي ١٩٩٧ و ١٩٩٨ في غاية الصعوبة بالنسبة لي. كنت أعاني من نوبات المرض معظم الوقت وفقدت الكثير من الوزن. لديّ طبيب هندي رائع يقوم على العناية بي. وخلال مروري بكل ذلك، اكتشفت الأمر المفزع، وهو أنّ لديّ نوعًا نادرًا من اللوكيميا يطلق عليها اسم «اللوكيميا العنيدة» refactory leukemia والتي تقاوم كل الأنواع المعروفة من العلاجات الكيماويّة. في الصيف الماضي خضعت لمعالجة تجريبيّة لمدّة اثني عشر أسبوعًا تسمّى «الجسم المضادّ الأحادي»، بمعدل ثلاث أو أربع جلسات من ذلك العلاج أسبوعيًّا. ولحسن الحظّ، تكوّن لديَّ الآن ما يسمّى بالتسكين المؤقت. إنّه ليس شفاءً فالمرض يعود، لكن هذا العلاج استطاع على الأقل أن يوفّر لي ستّة أشهر حتى الآن بدون معالجة حثيثة ووضعًا صحّيًّا جيّدًا بشكل عام، وهو أمر يشعرني بالراحة.

الهوامش

(1) Bartom Gellman, «Netanyahu, Arafat Sign Accord,» *Washington Post*, October 24, 1998, p. A1.

(2) United Press International, «Palestinian Lawmaker Condemns Book Ban,» August 23, 1996.

(3) Edward Said, «The One State Solution,» *New York Times Magazine*, January 10, 1999, p. 6: 36-39

(4) Interview with Edward W. Said, *The Charlie Rose Show*, WNER-TV, June 6, 1996.

(5) See Meron Benvenisti, «The Return of the Refugees Won't Tip the Scales,» *Ha'aretz*, July 8, 1998.

(6) See Simha Slapan, Zionism and the Palestinians (London: Croom and Helm, 1979), p. 143.

(7) See, among other works, Benny Moris, *The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949* (Cambridge: Cambridge University Press, 1989); Avi Shlaim, *Collusion Across the Jordan: King Abdullah, the Zionist Movement, and the Partition of Palestine* (New York: Columbia University Press, 1988); and Ilan Pappe, *The Making of the Arab-Israeli Conflict*, 1947-1951 (London: I.B.Taurus, 1992).

(8) See Martin Sieff, «The Israeli Arabs - A Ticking Time Bomb,» United Press International, October 2, 2000.

(9) Deborah Sontag, «Arafat's Gamble: A Casino for an Israeli Clientele,» *New York Times*, September 15, 1998, p. A4; Agence France , «Palestinian Authority Admits Squirreling Millions Away in Secret Slush Fund,» July 5, 2000.

(10) Deborah Sontag, «Suha Arafat: A Militant in a Blue BMW,» New Vintage Books, 1992), p. 14.

(11) Edward W. Said, *The Question of Palestine, 2nd* Edition. (New York,: Vintage Books, 1992), p. 14.

(12) Daniel Barenboim and Edward W. Said, *Parallels and Paradoxes: Explorations in Music and Society*, (New York: Pantheon Books, 2002).

(13) John Kifner, «Israel's Silence Reinforces Belief Its Commandos Killed P.L.O. Aide,» *New York Times*, April 18, 1988, p. A1.





انتفاضة عام ٢٠٠٠: النهوض الفلسطيني

New York, New York, November 9, 2000

في كتاباتك ومحاضراتك حول الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني، تشير بشكل مستمرّ إلى الدور المركزي الذي يمثّله عام ١٩٤٨. ما الذي يحتاج الناس إلى معرفته بشأن عام ١٩٤٨؟

ـ لا أظنّ أنّ بوسع المرء فهم ما يحدث اليوم وطبيعة الوضع الذي يعيشه الفلسطينيّون إلاّ إذا فهم ما حدث عام ١٩٤٨. لقد تمّ اقتلاع مجتمع يتكوّن أساسًا من العرب الفلسطينيين من جذوره وتمّ تدميره، وتمّ طرد السكّان الفلسطينيين البالغ عددهم ثمانمائة ألف في ذلك الحين إلى الخارج بشكل مخطّط له ومبيّت. وتبدو السجلات الصهيونيّة واضحة تمامًا بهذا الخصوص، كما أنّ العديد من المؤرّخين الإسرائيليين كتبوا عن ذلك[١]. وبالطبع، كان العرب قد تحدّثوا عن ذلك منذ زمن طويل. في نهاية صراع عام ١٩٤٨، أصبح الفلسطينيّون أقلّيّة في البلاد التي هي لهم في الأصل، وأصبح ثلثاهم لاجئين، وقد بلغ عدد المنحدرين منهم اليوم ما يقارب السبعة ملايين ونصف المليون نسمة متناثرين في كل أنحاء العالم العربي وأوروبا وأستراليا وأميركا الشمالية[٢]، وبعد ذلك خضع معظم المتبقّين من الشعب الفلسطيني للاحتلال العسكري عام ١٩٦٧ عندما تمّت السيطرة على الضفّة الغربيّة وغزّة إضافة إلى القدس واحتلالها.

إنّ عام ١٩٤٨ هو التاريخ الذي بدأ فيه الفلسطينيّون نضالهم من أجل الحرّيّة وحقّ تقرير المصير، ولم يبدأ ذلك عام ١٩٦٧ حين كان الأمر مجرّد إتمام لعمليّة الغزو الإسرائيلي. وخلال عام ١٩٤٨، لم يتمّ الاستيلاء على أرض الفلسطينيين والبالغة

٩٤٪ بالقوّة العسكريّة لدولة إسرائيل واعتبارها أرضًا لليهود وحسب، وإنّما بات ذلك يعني أنّ العرب الذين بقوا، والذين يشكّلون اليوم ما نسبته ٢٠٪ من سكّان إسرائيل، لا يسمح لهم بامتلاك الأرض التي أصبحت الدولة تسيطر عليها بغية منحها للسكّان اليهود. ثانيًا: تمّ تدمير أكثر من أربعمائة قرية فلسطينيّة ثم جرى إعادة استيطانها على أيدي المستوطنين الإسرائيليين الذين بنوا المستوطنات. إنّ كل مستوطنة في إسرائيل تقوم على أملاك عربيّة. وهكذا فإنّ الجرح الذي انفتح عام ١٩٤٨ ما يزال راعفًا ولم يلتئم بعد، في الوقت ذاته الذي تداوم فيه إسرائيل على القول منذ عام ١٩٤٨: «نحن لا نتحمّل أيّة مسؤوليّة حيال ما حدث للفلسطينيين. لقد رحلوا لأنّ قادتهم أمروهم بذلك». وقد جرى تسخير كافّة الأساليب الدعائيّة لترسيخ تلك الفكرة بحيث بات الاعتقاد السائد يقوم على أنّ الإسرائيليين لم يقوموا بطرد الفلسطينيين. ثالثًا: لم تبذل إسرائيل أيّ محاولة على الإطلاق، حتى خلال المؤتمر الأخير في كامب ديڤيد في يوليو (تموز)، لبحث مسألة حقّ العودة، وهو المطلب الرئيسي لكل فلسطيني، حيث يأمل بأن يسمح له/أو لها بالعودة إلى المكان الذي هاجروا منه عام ١٩٤٨[٣]، وفي هذا يكمن جوهر المسألة برمّتها.

هلاّ حدّثتنا عن الإطار الذي ينتظم الخطاب الجماهيري؟، وهلاّ ابتدأت بالحديث عن «عمليّة السلام».

ـ بدأت عمليّة السلام عام ١٩٩٣ حين تمّ إبرام اتفاق سرّي بين منظمة التحرير الفلسطينيّة والحكومة الإسرائيليّة يجري بموجبه إعطاء الفلسطينيين ومنظّمة التحرير الفلسطينيّة بقيادة ياسر عرفات بعض المناطق والسلطة في الضفّة الغربيّة وغزّة.. ومع ذلك، ونظرًا للتفاوت الهائل في ميزان القوى بين الإسرائيليين والفلسطينيين، فقد أصبحت عمليّة السلام ببساطة مجرّد إعادة تغليف للاحتلال الإسرائيلي. وحتى هذا اليوم الذي نتحدّث فيه من نوڤمبر عام ٢٠٠٠، لا تزال إسرائيل تسيطر على ٦٠٪ من الضفّة الغربيّة و٤٠٪ من غزّة. لقد ضمّت إسرائيل القدس وملأت المناطق بالمستوطنين. وإذا ما أضفنا أولئك الذين تمّ توطينهم في القدس، فإنّ هناك حوالى ٤٠٠,٠٠٠ إسرائيلي يعيشون هناك بشكل غير قانوني[٤]. هناك مستوطنات واحتلال عسكري هو الأطول عمرًا في القرنين العشرين والواحد والعشرين متجاوزًا الاحتلال الأطول قبل ذلك وهو الاحتلال الياباني لكوريا ما بين عامي ١٩١٠ و١٩٤٥. وهكذا

يكون هذا الاحتلال الذي بلغ عمره ثلاثة وثلاثين عامًا قد حطّم الرقم القياسي.

في المقام الأوّل، ورّطت العمليّة السلميّة القيادة الفلسطينيّة بكل بساطة بقبول الشروط الإسرائيليّة. ولم ينجم عنها سوى انسحاب صغير للقوّات الإسرائيليّة بينما المستوطنات لا تزال قائمة والقدس لا تزال تحت وطأة الحكم والاستيطان الإسرائيليين. ولا تزال الحدود والمياه تحت سيطرة إسرائيل والأمن خاضع للسيطرة الإسرائيليّة. وكلّ ما فعله الأميركيّون والإسرائيليّون كان استدراج الفلسطينيين إلى القبول بهذا الشكل من إعادة تغليف الاحتلال، وتمّ تسويق ذلك للناس على أنّه تحرّك باتجاه السلام بينما هو في الحقيقة خديعة هائلة. ويمكن لذلك فقط أن يفسّر إلى حدّ ما عمق الانتفاضة الفلسطينيّة وامتدادها، والتي لا تزال مستمرّة منذ التاسع والعشرين من سبتمبر عام ٢٠٠٠.

ماذا عن مفهوم «الدفاع»؟

ـ يُدعى الجيش الإسرائيلي طبعًا بجيش الدفاع الإسرائيلي، ويتمّ النظر إليه بوصفه جيشًا دفاعيًا. وقد عملت وسائل الإعلام على تقديمه، وبشكل ماكر، كما لو أنّه يدافع عن إسرائيل ضدّ الفلسطينيين الذين يرمون الحجارة في الأساس، وهو أمر يتسم إلى حدّ ما بخصيصة أورويليّة(*). إنّ الفلسطينيين لا يمتلكون أسلحة يمكن التحدّث عنها عدا عن بعض الأسلحة الصغيرة التي لدى الشرطة، والأمر كلّه لا يعدو وجود عدد من رماة الحجارة الشباب الذين يتصدّون للصواريخ الإسرائيليّة والطائرات النفّاثة والدبّابات والمقاتلات العموديّة والصواريخ، والأهمّ من ذلك أنّ معظم المعارك جرت فوق الأرض الفلسطينيّة. وهكذا، فإنّ استخدام كلمة «دفاع» هنا ينطوي على خطأ كبير ومنافاة للواقع. إنّنا أمام قوّة احتلال تقيم داخل الأراضي الفلسطينيّة حيث يقوم الفلسطينيّون بمقاومة الاحتلال العسكري بينما يعمل الإسرائيليّون على إطالة أمده، وهم يفعلون كلّ ما فعلته من قبلهم كل قوات الاحتلال سواء في الجزائر أو الهند، ويجعلون السكّان المدنيين يدفعون ثمن المقاومة.

(*) نسبة إلى الكاتب الإنجليزي جورج أورويل George Orwell الذي أصبح يعاني في أواخر أيّامه من جنون الارتياب وينظر إلى المحيطين به بخوف، ويعتقد أنّه يعيش في محيط معاد وعلى نحو مرضي. (المترجم).

ماذا عن الإرهاب؟

ـ إنّ صراعًا في غاية البشاعة كان يجري ولا يزال منذ العشرينيّات عندما استقدم الصهاينة الإرهاب إلى فلسطين في ركابه. وقد مثّل الإرهاب واحدًا من الأساليب المفضّلة والقياسيّة التي استخدمتها الجماعات الأولى من الصهاينة المتطرّفين في العشرينيّات، إذ قاموا حينذاك بزرع القنابل في الأسواق العربيّة لإرهاب السكّان. وقد أدّى ذلك إلى مزيد من التصعيد خلال الثلاثينيّات والأربعينيّات حينما قام الصهاينة باستخدام الإرهاب ضدّ البريطانيين لتسريع انسحابهم من فلسطين، والتي انسحبوا منها، بالطبع، عام ١٩٤٨.

منذ تلك الآونة، مرّ الإرهاب بأطوار من المدّ والجزر. وفي كل الحالات، يجب أن يظلّ ماثلاً في البال أنّه على الرغم من الخسائر الرهيبة في الأرواح (ليس هناك أيّ تسامح مع الإرهاب أو التماس أعذار له أو طريقة لتعويض الأبرياء الذين فقدوا حياتهم بسببه) فقد كان هناك تفوّق عددي في خسائر الجانب الفلسطيني. وإذا ما نظرت إلى ما تمثّله الأرقام خلال السنة الأخيرة، فستجد أنّ مائة وثمانين فلسطينيًا قد تمّت تصفيتهم مقابل أربعة عشر إسرائيليًا[٥]، ويمكنك أن تفهم الفارق حين تعلم أنّ ثمانية من القتلى الإسرائيليين كانوا من الجنود بينما كان كل الضحايا الفلسطينيين من المدنيين. وفي هذا السياق، فإنّ الإرهاب بالنسبة للفلسطينيين لم يكن سوى سلاح الضعيف المضطهد وكان محدودًا وغير مركّز، إلاّ أنّ الإسرائيليين يقومون بنفخه وتضخيمه إلى حدود خياليّة، ويحاولون أن يصوّروا أنفسهم على أنّهم ضحايا بينما هم في الحقيقة لا يمثّلون الضحيّة في هذا الصراع، وإنّما الطرف الذي يمارس الاضطهاد ويقوم بالاعتداء على الفلسطينيين.

ماذا بشأن الإشارات المستمرّة إلى الولايات المتحدة بوصفها الوسيط النزيه والنظيف اليد وغير المنحاز؟

ـ إنّ إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي تتلقّى المساعدات العسكريّة والاقتصاديّة الأميركيّة التي أصبحت تقارب الآن نحو ١٣٥ بليون دولار بقيمة الدولار الحالية[٦]، كما أنّ كل شخص أميركي ذي شأن، سواء كان مرشّحًا في مقاطعة صغيرة في شمال ولاية نيويورك أو منافسًا على رئاسة الدولة، يترتّب عليه أن يعلن عن

نفسه/أو نفسها كواحد من المؤيّدين لإسرائيل دون قيد أو شرط. ثم إنّ تصريحات الكونجرس، سواء في مجلس الشيوخ أو مجلس النوّاب، تتحكّم بها بشكل أوتوماتيكي أغلبيّات كاسحة مؤيّدة للسياسة الإسرائيليّة بسبب قوّة اللوبي الإسرائيلي ووجود مجتمع من المؤيّدين لإسرائيل يمتاز بالنشاط والذكاء السياسي والوعي موضوع في مكانه بدقّة. لقد ركّزت سياسات الولايات المتحدة فعلاً على الدفاع عن إسرائيل ودعمها في كل مغامراتها، واستخدمت الولايات المتحدة حقّ النقض ضدّ عشرات من قرارات مجلس الأمن للحيلولة دون إدانة إسرائيل في أوضاع تمثّل انتهاكات فاضحة للقانون الدولي، تتراوح بين استخدام التعذيب وبين استخدام الطائرات العموديّة والصواريخ ضدّ المدنيين إضافة إلى بناء المستوطنات وعمليّات الضمّ غير القانونيّة[٧].

وهكذا، فإنّ القول بأنّ الولايات المتحدة وسيط نزيه وغير منحاز إنّما هو وصف رديء ومجانب للمنطق. إنّ أميركا تصطف في المعسكر الإسرائيلي إلى حدّ كبير، وكلّ المعلومات التي لدينا عن المفاوضات التي جرت خلال السنوات السبع المنصرمة حول عمليّة السلام تقول بأنّ الولايات المتحدة قد تبنّت في الحوارات كلّها وجهة النظر الإسرائيليّة وشكّلت ظهيرًا لإسرائيل. وينبغي أن نذكر بهذه المناسبة أيضًا أنّ كل المفوّضين الذين انخرطوا في عمليّة السلام، بدءًا من دينيس روس ومارتن إنديك وانتهاء بآهارون ميلر، إنّما هم مستخدمون سابقون في اللوبي الصهيوني أو موالون له منذ أمد طويل.

لاحظت الإكونوميست الأسبوعيّة البريطانيّة المحافظة أنّ الانتفاضة الفلسطينيّة الجديدة تتخذ بتسارع شكل «ثورة جديدة ضدّ الاستعمار»[٨]، وربما يمثّل ذلك أوّل استخدام لهذه العبارة في مطبوعة واسعة الانتشار.

ـ أعتقد أنّ ثورة ضدّ الاستعمار كانت قائمة من قبل خلال الانتفاضة الأولى التي اشتعلت عام ١٩٨٧ وأوقفها عرفات عام ١٩٩٣. إنّ ما يجري هناك هو ثورة بالتأكيد؛ ذلك أنّ احتلال الضفّة الغربيّة وغزّة ووجود المستوطنين والمستوطنات والطرق الالتفافيّة والمصادرة المستمرّة للأراضي الفلسطينيّة وإتلاف المزروعات وأشجار الزيتون لإفساح المجال لبناء مزيد من الطرق، وإعادة تصميم جغرافيّة الضفّة الغربيّة لتوفير المزيد من السيطرة الإسرائيليّة؛ كل هذه السياسات التي جرى انتهاجها، حتى

لو لم ترها وسائل الإعلام الأميركيّة على هذا النحو، إنّما تسير حرفيًا على خطى الاستعمار التقليدي بكل تجلّياته، بمعنى سعي الاستعمار إلى التأكّد من إبقاء الشعوب المضطهدة والخاضعة محتجزة داخل إحساسها بالتبعيّة خدمة لمصلحة المستعمر وأحيانًا لمصلحة متعته ورفاهه.

وهكذا، فإنّ ما حدث في الأسابيع الستة أو السبعة الأخيرة لم يكن سوى محاولة للإطاحة بعمليّة السلام، والتي هي، كما أسلفت، ليست سوى إعادة تغليف للاحتلال وعصرنته بحيث تتسنّى للإسرائيليين إدامة السيطرة دون الحاجة إلى استخدام كثير من القوّات. وقد جرى بين فينة وأخرى استخدام الفلسطينيين للعب دور الشرطي ضدّ شعبهم نيابة عن الإسرائيليين، وكان ذلك جزءًا من عمليّة السلام. والمفارقة التي ينطوي عليها ذلك هي أنّ جانبًا كبيرًا من مسألة الأمن الإسرائيلي قد تمّ توريثها للشرطة الفلسطينيّة، التي بات عليها أن تقوم بإخضاع أولئك الذين يتظاهرون الآن ضدّ الاحتلال ويناهضونه. إنّ هذا الحريق الهائل وهذا الفقدان الكبير للأرواح لا يمكن إلاّ أن يكون النتيجة الحتميّة لسياسة احتلال قامت بتقويض حياة الناس، وعلى نحو جعل البديل الوحيد المتاح لهم هو الخروج إلى الشوارع، حيث يقومون بشجاعة، والبعض يقول بطيْش، بقذف الحجارة على الدبابات دون خوف.

إنّنا نتذكّر الاحتجاجات العنيفة التي جرت في ميدان تيانانمين Tiananmen لبضع سنوات خلت، ونذكر الهرج العالمي الذي اتخذ مظهر الإعجاب والدعم والمباركة والثناء على شجاعة الشباب الصينيين الذين واجهوا الدبابات العسكريّة في ميدان تيانانمين، لكن مثل ذلك لم يحدث هنا. إنّ وسائل الإعلام في أغلبها مؤيّدة لإسرائيل بحيث لا يستطيع الناس العاديّون أن يوصلوا صوت دعمهم لما يمثّل في الواقع محاولة شجاعة للإطاحة باستعمار عسكري الطابع.

لقد أوضحت أنّه ليس ثمّة خرائط في صراع يمكن وصفه بأنّه من أكثر الصراعات جغرافيّة. لم تعتقد بأنّ الخرائط مهمّة؟

ــ قبل كل شيء، بسبب طبيعة فلسطين نفسها، فالمنطقة كلها صغيرة، ولا يزال هذا الصراع مستمرًّا منذ خمسين سنة. وعدا عن كونه لم يحظ سوى بلحظات انتباه قليلة وعلى نحو رديء من قبل بعض معدّي البرامج التلفزيونيّة العاديين أو القرّاء أو

الصحافيين، إلاّ أنّ القليل جدًّا من الوعي بالتاريخ أو الطبوغرافيا الجغرافيّة قد تخلّل هذا الانتباه. معظم الناس يقولون: «ها هم العرب واليهود يعودون إلى ذلك مرّة أخرى»، وهو ما يخلق الانطباع بأنّ هناك طرفين متساويين، وأنّ أحدهما، وهو الطرف الإسرائيلي، يجري إقلاق راحته ومعاملته كضحيّة بينما العرب هم الذين يعتدون ويهدّدون. وبالطبع، ترفرف ذكريات الهولوكوست والاشمئزاز من معاداة الساميّة في خلفيّة المشهد، بينما في الواقع، نجد أنّ الذي حدث لكل الفلسطينيين منذ إنشاء دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ إنّما يعني في الحقيقة أنّ ٧٨٪ من فلسطين التاريخيّة التي كانت عربيّة قد أصبح إسرائيليًّا[٩]، وهو ما يجري اعتباره أمرًا مسلّمًا به. وتشكّل الضفّة الغربيّة وغزّة معًا ما نسبته ٢٢٪ من فلسطين التاريخيّة، وهو الجزء الذي يجري عليه الصراع الحالي. إنّ الفلسطينيين لا يقاتلون من أجل الـ ٧٨٪ من الأرض التي فقدوها من قبل، وإنّما يقاتلون من أجل الـ ٢٢٪ الباقية. ومن هذه الـ ٢٢٪ لا يزال الإسرائيليّون يسيطرون على ٦٠٪ من الضفّة الغربيّة وعلى ٤٠٪ من قطاع غزّة. وهكذا، فإنّه إذا ما قيض أبدًا لدولة فلسطينيّة أن تنشأ، فإنّها لن تشكّل منطقة متصلة الأجزاء وإنّما ستكون مقطّعة إلى قطع صغيرة تظلّ تحت رحمة الطرق التي شقّها الإسرائيليّون، والتي تحيط الآن بكل من المناطق الفلسطينيّة والتي هي السبب اليوم في بقاء الفلسطينيين محاصرين داخل منطقتهم الصغيرة.

لقد خلق الإسرائيليّون حقائق على الأرض جعلت من المستحيل على الفلسطينيين الانتقال من منطقة إلى أخرى، من الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب إلى الشمال. وقام الإسرائيليّون بضمّ «القدس الكبرى» التي تشكّل ما نسبته ٤٪ من كامل المنطقة، وهم يخطّطون لعدم إعادتها إلى الأبد[١٠]. والفكرة هي أن تظلّ هذه المنطقة خاضعة بالكامل للسيطرة الإسرائيليّة ما عدا الخدمات البلديّة ومسائل مثل الصحّة وقضايا المواطن الإشكاليّة التي يريدون تسليمها للسلطة الفلسطينيّة، بينما ستظلّ مسائل الأمن والحدود تحت السيطرة الإسرائيليّة. وإلى اليوم لا يستطيع ياسر عرفات الدخول إلى غزّة أو الخروج منها بدون الحصول على إذن إسرائيلي، كما يستطيع الإسرائيليّون إغلاق المطار أو حتى تدميره بالكامل كما فعلوا من قبل، وأن يغلقوا المنطقة بحيث لا يتمكّن الناس من التنقّل أو التحرّك. وفي الواقع، فإنّه يجري إحكام الوثاق من حولهم حدّ الموت. هذه هي النتائج التي تمخّضت عنها عمليّة السلام، وهي ليست نتائج الحرب. إنّ هذا الواقع يمثّل جزءًا من كارثة

الترتيبات التي تمّت بين الإسرائيليين والقيادة الفلسطينيّة تحت رعاية الولايات المتحدة، وذلك هو السبب الكامن وراء انهيارها.

من أين تستقي معلوماتك؟

ـ من «تقرير حول الاستيطان الإسرائيلي في المناطق المحتلة» Report on Israeli Settlement in the Occupied Territories[١١]، والذي يصدر كل شهرين من واشنطن، ويقوم على تحريره جيفري أرونسون (Geoffrey Aronson). هذا التقرير هو نشرة تصدر عن «مؤسّسة السلام في الشرق الأوسط»، وهي من أكثر المصادر مصداقيّة والتي تستقي معلوماتها من وكالات دوليّة إسرائيليّة وفلسطينيّة حول معدّل بناء المستوطنات والتشبّث بالمستوطنات وإنشاء المستوطنات وتدمير الممتلكات والزيادة في أعداد سكان المستوطنات.

ناعوم تشومسكي Noam Chomsky، وألكسندر كوكبيرن Alexander Cockburn **وروبرت فيسك** Robert Fisk **ومنتقدون آخرون لسياسة الاستيطان الإسرائيليّة استخدموا تعبير «بانتووي»(*)** (bantostan) **في نعت تلك السياسة**[١٢].

ـ إنّ هناك نوعًا من الخصيصة القابلة للتكرار في ذلك، وهي خصيصة تأتي من تاريخ الاستعمار في القرن التاسع عشر. على غرار ما فعله الفرنسيّون في الجزائر حيث كانوا يجدون مناطق يمكن فيها وضع السكّان المحليين الراغبين في المعرفة في قراهم تحت إمرة رؤسائهم المحليين. وقد فعل البريطانيّون ذلك في غرب إفريقيا فيما يسمّى «الحكم غير المباشر»، حيث كانوا يعثرون على بعض الأهالي المحليين ليقوموا بدورهم بحكم مواطنيهم الجامحين وصعبي المراس، بينما تظلّ أنت بوصفك قوّة احتلال محتفظًا بالسلطة الحقيقية. وفي جنوب إفريقيا كانت الفكرة أن يوضع السود في محميات حيث يمكن لهم أن يحصلوا على بعض خصائص السلطة، لكن دونما امتيازات سلطة حقيقيّة، فهم لم يكونوا يسيطرون على الأرض ولا على المياه، بينما يسيطر بعض البيض على المداخل والمخارج، وهذا بالضبط هو النموذج

(*) البانتو: هم مجموعة كبيرة من الشعوب الزنجيّة في إفريقيا الاستوائيّة الجنوبيّة. وأعتقد بأنّ تشومسكي والآخرين يلمّحون بهذه التسمية إلى قيام الاستعمار في إفريقيا باستخدام رؤساء محليين للنيابة عنه في حكم الشعوب المحتلّة. (المترجم).

الجاري تطبيقه هنا؛ فالمناطق الفلسطينيّة، والتي هي صغيرة ومقسّمة إلى مراكز للسكّان الفلسطينيين إنّما تكافئ تلك المحميّات حيث يجري توليد انطباع لدى شخص ما مثل عرفات، أو أنّه يخلق لنفسه الانطباع، بأنّه هو القائد، لكن الخيوط الحقيقيّة يتمّ تحريكها من خلفيّة المشهد بأصابع المحتلّ الاستعماري.

ذهب آرئيل شارون إلى الحرم الشريف وقبّة الصخرة والمسجد الأقصى في القدس في الثامن والعشرين من أيلول[١٣]، وكانت برفقته حاشية تقدّر بحوالى الألف من رجال الشرطة الإسرائيليين. وينظر إلى زيارة الجنرال الإسرائيلي السابق ووزير الخزانة الحالي بوصفها عود الثقاب الذي أشعل جذوة الانتفاضة. ما الذي يمثّله شارون بالنسبة للفلسطينيين؟ وماذا يقول ذلك الحدث عن باراك الذي سمح لشارون بالقيام بزيارته؟

ـ يمثّل شارون في الميثيولوجيا الشعبيّة الإسرائيليّة نوعًا من بطل أسطوري، وقد بدأ مآثره ومغامراته الجريئة في الخمسينيّات حين كان المسؤول عن غزو بلدة (قبية) وقام بقتل حوالى خمسة وستين من السكّان الأبرياء في منازلهم انتقامًا لغارة على دوريّة عسكريّة إسرائيليّة قتل خلالها ثلاثة جنود في اليوم السابق[١٤]. وبعد ذلك، ذهب شارون من مغامرة إلى أخرى من النوع ذاته. وهو بشكل أساسي شخص يستأسد على الضعفاء ويختصّ باضطهاد المدنيين والأعداء الذين تقلّ إمكانيّاتهم كثيرًا عمّا لديه من حيث التجهيز. وكان هو العقار المهدّئ لغزّة بعد الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧. وفي مطالع السبعينيّات قام بتدمير العديد من البيوت وترحيل الفلسطينيين حتى يستأصل شأفة ما دعاه الإسرائيليّون بالخلايا الإرهابيّة التي كانت في حقيقتها خلايا مقاومة ضدّ الاحتلال في غزّة. وبالطبع، كان شارون فوق كل شيء مهندس عمليّة غزو لبنان عام ١٩٨٢، حين خدع مجلس الوزراء الإسرائيلي وقاده إلى الاعتقاد بأنّه سيدخل بضعة كيلومترات فقط في الجنوب اللبناني بينما ذهب في الواقع إلى حدّ دخول بيروت، وقتل الإسرائيليّون في غضون ذلك سبعة عشر ألف إنسان[١٥]. وقد أدانته لجنة للتحقيق في أحداث مخيّمات بيروت (لجنة كاهانا) باعتباره مسؤولاً غير مباشر عن مذابح مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين، التي جرت في مناطق كانت خاضعة للسيطرة الإسرائيليّة، رغم أنّ الفعل نفسه قد تمّ ارتكابه على أيدي المليشيات المارونيّة اللبنانيّة تحت إشراف الإسرائيليين[١٦].

وهكذا، وبكل المقاييس، فإنّ شارون ليس سوى مجرم حرب. وهو لم يخف رغبته في طرد بقيّة الفلسطينيين خارجًا ووضعهم في الأردن، حين قال إنّ حل مشكلة فلسطين يتمثّل فيما أسماه «الخيار الأردني»؛ أي تحويل الأردن، وهو دولة ذات سيادة، إلى دولة فلسطينيّة(١٧). ويمثّل ظهوره في المسجد الأقصى الذي تسيطر عليه إسرائيل بعد أن تمّ ضمّه مع بقيّة القدس الشرقيّة منذ عام ١٩٦٧ انتهاكًا سافرًا وكاملاً للقانون الدولي والعديد من قرارات الأمم المتحدة، عدا عن تلك التي أجهضتها الولايات المتحدة، كما يعدّ سلوكًا استفزازيًّا. وفي اليوم التالي، التاسع والعشرين من أيلول، حدثت مظاهرة عقب الصلاة مباشرة احتجاجًا على وجوده هناك في اليوم السابق، وفتح رجال الشرطة الإسرائيليّون النار على المتظاهرين حيث قتل خمسة من المدنيين(١٨). وكما تفضّلت بالقول، فقد كان شارون هناك في الثامن والعشرين من أيلول برفقة ألف شرطي قدّمهم له باراك.

•

من الواضح تمامًا أنّ باراك كان خلف ما حدث أو أنّه وافق على تلك الخطوة على الأقل، ليس بوصفها استفزازًا. ولا أدري إذا ما كانت تهدف إلى الاستفزاز فقط حتى تجلب في ركابها كل الأهوال التي تلت، والتي لا أظنّ أنّ تفكيره الضيّق الأفق قد استشرفها. لكنّني أعتقد أنّ تلك كانت وسيلة لتأكيد السيادة الإسرائيليّة على موقع إسلامي مقدّس. إنّها خطوة لم تصمّم بهدف الاستفزاز بقدر ما صمّمت لتشكّل خطوة عدائيّة تقول بأنّ شخصيّة عسكريّة إسرائيليّة لها تاريخ طويل من الوحشيّة وجرائم الحرب تستطيع الظهور في واحد من أكثر الأماكن الإسلاميّة قدسيّة، وتفلت مع ذلك من العقوبة. كان الهدف هو التأكيد على أنّ بوسع أيّ إسرائيلي أن يقوم بذلك. وهكذا، فإنّه لا يهمّ من يكون المسلمون وما من اعتبار لأمانيهم ولا مشاعرهم ولا حسّهم بما هو مقدّس، إذ يمكن لأيّ إسرائيلي أن ينتهك كل ذلك ساعة يشاء. تلك كانت الفكرة. وقد أظهرت تلك الحادثة أكثر المظاهر بشاعة في أصحاب الدين التوحيدي كلاً تجاه الآخر. فهناك كان الإسرائيلي، ممثّل الدولة اليهوديّة، يطأ بأقدامه كل أجزاء الأماكن الإسلاميّة والإسلام معًا، ثم يقول على الأثر: «أنا المحتلّ العسكري، وبوسعي أن أفعل بكم ما أريد»، ومع ذلك، لم يجر التحدّث عن أيّ شيء من ذلك في الإعلام الذي استمرّ في وصف خطوة شارون بأنّها استفزازيّة وحسب. إنّ هدف تلك الفعلة لم يكن الاستفزاز، وإنّما هدفت إلى تأكيد التفوّق الإسرائيلي، ومن ثم اليهودي على الإسلام.

إن العقيدة الشفهيّة والتعاليم التي يردّدها أناس من أمثال الحائز على جائزة نوبل إيلي ويسيل Elie Wiesel، والحائز على العديد من جوائز بوليتزر وكاتب العمود في النيويورك تايمز توماس فريدمان Thomas Friedman، وكذلك تشارلي روز Charlie Rose من البي بي سي، والأكاديمي المستشرق برنارد لويس Bernard Lewis هي قريبة الشبه ممّا يلي: «لقد انهارت مفاوضات كامب ديفيد بسبب تصلّب عرفات وعناده وفشله في اغتنام فرصة فريدة، حيث ذهب عرض باراك إلى أبعد بكثير من أيّ شيء جرى عرضه من قبل. لقد كانت هذه التسوية هي الأكثر تقدّمًا والأكثر كرمًا».

ـ ذلك غير صحيح على المستوى الواقعي. فقبل أن يذهب باراك إلى المفاوضات أوضح أنّ لا نيّة لديه للعودة إلى حدود عام ١٩٦٧[١٩]، وهو المبدأ الذي قامت على أساسه عمليّة السلام والذي نصّ على أنّ انسحابًا سيتمّ إلى حدود الخامس من حزيران عام ١٩٦٧.

انسحاب يقوم على قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢.

ـ وكذلك **على** قرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨. ثانيًا: لقد أوضح باراك تمامًا أنّه لن تكون هناك عودة للاجئين الفلسطينيين. ثالثًا: أوضح أنّه لن تتمّ إعادة القدس إلى السيادة الفلسطينيّة على الإطلاق. رابعًا: أوضح أنّه لا نيّة لديه لإزالة المستوطنات[٢٠]. كانت تلك هي المواقف التي قام عليها كل التفاوض اللاحق ولم يفترق عنها، بل إنّه ظل يتمسّك بها ويعزّزها. ومرّة أخرى أقول إنّك لو نظرت إلى الحقائق بدلاً من الافتراضات التي وضعها دكاترة التلفيق في الإعلام الأميركي والإسرائيلي، لوجدت أنّ باراك لم يقم بإعادة أيّ جزء من القدس الشرقيّة، ولم يقدّم أيّ تنازلات، بل إنّه قال بكل بساطة: سنسمح لكم بنوع من السيادة على الأماكن المقدّسة. سوف نحتفظ بالأقسام المسيحيّة والأرمنيّة، ونمنحكم مقدارًا ضئيلاً من السيادة على الأماكن المقدّسة الإسلاميّة، لكن السيادة الحقيقيّة والدائمة على القدس الشرقيّة ستظلّ بأيدي الإسرائيليين، كما أنّ المساحة الأكبر من المدينة ستظلّ تحت سيطرتهم أيضًا، وهذه كلّها أمور كان من المفروض أن يتمّ بحثها في مفاوضات «المرحلة النهائيّة». وقد رفض باراك القبول بأيّة عودة للاجئين أو أن يتحمّل الإسرائيليّون أيّة مسؤوليّة عمّا حدث عام ١٩٤٨. صدر كل ذلك عن قائد شعب لا يزال يبتزّ تعويضات على سبيل العقاب بسبب ما قاساه من المعاناة جرّاء العداء للسامية والحرب العالميّة الثانية، بينما يقول

للفلسطينيين: إنّنا لا نأخذ مطالبكم على محمل الجدّ لأنّها ببساطة لا تعنينا. كما أنّه رفض التوقّف عن بناء المستوطنات رفضًا قاطعًا.

كان على عرفات أن يواجه ذلك كله، فلم يرغب في الذهاب إلى جولة من المفاوضات تمتدّ لأسبوعين لها هذا الطابع الذي لا يشكّل بأيّ حال استئنافًا لعمليّة السلام، وإنّما يصل بها مباشرة إلى مفاوضات «الوضع النهائي». لم يستطع عرفات أن يوافق، ليس بسبب الشروط الفظيعة وحسب، بل لسببين آخرين أيضًا، أحدهما ما جرى من الطلب إليه أن يضع حدًّا نهائيًّا للصراع ويلغي أيّة دعاوى ومطالبات فلسطينيّة ضدّ إسرائيل، وبذلك تنتهي أيّة دعاوى إسلاميّة أو مسيحيّة ضدّها، وهو ما لم يستطع عرفات أن يفعله. وثانيًا: أنّه قد تمّ الطلب إليه أيضًا أن يتخلّى عن المطالبة بحقّ الفلسطينيين بالعودة وتقرير المصير، وهو أمر لم يستطع فعله أيضًا، على الأقلّ بسبب ما قد يحدث له لو أنّه وقّع على ذلك. وهكذا، فبالإضافة إلى كون الصفقة فرصة كان ينبغي لعرفات أن يستثمرها للاستفادة من الكرم الإسرائيلي، فإنّها كانت فعليًّا فرصة له لكي ينتحر ويمنح لإسرائيل الجائزة الأخيرة، حبّة الكرز الأخيرة على قطعة البوظة، وهو الأمر الذي سعوا إليه زيادة على ما سبق أن تنازل عنه عرفات من قبل والذي تمثّل في التنازل عمّا نسبته ٧٨٪ من الأرض. وهي ما سبق وأن استولوا عليه عام ١٩٤٨ إضافة إلى تنازله عن القدس الغربيّة، التي ولدت أنا فيها وكان لعائلتي منزل فيها والتي هي عربيّة بنسبة ٤٠٪. نعم، لقد تنازل عرفات عن كل ذلك، وكانت التنازلات التي قدّمها أكثر كرمًا بما لا يقاس من أيّ شيء قدّمته إسرائيل، بينما لا يزال يُنظر إلى تنازلاته بوصفها تتسم بسوء التقدير. وعليه، فإنّني أعتقد بأنّه أصاب حين تمرّد على هذا النحو.

تردّد صدى مسألة أخرى على ألسنة النقّاد حين نظروا إلى الفلسطينيين كخاسرين برفضهم لعرض باراك. وقد أعاد باراك في خطابه في الكنيست في الثلاثين من تشرين الأوّل تعليق أبا إيبان الذي قال فيه بأنّ الفلسطينيين «لا يضيّعون فرصة لتضييع الفرصة»[٢١].

ـ منذ بداية البداية كان يتمّ إخراج المعلومات الإسرائيليّة على مستويين. فهناك على المستوى الأوّل ما يسمّونه «هاسبارا» hasbara، اللفظة العبريّة المكافئة لكلمة «معلومات» information، وهي على هذا المستوى معلومات دعائيّة موجّهة إلى

«الجوييم» goyim أي الأجانب. وفي هذا النوع من المعلومات يجري تصوير إسرائيل على أنّها دولة ديمقراطيّة، دفاعيّة، ضحيّة، كريمة، متعاطفة ومتسامحة. وهي صورة يمكن وصفها بأنّها قد رسمت على نحو يروق لضمير الوعي الليبرالي الغربي. وهناك من ناحية أخرى ما تقوله إسرائيل لنفسها وما يقوله باراك لشعبه. ومنذ البداية الأولى، وسواء كان الذي يتحدّث هو شيمون بيرس أو إسحق رابين أو يوسي بيلين أو إيهود باراك أو بنيامين نتنياهو، فقد أجمع هؤلاء على القول: «هذه عمليّة سلام لا نخسر فيها شيئًا»، وهو ما أوضحه رابين قبل شهور قليلة من التوقيع على اتفاقيات أوسلو عام ١٩٩٣، حين قال: «أتمنى أن تغرق غزّة في البحر، فهي مثل حجر الطاحون حول أعناقنا. إنّها مكتظّة بالسكّان، مليون شخص يعيشون تحت أكثر الظروف تعاسة، فلم نكون نحن المسؤولين؟ سنحتفظ بأفضل الأراضي ونعطي البقيّة للفلسطينيين»[٢٢].

تلك كانت الأسس التي قامت عليها اتفاقيّات أوسلو: سوف نحظى برضى ما يدعى بمعسكر السلام في حزب العمل. سوف نتخلّى عن أراض لا فائدة ترتجى منها ونتخلّص من مهمّة حكم الفلسطينيين البغيضة والشاقّة وهو ما لا نرغب في ممارسته، فليقوموا هم به. إنّنا لن نتخلّى عن أيّة مستوطنات. وقد داوم يوسي بيلين على قول مثل ذلك طول الوقت، وهو الذي يدعى بالحمامة الأخيرة هنا في أميركا وفي إسرائيل، فكان يقول على الدوام مخاطبًا الليكوديين ومتّهمًا إيّاهم بالافتقار إلى العقلانيّة وهم يعترضون على ترتيبات عمليّة السلام: سوف نقوم بضمّ أفضل الأراضي وسوف نحتفظ بالقدس فلا ينبغي لكم أيّها الناس أن تتذمّروا[٢٣].

إنّك إذا ما تأمّلت هذا التاريخ جيّدًا ومحصته كما هو في حقيقته بعيدًا عن «الهاسبارا» أو البروباغاندا السطحيّة، فإنّك سوف ترى ما يمثّل، في رأيي، لعبة انتحاريّة يلعبها الإسرائيليّون. إنّ القاعدة التي ترتكز عليها سياستهم هي أنّ اللغة الوحيدة التي يفهمها العرب هي لغة العنف. ذلك العنف الذي تعتبر الأفعال التي تمارَس في مواجهته مثل رمي الحجارة والهجمات الإرهابيّة العرضيّة رغم فظاعتها لا شيء إذا ما قورنت بالعقاب الجماعي الذي يتعرّض له ثلاثة ملايين إنسان، والذي ما فتئ يمارَس ضدّهم خلال الأعوام الثلاثة والثلاثين المنصرمة. إنّ إسرائيل هي البلد الوحيد في العالم الذي يُجاز فيه التعذيب قانونيًا، كما تتمّ فيه معاملة ٢٠٪ من

المواطنين الإسرائيليين الذين هم فلسطينيّون وليسوا يهودًا على السويّة نفسها التي كان يعامَل بها السود في جنوب إفريقيا. إنّهم محرومون من الحقوق ومن حقّ التملّك أو استئجار الأرض، كما تجري مصادرة أراضيهم باستمرار. وهذه السياسة المتّسمة بالتمييز العنصري والعنف هي من النوع الأكثر ترويعًا. إنّ رغبة إسرائيل واضحة في أن تصبح دولة مقبولة ومعترفًا بها، لكن سياسة القوّة المفرطة والاحتلال والاضطهاد وصمّ الآذان عن سماع صرخات الفلسطينيين الذين يعانون منذ خمسين سنة، كل ذلك غرس في الفلسطينيين مشاعر الغيظ والاستياء التي ظلّت تتعاظم بمرور الوقت.

ينبغي أن نتذكّر أيضًا أنّ إسرائيل قد وقّعت معاهدات سلام مع بلدين عربيين هما الأردن ومصر، وبعد عشرين سنة من السلام مع مصر ظلّت العلاقات تتّسم بالبرود عمومًا. ويقول الإسرائيليُّون: لقد حاولنا من جانبنا وأرسلنا البعوث، لكن على الإسرائيليين جني عواقب أفعالهم، إذ يجري النظر إلى إسرائيل في كل مكان بوصفها المسؤولة عن استخدام أسلحة الدمار والعنف غير المتكافئ ضدّ المدنيين، إضافة إلى الاستيلاء المستمرّ على الأراضي وبناء المستوطنات والدوس على حقوق الفلسطينيين. كل ذلك حدا بالعالم العربي والعالم الإسلامي اللذين يضمّان ثلاثمائة مليون عربي و ١,٢ بليون مسلم إلى النظر إلى إسرائيل باعتبارها دولة منبوذة ما فتئت تكسب لنفسها مزيدًا من مشاعر العداء والكراهية والغضب التي لا يمكن أن تزول مع استمرار السياسة الراهنة. لهذا السبب وصفتُ هذه السياسة بأنّها انتحاريّة، ذلك لأنّ إسرائيل هي في نهاية الأمر دولة في الشرق الأوسط وليس بالقرب من كانساس ولا هي جزء من نيويورك، وإنّما تبعد عنهما ستّة آلاف ميل. على حدودها الشماليّة توجد لبنان، وتوجد سوريا والأردن على حدودها الشرقيّة كما توجد مصر على حدّها الجنوبي. وبالإضافة إلى ذلك فإنّ الفلسطينيين ينتشرون في كلّ مكان داخل إسرائيل والضفّة الغربيّة وغزّة. ولنقل أنّ بوسع إسرائيل أن تتغلّب على هؤلاء، ولا شكّ أنّها تملك الجيش الأكثر قوّة. إنّ لديها ترسانة نوويّة تضمّ مائتي رأس حربي(٢٤)، ولديها أفضل سلاح جوّي في المنطقة وواحدًا من أفضل واحدة أو اثنتين من القوّات الجوِّيَّة في العالم. إنّها متفوّقة بالتأكيد على الصعيدين العسكري والاقتصادي، كما أنّها تحظى فوق كل شيء بدعم الولايات المتحدة. لكن، كم يمكن لهذا كلّه أن يدوم؟ ثمّة نقطة ستنقلب الأرقام عندها ضدّ إسرائيل، وأعتقد بأنّ عدد الفلسطينيين على أرض فلسطين التاريخيّة سيصبح مساويًا لعدد الإسرائيليين بحلول عام ٢٠١٠،

وسيكون هناك تكافؤ ديمغرافي بين اليهود والعرب. عند هذه النقطة، إلى أيّ حدّ يمكن للإسرائيليين أن يستمرّوا في السيطرة؟ ثم إنّ عدد العرب سيصبح ضعف عدد الإسرائيليين بحلول عام ٢٠٣٠[٢٥]، وعندئذ سيصبح اليهود في فلسطين هم الأقلّيّة.

من المقبول طبعًا فكرة أن يكون للإسرائيليين حقّ تقرير مصيرهم السياسي، لكن ذلك لن يتمّ ضمانه بالوسائل العسكريّة، إذ إنّ ذلك لا يمثّل سياسة بعيدة النظر على المدى الطويل. وإذن، فإنّ الخيار الوحيد أمامهم هو السلام، وهو سلام ينبغي أن يكون بين أنداد بدلاً من سلام يفرض فيه الفريق الأقوى شروطه على الأضعف.

قلت إنّ الفلسطينيين الذين يعيشون في إسرائيل يشكّلون ما نسبته ٢٠٪ من السكّان.

ـ نعم. فعددهم يبلغ مليون نسمة.

في نهوض الفلسطينيين عام ١٩٧٨ كان هؤلاء أقرب إلى الهدوء، لكن ذلك تغيّر في انتفاضة ٢٠٠٠ على نحو دراماتيكي. لماذا؟

ـ أحد الأسباب هو معاملة الحكومة الإسرائيليّة للفلسطينيين والتي اتّسمت بالقسوة؛ فقد ظلّوا خاضعين لأحكام المرسوم العسكري حتى عام ١٩٦٦، وبهذا فقد ظلّوا طوال ثمانية عشر عامًا منذ إنشاء الدولة عام ١٩٤٨ أناسًا مشرّدين ومنبوذين في وطنهم. وكانت تمارس ضدّهم سياسة التمييز العنصري بكلّ الطرق المتاحة، فلم يكن يسمح لهم بالتنقّل ولم يتح لهم التعليم اللائق أو مزاولة أعمال معيّنة. وفي عام ١٩٦٦ ذهبت الحكومة العسكريّة وتمّ منحهم نوعًا من الظروف المحسّنة، فأصبح لهم تمثيل في الكنيست ومنحوا حقّ التصويت في الانتخابات، لكنّه لم يسمح لهم بامتلاك أراض إضافيّة. وخلال الفترة التي أعقبت عام ١٩٦٧ ظلّوا يشاهدون أراضيهم بينما يتمّ ابتلاعها. وتعاني الكثير من القرى ما عانته أمّ الفحم، والتي ربما كانت أكبر بلدة عربيّة في إسرائيل، حين قامت الحكومة الإسرائيليّة بمصادرة عشرة آلاف دونم من أراضيها، أي ما يعادل ٢,٥٠٠ هكتار بذريعة استخدامها لأغراض عسكريّة[٢٦]، إذ كانت بصدد تحويلها إلى ميدان للرماية. وكما سبق أن ذكرت، فإنّ الميزانيّة المخصّصة للبلدات العربيّة قليلة جدًّا عليها كما أنّها تحظى بخدمة أدنى وتفتقر إلى الخدمات الأساسيّة مثل الماء والكهرباء.

على هذا النحو، تولّد لدى فلسطينيي الداخل إحساس عميق بأنّهم يتعرّضون للتمييز العنصري لا لسبب سوى لكونهم ليسوا يهودًا. إنّه ضرب من الممارسة العنصريّة التي أثّرت على المجتمع بأسره، فكان أخيرًا أن انتفضوا ضدّها. لقد شاهدوا ما كان الجيش الإسرائيلي يفعله في الضفّة الغربيّة وغزّة فتطابقوا مع الفلسطينيين هناك، وهو الأمر الثاني الذي ينطوي على قدر كبير من الأهمِّيّة. لقد كان ما جهد الإسرائيليُّون في تحقيقه يتمثّل في تقويض الإحساس بالوحدة لدى هؤلاء الناس الذين انقسموا بفعل الجغرافيا. ففلسطينيو إسرائيل هم مواطنون إسرائيليُّون بينما تعوّد فلسطينيّو الضفّة على كونهم أردنيين. أمّا في غزّة فهم أناس لا دولة لهم كانوا يخضعون للحكم المصري وأصبحوا يعيشون الآن في دولة غير محدّدة المصير، والفلسطينيُّون في لبنان هم أيضًا بلا دولة. ولعلّ واحدًا من أهمّ الإنجازات التاريخيّة لمنظمة التحرير الفلسطينيّة هو أنّها جعلت الشعب الفلسطيني يشعر بأنّه شعب واحد. وأعتقد أنّ سياسة الولايات المتحدة وإسرائيل خلال السنوات العشرين الماضية قد دأبت على محاولة نسف أركان ومقوّمات الهويّة الفلسطينيّة وتمزيقها، بحيث لا يشعر الناس بأنّهم جزء من الكينونة نفسها التي عانت بمجموعها بوصفها شعبًا خاضعًا للإسرائيليين الذين تقف خلفهم الولايات المتحدة بطبيعة الحال.

لقد تبيّن أنّ كل هذه الحسابات كانت خاطئة؛ إذ تولّد على الفور شعور بالتماثل والتطابق، بحيث أنّ الفلسطينيين الذين خضعوا للاحتلال العسكري في الضفّة الغربيّة وغزّة قد مثّلوا وعلى نحو دراماتيكي جماعة الفلسطينيين الذين أصبحوا مواطنين إسرائيليين، وحرموا مع ذلك ممّا حرم منه أقرانهم وجرى اضطهادهم وكفّ أيديهم وحرمانهم من الامتيازات على نطاق واسع. وقد نهض هؤلاء الأخيرون أيضًا في مظاهرات ضدّ الإسرائيليين، لكن ما حصلوا عليه كان استجابة عسكريّة بدلاً من استثارة ردّة فعل سياسيّة، وهو ما نجم عنه قتل ثلاثة عشر مواطنًا عربيًّا من إسرائيل على أيدي شرطة إسرائيل[٢٧].

إنّ ذلك يكشف عن استمرار السياسة الإسرائيليّة تجاه الشعب الفلسطيني والتي تقوم على ضرورة عدم معاملة الفلسطينيين كشعب. ويكمن خلف هذه السياسة خوف مرضي من التنقيب في الماضي، لأنّك إذا ما سمحت بالنظر إلى الماضي بصراحة وانفتاح، فإنّك سترى أنّ خطيئة إسرائيل الكبرى كانت إقدامها على تدمير فلسطين عام ١٩٤٨.

وبدلاً من محاولة الهروب من تلك الخطيئة فإنّ الخطيئة نفسها ظلّت تعاود الظهور بمظهر جديد مرّة تلو المرّة. وقد توسع هدفها ليشمل ليس الضفّة الغربيّة وغزّة فقط، وليس فلسطينيي الشتات الذين أنشأوا منظمة التحرير الفلسطينيّة بينما لم يكونوا يقطنون في الضفّة الغربيّة وغزّة وإنّما في الكويت ولبنان، وليس المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل، وإنّما كل هؤلاء الذين كانوا ينشطون معًا وعلى الدوام. ولقد أعاد هؤلاء التأكيد على وجود طموح وطني فلسطيني مقموع وكامن إلى تحقيق تقرير المصير وضرورة الحصول على تعويضات من إسرائيل التي كانت السبب وراء معاناتهم.

تلك مشكلة أساسيّة، وهي التي لا تستطيع القيادة الإسرائيليّة ولا الأميركيّة التعامل معها للأسف، إذ يجري النظر إليها بوصفها لعبة «استغماية»: أدرهم قليلاً، أعطهم مقدارًا ضئيلاً من شيء ما، أسمح لهم بركوب سيّارات مثل التي نركبها، وربما ندعهم يركبون الحافلات نفسها معنا وأشياء أخرى من هذا القبيل. لكن ذلك لا ينطوي على أيّ تحسّن جوهري أو تفهّم للمطالب الوطنيّة الفلسطينيّة. وقد أثبتت كلّ تلك الأساليب التي انتهجتها إسرائيل عدم جدواها، إذ أصبحت المطالبة بالحقوق أقوى، وأصبحت الحاجة أيضًا أكثر إلحاحًا في الوقت الذي يتعالى صوت إنكار الحقوق في إسرائيل ويغدو أكثر صخبًا وحدّة وبعدًا عن ملامسة الواقع. إنّ الشيء الأساسي الذي أصبح على أيّ إسرائيلي أن يتعامل معه هو مواجهة المشكلة التي تتفاقم داخل حدود بلاده، أن يواجه مشكلة هذه المجموعة من المواطنين الذين يعاملون على أنّهم من الدرجة الثانية بسبب من انتمائهم الديني.

إنّ إسرائيل دولة فريدة على أكثر من صعيد. فهي دولة بلا دستور، بل إنّ لها حكومة تقوم على مجموعة من القوانين البدائيّة. وهي تصنع فوارق راديكاليّة بين اليهود وغير اليهود استجابة للأرقام الإحصائيّة المجرّدة. وكل شيء هناك يحكمه السؤال حول من هو اليهودي ومن هو ليس كذلك، وهو أمر غير عملي. إنّها دولة تديرها في المقام الأوّل سلطة دينيّة بحيث أصبح الكثير من مواطني إسرائيل يشعرون بقلق جدّي حيال مصير اليهود العلمانيين الذين لن يقبلوا بأن يحكمهم الأحبار المتزمّتون والمحافظون. لكنّهم بدلاً من أن يواجهوا هذا الواقع بطريقة صريحة فإنّهم يرتكسون إلى ردّة الفعل اليهوديّة التقليديّة، فإمّا أن ينكروا وجود هؤلاء وهؤلاء أو يعودوا إلى التأكيد على شيء مختلف يكاد لا يقيم أيّة صلة بالواقع.

إنّ الفلسطينيين، المثقّفين منهم على وجه الخصوص، وكذلك بقيّة الفلسطينيين والعرب يضطلعون بمسؤوليّة كبيرة إزاء تعريف الإسرائيليين بذلك الواقع كما هو في حقيقته وأن يقولوا: «نحن هنا، فهل أنتم هنا؟ ليس بوسعكم الإنكار ولا يمكنكم طيّ الحقيقة في صدوركم إلى الأبد. إنّ عليكم البحث عن الحقيقة في ماضيكم لأنّ تلك الحقيقة تخصّنا»، وربّما يحدث شيء من هذا القبيل من خلال لجنة لتقصّي الحقيقة والمصالحة على غرار ما حدث في جنوب إفريقيا.

إنّ ما يبعث على الصدمة في هذه الأزمة هو أنّ هذين المجتمعين قد ظلاّ طوال خمسين سنة يعملان على هدي مبادئ متعارضة كلّيًا. فالإسرائيليون يقولون: «نحن لنا حقّ بهذه الأرض، ولم يكن أحد يقيم هنا»، وظلّوا يكرّرون هذه اللازمة طوال الوقت بطريقة أو بأخرى، ثمّ: «دعونا ممّا حدث في عام ١٩٤٨ ولنتعامل مع عام ١٩٦٧». إنّ ردّات الفعل تلك لم تعد مقبولة في القرن الحادي والعشرين، وينبغي أن يدفع الواقع بالجميع إلى القول بأنّ هذا، بكل بساطة، سلوك غير مقبول. إنّك لا تستطيع أن تمحو سجلّك هكذا وتعيد تفصيله على مقاسك ومقاس سياساتك، وإنّما ينبغي عليك مقابلة الطرف الآخر والعمل على تحمّل مسؤوليّاتك إزاء ما قارفت كما فعل الجميع. لقد تحمّل اليابانيّون المسؤوليّة عمّا فعلوه بالكوريين وتحمّل الألمان المسؤوليّة عمّا فعلوه باليهود، وكذلك تحمّل البولنديُّون المسؤوليّة عمّا فعلوه بهم. والإسرائيليّون لا يختلفون عن هذه الشعوب، فقد فرض ما اقترفوه واقعًا من العناء على شعب آخر ومعاناة لا تزال مستمرّة حتى هذه الساعة بينما يداومون على إنكار وجوده: «لا، لم يكونوا هنا، لقد كانت هذه أرضًا خالية، الله أعطاها لنا، إنّهم مجرّد عرب، إنّهم لا وزن لهم»، ولا يزال هذا الخطاب يتردّد إلى اليوم ويتضمّن أيضًا أشياء من قبيل: «إنّ هؤلاء أناس من الدرجة الثانية، برابرة، ونحن أكثر تطوّرًا بما لا يقاس». هذه في رأيي هي المشكلة الماثلة اليوم والتي لا يمكن حلّها بعمليّة السلام السخيفة التي تمليها أهواء الولايات المتحدة والقيادة الإسرائيليّة.

بعد وعد بلفور، وعندما سئل حاييم وايزمن عن السكّان المحليين في فلسطين قال: «هناك بالطبع بضعة مائة ألف من الزنوج Negroes، لكنّ ذلك أمر لا أهمّيّة له»[٢٨].

ـ لا أعرف عن ذلك، لكنّه يعبّر عن التوجّه الذي ساد حيال العرب بوصف وجودهم «أمرًا لا أهمّيّة له»، وإذا ما دعت الحاجة، فإنّه ينبغي تحويلهم (كما قال

ثيودور هيرتزل) إلى أشباح[٢٩]. إنّ عليك أن تنظر إلى النقاش الدائر داخل الحركة الصهيونيّة والذي يثار علنًا وستجد أن ليس ثمّة ما هو ملغز أو سرّي أو خفي إزاء هذا الأمر، وهو موجود فيُ الملفّات الصهيونيّة منذ مطلع الأربعينيّات كما أوضح الدارسون الفلسطينيّون والإسرائيليّون على السواء. من الواضح أنّ الحضور الفيزيائي المحسوس للفلسطينيين كان دائمًا مشكلة اليهود الرئيسيّة. وسواء كان التوجّه هو محاولة التخلّص منهم أو التظاهر بأنّهم لم يكونوا هناك أو أنّهم ليسوا السكّان الأصليين في الحقيقة أو أيّ أمر آخر، فإنّه برمته يمثّل ما يمكن أن أسمّيه مغالطة معرفيّة مجانيّة وغير مسوغة تتجلّى في التظاهر بأنّ الفلسطينيين ليسوا سوى مجموعة صغيرة تافهة وجديرة بالإهمال، ولا تزال تلك المشكلة تتصاعد ولم تتناقص.

نظّم المستوطنون المتعصّبون واليهود الإسرائيليّون المتزمّتون مظاهرات واعتصامات وقذفوا السيّارات والحافلات بالحجارة، فهل حدث أن قامت القوّات الإسرائيليّة بفتح النار عليهم؟

ـ كلا، أبدًا. دعني أريك مثالاً في منتهى الدراماتيكيّة. إنّ مدينة الخليل هي مدينة عربيّة أساسًا، ولم يكن فيها أيّ يهود قبل عام ١٩٦٧، لكنّهم استطاعوا أن ينشئوا مستعمرة بالقوّة يقطنها من ثلاثمائة إلى أربعمائة يهودي داخل مدينة تضمّ حوالى مائة وعشرين إلى مائة وثلاثين ألفًا من السكّان العرب. هؤلاء المستوطنون اليهود الذين يشكّلون ما لا تزيد نسبته عن ٠,٣٪ من عدد السكّان يسيطرون الآن على ٢٠٪ من مساحة المدينة بفضل عمليّة السلام[٣٠]، ويقع الجزء الذي يحتلّونه بالضبط في منتصف المنطقة العربيّة وليس في الضواحي. وهكذا، فإنّهم يتجوّلون في المدينة محاطين بأفراد الجيش الذين يحمونهم ويزوِّدونهم بالأسلحة. ويتواجد هؤلاء المستوطنون هناك في كل يوم، بل في كل ساعة ليعبّروا عن حقّهم كيهود في امتلاك مدينة عربيّة ضاربين عرض الحائط برغبات الغالبيّة الكاسحة من السكّان الذين هم من العرب. هذه المجموعة بالذات هي التي أنجبت باروخ غولدشتاين الذي قتل تسعة وعشرين من المصلّين في الحرم الإبراهيمي الخاضع بدوره للسيطرة الإسرائيليّة[٣١]. وقد تملّكتني الدهشة وأنا أزور المنطقة عام ١٩٩٢. فلكي تعبر إلى المسجد يتوجّب عليك أن تمرّ عبر الحواجز الإسرائيليّة والمجسّات المعدنيّة ومجموعة من الجنود الذين يجلسون بباب المسجد وهم يرفعون أرجلهم على الطاولات، وهذه أمور تبعث

كلّها على الاستفزاز في مناخ إسلامي، وغالبًا ما تتجه أحذية الجنود العسكريّة نحو وجوه المصلّين الذين يحاولون العبور. عبر هذا الحاجز نفسه دخل باروخ غولدشتاين في شباط عام ١٩٩٤ وفتح النار على المصلّين.

ذلك هو الوضع الحالي في الضفّة الغربيّة وغزّة مضروبًا بمئات المرّات حيث يقوم المستوطنون باستثارة مشاعر لجان الأمن الأهليّة. المستوطنات مبنيّة قرب المدن العربيّة وتمتلك الأسلحة ويحميها الجنود، وكان غولدشتاين عضوًا في مجموعة احتياط عسكريّة إسرائيليّة، والمستوطنون يخرجون ويلحقون الأذى بالقرى الفلسطينيّة ويرهبون سكّانها ويكسرون نوافذهم ويحرقون سياراتهم ويقتلعون مزروعاتهم. إنّ المستوطنين يمثّلون استفزازًا عظيمًا. والمشكلة هي أنّ أعدادهم في ازدياد تحت حكم باراك الذي جاء إلى السلطة في تموز عام ١٩٩٩. وقد زاد عدد المستوطنات في عهده أكثر ممّا كان في عهد نتنياهو، وهو بالتأكيد أكبر ممّا كان عليه في عهد كلٍّ من رابين وبيريز. وهكذا، فإنّ مشكلة الاستيطان تمثّل مشكلة حقيقيّة لأنّها تعني انتزاع الأرض وإضافة سكّان إسرائيليين غرباء وطفيليين وغير شرعيين في مناطق فلسطينيّة في الأساس، وهذا واحد من العيوب التي تنطوي عليها عمليّة السلام، حيث بينما تبدو وكأنّها تمضي قدمًا يقوم الإسرائيليّون بجعل قيام دولة فلسطينيّة قابلة للحياة والاستمرار أمرًا أكثر صعوبة. إنّ الإسرائيليين يتواجدون في كلّ المناطق الفلسطينيّة، وهم يسيطرون على وادي الأردن. وهكذا فإنّه لن تكون هناك حدود مشتركة بين الدولة الفلسطينيّة وأيّ دولة عربيّة أخرى، وإنّما ستخضع كل الحدود للسيطرة الإسرائيليّة من خلال حزام المستوطنات والقواعد العسكريّة المتقدّمة.

كنت قد كتبت سلسلة من ثلاث مقالات في الأهرام الأسبوعيّة تحت عنوان «الصهيونيّة الأميركيّة»[٣٢]. وفي المقالة الافتتاحيّة ناقشت مقابلة كانت لك مع آفي شافيت Avi Shavit من صحيفة هآرتز، وهي صحيفة إسرائيليّة رئيسيّة، وقد خلصت من ذلك اللقاء إلى استنتاجات معيّنة.

ـ كنت أحاول إيضاح التغيّر الماثل في كون الإسرائيليين قد باتوا يقولون بأنّ الفلسطينيين كانوا هناك، لكنّهم شعب أقلّ مرتبة. فالجناح اليميني يقول: نحن غزوناهم وينبغي أن يصبحوا خدمًا لنا. والجناح اليساري يقول: يمكننا إعادة تشذيبهم بحيث يصبحون خلوًا من العدائيّة على نحو ما. ولأنّ الإسرائيليين اليوم يعيشون هناك

ويرون الفلسطينيين في كل مكان وفي كل دقائق اليوم وهم يقومون على خدمتهم كجرسونات في مطاعم تل أبيب أو كسائقين خصوصيين لهم أو كسوّاقي سيّارات أجرة، إضافة إلى كل أولئك الذين يعملون في المناطق المحتلّة وفي القدس، فقد بات الإسرائيليّون يدركون أنّهم هناك بوصفهم وجودًا حسّيًا فيزيائيًّا مجسّدًا. وهكذا، فإنّ هذا هو الوعي الجديد الذي بدأ يسم الصهيونيّة الإسرائيليّة. أمّا الصهيونيّة الأميركيّة، فإنّها بالمقابل لا تنظر إلى الفلسطينيين باعتبارهم وجودًا واقعيًّا حقيقيًّا على الإطلاق. إنّ هناك نوعًا من العنصر الخيالي الذي يظهر فيه الفلسطينيّون وكأنّهم مجرّد رواية أيديولوجيّة عبثيّة جرى اختلاقها لمجرّد المضايقة والإزعاج، وهي رواية تجسّد فكرة العداء للسامية. هذا ما يداوم على ترديده برنارد لويس Bernard Lewis طوال الوقت واصفًا هذه «الرواية» بأنّها معاداة عربيّة للساميّة. وهو يذهب مع الذاهبين إلى سلخ الفلسطينيين عن تاريخهم وعن حقيقة تعرّضهم للاقتلاع وتقويض مجتمعهم عام ١٩٤٨ والذين لا يزالون يرزحون تحت الاحتلال العسكري منذ عام ١٩٦٧. إنّ الصهيونيّة الأميركيّة أكثر خطورة من الصهيونيّة الإسرائيليّة، لأنّها قائمة على تخيّل أنّ الفلسطينيين ليسوا موجودين على الإطلاق وعلى أنّه يمكن معاملتهم بوصفهم ميكروبات، وفي أحسن الأحوال بوصفهم مجرّد رواية أيديولوجيّة.

لقد أعطي لمقابلتك المذكورة موضع بارز.

ـ ظهرت المقالة على الصفحة الأولى من صحيفة هآرتز في ملحق يوم الجمعة[٣٣]. ومن الواضح أنّ وجهات نظر شافيت ووجهات نظري تختلف تمام الاختلاف، لكنّه يبدو على الأقلّ راغبًا في الاستماع إليّ. ربما لم تكن هذه المقابلة لتظهر أبدًا في صحيفة أميركيّة ولم يكونوا ليجرأوا أبدًا على السماح بنشرها، ببساطة، لأنّ الخوض في أيّ موضوع فلسطيني هو أمر ممنوع فعليًّا في الولايات المتحدة، ويمكن له أن يظهر فقط كمسألة فرعيّة من فرعيّة من فرعيّة، وهو المبدأ الذي تعمل العديد من المنظّمات اليهوديّة على تكريسه.

قمت قبل سنة بإنتاج فيلم وثائقي لمحطّة بي بي سي باسم «البحث عن فلسطين» In Search of Palestine[٣٤]، وبعد عرضه على المحطّة الثانية ثم على محطة بي بي سي العالميّة اختفى ذلك الفيلم بطريقة ما، وقد فشلت المحطّة تمامًا في عرض الفيلم على شاشة التلفزيون الأميركي، لماذا حدث ذلك؟

ـ هناك تاريخ من الأفلام التي تحمل وجهة النظر الفلسطينيّة في هذا البلد، وهناك ردّة فعل منظّمة تقوم بها المنظّمات الصهيونيّة لمحاولة إيقافها وإغلاق السبل أمامها وإفشالها. إنّهم يعملون على التأكّد من أنّ من يروّجون لهذه البرامج على التلفاز سوف يدفعون الثمن الباهظ والمتمثّل في إيقاف الدعم المالي وسحبه منهم. وإذا ما أراد أحدهم عرض فيلم فلسطيني فإنّه ينبغي أن يعرض خمسة أفلام إسرائيليّة في المقابل. ما حدث لفيلمي كان شيئًا من هذا القبيل؛ لم يقبل بعرضه أحد ولم تستطع محطّة البي بي سي أن توزّعه في هذا البلد. وقد استطعت أخيرًا ومن خلال علاقات شخصيّة أن أقنع القناة الثالثة عشرة من محطة البي بي أس في نيويورك بأن تعرضه لمرّة واحدة، وربما يكون قد عرض على تلفزيون عمومي في سان فرانسيسكو لمرّة واحدة أيضًا، وبعدها اختفى الفيلم. الفكرة هي أنّ تقديم الفلسطينيين بوصفهم بشرًا ذوي تاريخ وقضيّة هو أمر ممنوع.

خلال الأسابيع الستة الأخيرة من انتفاضة الأقصى على سبيل المثال، والتي بدأت في أواخر أيلول، سمحت صحيفة النيويورك تايمز بنشر ثلاث مقالات فقط تؤيّد وجهة النظر الفلسطينيّة على صفحاتها المفتوحة، واحدة لكاتب إسرائيلي ناقش المسألة الفلسطينيّة وواحدة لكاتب أردني، وثالثة للكاتب أليجرا باتشيكو Allegra Pacheco ـ وهو محام إسرائيلي كان يقيم في الولايات المتحدة في ذلك الوقت ـ وهي مقالة قويّة جدًّا[٣٥]. أمّا كل البقيّة فكانت تؤيّد وجهة النظر الإسرائيليّة، والشيء ذاته ينطبق على الواشنطن بوست. ولم تظهر في أيّ من الصحف الرئيسيّة أو في أيّ من التقارير التي تنشرها الصحف هنا أيّة خرائط. وهكذا، فإنّك لا تستطيع أن تقدّم في الحقيقة وصفًا دقيقًا لما فقده الفلسطينيّون وأين يتمّ الآن احتجازهم في بانتونات صغيرة جدًّا في الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة.

الحصيلة الإجماليّة هي أنّ صورة فلسطين والفلسطينيين التي ترتسم في العقل الشعبي هنا هي صورة مختزلة إلى حدّ كبير وبلا ملامح. ولحسن الحظّ، فإنّ هناك مصادر بديلة مثل برنامجك. كما تقدّم شبكة الإنترنت مقتطفات من الصحافة الإسرائيليّة والعربيّة والبريطانيّة يكتبها صحافيّون مستقلّون يشكّلون بديلاً والذين يكتبون من مختلف أنحاء العالم. لكنّ الصورة السائدة هي أنّ إسرائيل بلد محاصر وضحيّة، لا يقبل العرب بوجودها لأنّهم معادون للسامية.

ينبغي القول أيضًا بأنّ العالم العربي يمرّ بحالة متردّية جدًّا. كل الحكّام هناك استبداديّون دون استثناء ومعادون للديمقراطيّة. ليس ثمّة ديمقراطيّة هناك، ويدفع العرب أبهظ الأثمان بسبب ذلك. إنّه شيء لا تدفع ثمنه الولايات المتحدة، وإنّما يدفع ثمنه العرب الذين يعانون من تردّي الأوضاع العامّة والصحِّيَّة والتعليميّة والمعدّلات العامّة للدخل والبنية التحتيّة والنقل والبيئة، والتي هبطت مستوياتها بشكل ثابت في السنوات القليلة الماضية. ولم تكن الأوضاع في أيّ وقت مضى أكثر تدهورًا من السنوات التي أعقبت انطلاق عمليّة السلام في مطلع التسعينيّات، وأعتقد أنّ هذا يفسّر كون فلسطين قد أصبحت تمثّل نوعًا من أداة قياس الرأي العام العربي في كل مكان. إنّها تمثّل بغي الحاكم تجاه المحكوم سواء تمثّل ذلك في حكم إسرائيل للفلسطينيين أو في حكم الفلسطينيين للفلسطينيين. وقد جرى استخدام السلطة الفلسطينيّة وتوجيهها ضدّ المواطنين الفلسطينيين في المناطق التي تحتلّها إسرائيل على النحو نفسه الذي يجري استخدام الأنظمة ضدّ مواطنيها الثائرين ضدّ الظلم والاضطهاد والأنظمة التي تفتقر إلى الشرعيّة في المغرب ومصر، وهي أنظمة تدعمها جميعًا الولايات المتحدة. وهكذا، فإنّنا نمرّ، فيما أعتقد، بنقطة انعطاف مركزيّة في تاريخ الشرق الأوسط.

ما الذي يمكن فعله لتغيير ما تسمّيه «النوعيّة غير الصحِّيَّة من الخطاب الجماهيري في العالم الغربي»؟

ـ على المرء أن يبدأ أوّلاً بتعبئة مجتمع المؤيّدين في هذا البلد والذين يدعم الكثير منهم القضيّة الفلسطينيّة والسعي الأصيل والمخلص تجاه السلام وإجراء المصالحة بين الفلسطينيين وبقيّة العرب وبين الإسرائيليين. وهكذا، فإنّ علينا أن نحشد الرأي العام هنا. ينبغي أن نمارس المزيد من الضغط لأنّ استطلاعات الرأي التي اطّلعت عليها منذ أوائل السبعينيّات كشفت كلّها عن كون الوعي الشعبي الأميركي يتقدّم بأشواط على السياسة الأميركيّة الرسميّة. إنّ دور لجان الفعل السياسي واللوبي الإسرائيلي قد ظلّت على الدوام تعمل بشكل جامح على تكريس مواقف مختزلة متأخّرة كثيرًا عن مواقف معظم الأميركيين، والذين إذا ما نالوا ربع فرصة فإنّهم سيرون ما هو العادل وغير العادل إزاء هذا الموضوع. ولعلّ متابعة الإعلام ومثابرته على كشف عدم التوازن القائم هو أمر في غاية الأهمِّيّة. ينبغي أن تمطر

الـ إن إن آر وشبكات التلفزة والصحف مثل النيويورك تايمز بوابل من الرسائل والحملات المنظّمة وبشكل دائم حتى تغيّر من نوع تغطياتها لهذه المسألة.

ثانيًا: إنّ أهمّ شيء هو نزع الشرعيّة عن الاحتلال العسكري الإسرائيلي الذي لا يزال قائمًا، كما قلت، منذ ثلاث وثلاثين سنة، وعلى السويّة نفسها التي سبق تفعليها لمناوأة سياسة التمييز العنصري، والتي جعلت من المستحيل على تلك السياسة أن تظلّ قائمة بشكل فاعل. إنّ إسرائيل هي أكبر متلقٍّ للمساعدات الخارجيّة في تاريخ هذا البلد، وهناك تبادل منتظم بين الأكاديميين الأميركيين والجامعات الإسرائيليّة. وقد قمت شخصيًّا بحثّ الناس الذين يذهبون إلى إسرائيل بدعوة من جامعة أو أخرى إلى المبادرة بالذهاب إلى الجامعات الفلسطينيّة. إنّ علينا القيام بهذا العمل بأنفسنا بحيث نشمل أكبر عدد ممكن من مجتمع الأكاديميين والكتّاب والفنّانين والمثقّفين ونشطاء السلام والمعادين للإمبرياليّة، وكذلك ينبغي أن ندعم الأنشطة المناهضة للتمييز العنصري، والتي يوجد الكثير منها في هذا البلد نحو: حركة الحقوق المدنيّة وحركة الأميركيين الأفارقة وحركة مناهضة الحرب والحركة النسائيّة، ويجب أن نحثّها على الانخراط في المسألة بحيث ترى نفسها وقد أصبحت جزءًا من نضال جماعي مشترك.

تقوم الولايات المتحدة ببيع أسلحة للشرق الأوسط بعشرات البلايين من الدولارات، سواء كان ذلك لدول الخليج أو إلى إسرائيل[٣٦]. ويمثّل هؤلاء أكبر مشترِي الأسلحة في العالم. إنّ ما يجب أن نفعله هو أن نزيح الستار بحيث لا تتمّ إعاقة الحوار حول الشرق الأوسط بسبب الخوف من إثارة غضب اللوبي الصهيوني، كما أنّ مجلة نيوريبابليك أو كومينتري يجب أن لا تتوقّفا لمجرّد ملاحقتهما شخصًا ما. يجب أن لا يظلّ المرء مرتعبًا من نمر من ورق. إنّهم لا يملكون أكثر من دعم هشّ، ولديهم من الصوت العالي أكثر ممّا لديهم من الحقّ.

إنّه تحدٍّ يمكن الاضطلاع به إذا ما تمّت تعبئة جيل الشباب بتزويدهم بوعي نقدي لما يحدث، وليس ثمّة عذر لعدم المعرفة..

هناك الكثير من التركيز الإعلامي على الجماعات الدينيّة الفلسطينيّة مثل منظّمتي حماس والجهاد الإسلامي. ما الذي يجري هناك في المجتمع المدني؟

ـ ثمّة هوّة تتسع بين الأغنياء والفقراء في الشرق الأوسط. وقد أدّت العولمة حين حوّلت الاقتصادات إلى أسواق استهلاكيّة كبيرة لمنتجات الرأسماليّة إلى جعل الأمور أكثر سوءًا. هناك قطاعات صغيرة معزولة مرتبطة بأنظمة الحكم لا تكفّ عن زيادة نفسها ثراء بينما يعيش الغالبيّة العظمى من الناس في فقر وتحت تهديد الطرد وعدم القدرة على إيجاد عمل أو إطعام أبنائهم وإرسالهم إلى المدارس. أظنّ من الخطأ النظر إلى المنظّمات الإسلاميّة بكل بساطة بوصفها جماعات إرهابيّة، فقد قدّمت هذه المنظّمات بديلاً مدنيًّا عن الحكومات التي هي فاسدة كلّها دون استثناء. وهي تقوم بتوجيه ميزانياتها في إنجاز خطط طموحة هائلة. والميزانيّة الفلسطينيّة على سبيل المثال ليس فيها ما هو مخصّص للبنية التحتيّة، بينما يتوجّه جلّها للإنفاق على البيروقراطيّة. هذا هو نوع التشوّه الذي تجده هناك.

الناس هناك يذهبون إلى المساجد والمدارس الدينيّة بسبب العون الذي يحصلون عليه هناك ولا يحصلون عليه من أيّ مكان آخر. وعلى الصعيد العسكري، لم يحقّق مقاتلو حماس والجهاد الإسلامي نجاحات حقيقيّة، وقد أوضحوا أنّه ليست لديهم رسالة أبعد من نوع العون الذي أشرت إليه.

بكلمات أخرى، لم تصل الرسالة إلى الناس عبر السنوات العشرين الماضية منذ ظهور حماس، وهو ما ينطبق أيضًا على حالة الإخوان المسلمين في مصر وجبهة الخلاص الإسلامي في الجزائر. ويمكن أن يعزى ذلك لحقيقة كونهم لا يمتلكون تصوّرات واضحة عن المستقبل. إنّهم لا يستطيعون أن يقولوا بكل بساطة إنّ الإسلام هو الحل الوحيد، إذ عليك أن تتعامل مع مسائل عمليّة مثل مشاكل الكهرباء والماء والبيئة والنقل، وهي أمور لا يمكن وسمها بأنّها إسلاميّة. وهكذا فقد فشل هؤلاء على هذا المستوى. أعتقد بأنّ ثمّة تشكيلاً معقّدًا تسيطر فيه العلمانيّة، بينما يظلّ الإسلام هو الحصن الثقافي الأخير للدفاع ضدّ الانتهاكات والاعتداءات التي تمارس ضدّ العرب المسلمين على أيدي إسرائيل والولايات المتحدة والأنظمة. وهكذا، يمكنني القول إنّ هذا الطرح يصبح رمزًا للمقاومة أكثر من كونه شيئًا يمكن ترجمته إلى رسالة سياسيّة أو رؤيا سياسيّة للمستقبل. إنّه ليس واحدًا من هاتين، إنّما تتأتّى مثل تلك الرسالة أو الرؤيا من المواطنين الذين يفكّرون في إطار للتعايش والتعاون من خلال، لنقل في العالم العربي، سوق عربيّة مشتركة، بصندوق مشترك للموارد

العربيّة، بسياسة مشتركة إزاء الهجرة أو التكامل من النوع الذي، للأسف، لم تكن عليه الأمور قبل جيلين على الأقلّ.

في ضوء انتفاضة ٢٠٠٠، ماذا يعني ذلك لاقتراحك في السنة الماضية قيام دولة ثنائيّة حيث يمكن للفلسطينيين والإسرائيليين أن يعيشوا في بلد واحد[٣٧]؟

ـ الشيء الأهمّ الآن هو إنهاء الاحتلال العسكري، وتؤكّد الحقائق على الأرض ما أذهب إليه، فالفلسطينيّون والإسرائيليّون جد منضفرين والمنطقة جد صغيرة، بحيث لا يمكن قيام وضع يمكن فيه لجماعة أن تفرض نفسها عسكريًا على الأخرى. وأنا شخصيًا ضدّ سياسة الإخلاء وطرد الناس، وهو ما حدث لنا. لكنّني أعتقد جازمًا مع ذلك بضرورة تفكيك المستوطنات وأن يتعامل الشعبان معًا ليس كجيران وحسب، وإنّما بروح من التعايش ووحدة المصير في دولة واحدة متجانسة من حيث الأساس هي ما نسمّيه «فلسطين التاريخيّة»، ولا يهمّ إذا ما سمّيناها إسرائيل أو فلسطين. إنّ اقتصاديات الشعبين وتاريخيهما مرتبطان إلى حدّ يدفعني إلى الاعتقاد بأنّ قيام دولة ثنائيّة القوميّة هو الحلّ الوحيد الممكن على المدى البعيد وفي نهاية المطاف.

إنّني أفترض أنّه في غضون ذلك، وكنوع من مرحلة انتقاليّة، يجب أن تقوم دولتان حرّتان لا تعاني أيّ منهما من الاحتلال العسكري، ثم، وانطلاقًا من تلك الحرّيّة يمكن للدولة الفلسطينيّة أن تنتهج سياسات لا توحّدها مع إسرائيل وحسب، وإنّما مع الأردن ولبنان والدول الأخرى التي تشكّل هذا الجزء من العالم الذي يمتاز بكثافة السكّان ويمتلك إمكانيّة التكامل.

إنّ سياسة التقسيم والفصل لم تجد نفعًا. لقد كانت تعني على الدوام وجود طرف على طرفي الفاصل غير مستفيد، بينما الطرف الآخر هو الغريب والأكثر قوّة، وهو وضع ينتج المزيد من المعضلات. وقد تضاعفت المشكلة عدّة مرّات منذ الأربعينيّات عندما نالت معظم الدول العربيّة استقلالها وتمّ خلق دولة إسرائيل، ولم تصل المشكلة إلى حل. إنّ استمرار العيش خلف الأسلاك الشائكة وحواجز الشك والعنف وعنف الدولة على النحو الذي تمارسه إسرائيل على سبيل المثال والذي مارسه النظام العراقي، كلها أمور لن تؤدّي إلى ذلك النوع من الاستقرار والتعايش السلمي الذي يسعى إليه الجميع ويرغبونه.

لا زلت أعتقد بأنّ دولة ثنائيّة القوميّة هي الحلّ الأمثل، وهي لا بدّ قادمة. لكن، وللأسف، فإنّ وقتًا طويلاً ينبغي أن يمرّ، كما أنّ بعضًا من آثار مآسي الماضي الهائلة يجب أن يتم تجاوزها.

كيف هي صحّتك الآن؟

ـ أنا بخير.. إنّني أعاني من مرض مزمن لا يمكن البرء منه، وإنّما يمكن احتجازه في وضع حرج يضطرّ فيه إلى الدفاع عن نفسه بضراوة. يجب أن أخضع لعلاج دوري. إنّ المرء لا يخسر شيئًا عندما يكبر في السن، لكنّ الفكرة هي الاستمرار في العيش.

ثمّة ما ينطوي على مفارقة فيما يتصل بمرضك، فأنت تعالج في مستشفى لونغ أيلاند اليهودي Long Island Jewish Hospital على يد طبيب هندي حاذق تحيط به ممرّضات أيرلنديّات.

ـ وكذلك مساعد هندي أميركي وأنا مريض فلسطيني. إنّه أمر جميل وأنا أعتبر نفسي شخصًا محظوظًا. إنّني أطول نزيل عامل في ذلك المعهد بالتحديد حيث لا أزال أخضع للعلاج هناك منذ سبع سنوات أو ثمانٍ، والناس هناك لطيفون جدًّا معي وأحبّ أن أكون بين أيديهم. أنا لا أحبّ وجودي هناك وأتمنّى لو لم أكن، ولكن، إذا كان على المرء أن يكون هناك، فإنّه مكان جيّد جدًّا لتكون فيه.

وهكذا، فإنّ الأمر يبدو على عكس عنوان مذكراتك «خارج المكان». هل تشعر ببعض الراحة والاسترخاء؟

ـ كلا.. لا زلت أشعر بأنّني خارج المكان. لكن ثمّة درجات من «خارج المكانيّة». وهذا، ومقارنة بالتناقض الذي ينطوي عليه العيش في مكان مثل نيويورك، فإنّ هذا يمثّل مكانًا يمكن احتمال الإقامة فيه.

أيّ كتب ينتظر أن تظهر لك قريبًا؟

ـ لديّ مجموعة من المقالات تحت عنوان «تأملات في المنفى» «Reflections on Exile» وهي على وشك الصدور حيث ستقوم بنشرها جامعة هارفارد، ثم لديّ كتاب مقابلات بعنوان: «الثقافة، السياسة والقوّة» Culture, Politics and Power

والذي سيصدر عن دار بانثون Panthon في الخريف القادم. ثم لديّ كتابان صغيران، أحدهما عن الأوبرا والآخر عن النزعة الإنسانيّة، وكلاهما يعتمدان في مادّتهما على محاضرات حيث يضمّ كتاب الأوبرا محاضرات كنت قد ألقيتها في كيمبردج، أمّا الكتاب عن النزعة الإنسانيّة فهو مجموعة من المحاضرات التي كنت قد ألقيتها في كولومبيا.

هل تجد الوقت للاستمرار في ممارسة هوايتك في الموسيقى؟

ـ إنّني أعمل على كتاب يضمّ حوارات مع صديقي عازف البيانو وقائد الأوركسترا دانييل بارنبويم[٣٨]، وسيتمّ إنجازه في نهاية هذا العام، وبقدر ما أستطيع أعزف البيانو وموسيقى الحجرة مع بعض الأصدقاء.

الهوامش

(1) See Benny Morris, *The Birth of the Palestinian Refugee Problem 1947-1949* (Cambridge: Cambridge University Press, 1989), among others.

(2) For complete tables and statistics on Palestinian refugee, see the website and the reports of the United Nations Relief and Works Agency for Palestine Refugees in the Near East (UNRWA): http://www.un.org/unrwa/.

(3) See Naseer H. Aruri, ed., *Palestinian Refugee: The Right of Return* (London: Pluto Books, 2001).

(4) For detailed reports on the settlements, see the website of the Foundation for Middle East Peace (FMEP) and its newsletter *The Report on Israeli Settlement in the Occupied Territories*, which is available online at http://www.fmep.org/.

(5) For detailed data on injuries and deaths in the Al-Aqsa Intifada, see the websites of B'Tselem (The Israeli Information Center for Human Rights in the Occupied Territories) and the Palestinian Red Crescent Society at http://www.Btselem.Org/English/Statistics/Al_Aqsa Fatalities_Tables.asp and http://www.palestinercs.org/crisistables/oct_2000_table.htm.

(6) David R. Francis, «Economist Tallies Swelling Cost of Israel to US,» *Christian Science Monitor*, December 9, 2002, p. 16. Official U.S. aid since 1973, calculated in 2001 dollars.

(7) See Stephen Zunes, «UN Resolutions Being Violated by Countries other than Iraq,» *Foreign Policy in Focus*, October 3, 2002. Available online at http://www.fpif.org/.

(8) «The Spreading of the Palestine's War,» *The Economist* (U.S. Edition), October 28, 2000.

(9) See Samih K. Farsoun and Christina E. Zacharia, *Palestine and the Palestinians* (Boulder: Westview Press, 1997), pp. 123-25.

(10) See the Palestinian Academic Society for the Study of International Affairs

(PASSIA), *The Palestinian Question in Maps: 1878-2002* (Jerusalem: PASSIA,2002), Maps 40-48 (pp. 110-27).

(11) See the website of the Foundation for Middle East Peace (http://www.fmep.org/reports/).

(12) See, among other sources, Norman Finkelstein, *Image and Reality of the Israel-Palestine Conflict*, updated ed. (New York: Verso, 2003) and Noam Chomsky, *Middle East Illusions* (Boulder: Rowman and Littlefield, 2003).

(13) See Robert Fisk, «Bloodbath at the Dome of the Rock,» *The Independent* (London), September 30, 2000, p.1.

(14) See Emma Brokes, «The Bulldozer: These are Busy Times for Ariel Sharon,» *The Guardian* (London), November 7, 2001, p.2.

(15) Robert Fisk, «This is a place of Filth and Blood Which Will Forever Be Associated with Sharon,» *The Independent* (London), February 6, 2001, p.1.See also Robert Fisk, *Pity the Nation: The Abduction of Lebanon*, updated ed. (New York: Nation Books, 2002).

(16) See Julie Flint, «The Sharon Files,» *The Guardian* (London), November 28, 2001, p. 6.

(17) Nicole Gaouette, «Deep Splits Face Israel's New Leader,» *Christian Science Monitor*, February 7, 2001, p.1.

(18) Ross Dunn, «Muslims Shot in Clash at Jerusalem Site,» *The Times* (London), September 30, 2000.

(19) See Naseer H. Aruri, *Dishonest Broker. The U.S. Role in Israel and Palestine* (Cambridge: South End Press, 2003) chapter 10. See also Tanya Reinhart , *Israel/Palestine : How to End the War of 1948* (New York: Seven Stories Press, 2002).

(20) Aruri, *Dishonest Broker*, chaper 20.

(21) Barak quoted in Lee Hockstader, «Israeli Helicopters Hit Key Palestinian Offices,» *Washington Post*, October 31, 2000, p. A1.

(22) Clyde Haberman, «Yitzhak Rabion: Pragmatist Leading Israelis From Isolation to New Peace ,» *New York Times*, September 12, 1993, p.1:12; Sarah Helm, «Talks Reveal a Glimmer of Hope on Golan,» *The Independent* (London), September 4, 1992, p.9.

(23) David Zev Harris and Margot Dudkevitch, «Settler Leaders Upbeat after 'Positive' Meeting with Beilin,» *Jerusalem Post*, February 11, 2000, p.4A.

(24) See Seynour M. Hersh, *The Samson Option: Israel's Nuclear Arsenal and American Foreign Policy* (New York: Random House, 1991); Avner Cohen, *Israel and the Bomb* (New York: Columbia University Press, 1998); BBC World News, «Israel 'May Have 200 Nuclear Weapons'» August, 25, 2000. Report available at http://News.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/892941.stm.

(25) Harvey Moris, «Demography Drives Debate in Israel Over Settlements,» *Financial Times* (London), Hune 14, 2002, p.11.

(26) See «MKs Almost Come to Blows over Umm el-Fahm,» *Jerusalem Post*, October 21,1998, p.4.

(27) Sharon Waxman, «Israeli Jews and Arabs Find Common Ground at 'Peace Tents,'» *Washington Post*, October 18,2000,p. A23.

(28) See quotations in Noam Chomsky, Deterring Democracy, updated ed. (New York: Hill and Wang, 1992), pp. 424-35.

(29) See Nur Masalha, *Expulsion of the Palestinians, The Concept of «Transfer» in Zionist Political Thought, 1882-11948* (Washington, D.C.: Institute for Palestine Studies, 1992), p. 9.

(30) See Ian Fisher, «In Grief, Israeli Family Questions Army Aid to Settlers,» *New York Times*, December 18,2002, p. A10. See also PASSIA, *Palestine Question in Maps,* Map 29 (pp. 78-79).

(31) Chris Hedges, «Soldiers Fired at Crowd, Survivors of Massacre Say,» *New York Times*, March 16, 1994, p. A1.

(32) Edward W. Said, «American Zionism - The Real Problem,» three parts, Al-Ahram Weekly 500 (September 21-27, 2000), 502 (October 5-11, 2000), 506 (November 2-8, 2000). Online at http://www.ahram.org.ed/weekly/.

(33) Avi Shavit, «My Right of Return,» *Ha'aretz*, August 18, 2000.

(34) *In Search of Palestine:* A Documentary Film Narrated by Edward Said (London: BBC, 1998).

(35) Rami G. Khouri, «Israel's Deadly Errors,» *New York Times*, October 10, 2000, p. A27; Allegra Pacheco, «Palestinians in a State of Siege,» *New York Times*,

March 16, 2001, p. A19; Amira Hass, «Separate and Unequal on the West Bank,» *New York Times*, September 2, 2001, p. 4:9.

(36) Richard F. Grimmett, *Conventional Arms Transfers to Developing Nations, 1994 to 2001*, August 6, 2002 (RL31529) (Washington D.C.: Congressional Research Service, 2002). See also Gideon Burrows, *The No-Nonsense Guide to the Arms Trade* (London: Verso, 2002).

(37) Edward W. Said, «The One State Solution,» *New York Times Magazine*, January 10, 1999, p. 6: 36-39.

(38) Daniel Barenboim and Edward W. Said, *Parallels and Paradoxes: Explorations in Music and Society* (New York: Pantheon, 2002).

ما يريدونه هو .. صمتي

Santa Fe, New Mexico, May 2, 2001

منذ بدأت انتفاضة الأقصى في نهايات سبتمبر، جرت العديد من التطوّرات بما فيها انتخاب أرئيل شارون رئيسًا لوزراء إسرائيل. كيف تقيّم الوضع الماثل الآن على الأرض الفلسطينيّة؟

ـ إنّه وضع حرج، وأظنّ أنّ وجهة واضحة لا توجد لدى أيّ من الجانبين سوى العودة إلى أوضاع مراحل أبكر، بل أوّليّة من الصراع. ليس لدى الفلسطينيين سوى خيار البقاء على الأرض والاستمرار في النضال بأقصى ما تتيحه لهم قدراتهم، بينما يعمل الإسرائيليُّون على إخراجهم من تلك الأرض. تلك هي سياسة شارون التي تقوم على استخدام ما يسمّونه بسياسة «الحجز والكبح» Restraint. لكنّنا في الحقيقة إزاء صراع يدور بين قوى غير متكافئة يجري فيه استخدام المقاتلات العموديّة والصواريخ والدبّابات ضدّ سكّان مدنيين هم في الأساس عزّل وبلا دفاع. إنّ ما يجري ليس معركة بين دولتين، ولكنّها معركة تقوم فيها دولة تمتلك جيش احتلال بمهاجمة سكّان مستعمَرين وبلا دولة، مستخدمة كل أشكال العقاب الجماعي. أمّا على الصعيد السياسي، فليس ثمّة أيّة وسيلة للتقدّم في الحقيقة. إنّ ما يريده الإسرائيليُّون هو وضع بلا مقاومة فلسطينيّة، وما يسعى إليه الفلسطينيّون هو ما يوصف، رسميًّا على الأقل، باستئناف المفاوضات من النقطة التي كانت قد انتهت إليها في أواخر أيّام إدارة كلينتون. أمّا ما يريده الناس فهو انتهاء الاحتلال الإسرائيلي.

هل قام الفلسطينيُّون بعمل أفضل حيال قول قصّتهم، وفي إخراج روايتهم إلى حيِّز أوسع؟

ـ لا أعتقد بذلك. ببساطة، لأنّ وزن القوّة الإسرائيليّة هائل جدًّا بحيث لا يترك للفلسطينيين أيّة فرصة. ليس هناك عمل منظّم على الجانب الفلسطيني، ولا يوجد سوى بضعة مواقع إلكترونيّة تستطيع الدخول إليها إذا رغبت في الحصول على معلومات فلسطينيّة طازجة حول ما يجري. لكنّ القول بوجود رواية، أو بوجود خرائط تكشف أنّ ما يجري إنّما هو احتلال عسكري واستيطاني في مقابل حركة تحرّر، فإنّ شيئًا من ذلك لا يتوافر بسهولة. الصحف الرئيسيّة تتحدّث باستمرار عن «العنف الفلسطيني» الذي يجري تصويره على أنّه مجاني وبلا مبرّر وموجّه نحو اليهود. ثمّة كمّ هائل من الجهد الدعائي من الجانب الإسرائيلي، والذي يوظّف مؤسّسات العلاقات العامة في الولايات المتحدة، ويقف كامل الكونجرس الأميركي رهن إشارته، ولديه كمّ هائل من المصادر التمويليّة والسياسيّة والمصادر الأخرى بحيث يسدّ الطريق أمام أيّة جهود قد تقوم بها الأمم المتحدة لحماية الفلسطينيين المدنيين في مقابل الهجمة العسكريّة الإسرائيليّة الضارية[١]. وهكذا فإنّ الحصيلة الإجماليّة تتمثّل في وجود وضع ملتوٍ يموت فيه الفلسطينيّون. هناك الآن أكثر من أربعمائة شهيد وأكثر من أربعة عشر ألفًا من المصابين بجروح خطرة مقابل تحقيق القليل من النفع على الصعيد السياسي[٢]. إنّه وضع مأسوي وغير مقبول على الإطلاق.

يتمّ الآن وعلى نحو واسع الدفع بأخبار انتفاضة الأقصى إلى الصفحات الخلفيّة من الصحف. فعلى سبيل المثال: توجد في صحيفة البوكويرك Albuqwerque Jouranl مادّة صغيرة على الصفحة الرابعة. وفي النيويورك تايمز New York Times توجد قطعة على الصفحة الحادية عشرة[٣]، وليس في كل من صحيفتي سانتافي Santa Fe المحلّيّة ونيوماكسيكان The New Mexican أيّ شيء على الإطلاق. لقد بات الأمر مجرّد همهمة خفيفة في خلفيّة المشهد إلاّ إذا كان هناك حدث فظيع أو حريق هائل.

ـ إنّ انطباعي هو أنّ ذلك يتطابق مع الحسّ الشعبي الإسرائيلي إلى حدّ كبير، حيث يُنظَر إلى العرب على أنّهم شيء بغيض ومزعج، وأنّ وجودهم يشبه الذبابة في المرهم. إنّ الحياة اليوميّة لمعظم الإسرائيليين في أماكن مثل تل أبيب وحيفا وهرتزليا تمضي على نحو اعتيادي، وهم معزولون تمامًا عمّا يحدث. حتى المستوطنون في الضفّة الغربيّة وغزّة لا يضطرون إلى رؤية الفلسطينيين أو التعامل معهم. إنّهم محميُّون

منهم تمامًا كما كان البيض محميين من السود خلال حقبة التمييز العنصري بسبب نظام العزل وتصميم الطرق التي تدور على نحو يتيح تجنّب رؤية السود في تلك الحالة. إنّ هناك انتهاكات وحصارًا وهناك عمليّة خنق لاقتصاد الفلسطينيين تحدث الآن، وليس ثمّة من يوثّق ذلك. مع أنّه يمكن أن يوثّق بوسائل تقليديّة. وبعد ذلك يحاول الإسرائيليُّون الظهور بمظهر الضحيّة المعذّبة بحيث يبدو ما يجري وكأنّه استكمال لما فعله هتلر باليهود، وذلك أكثر أنواع الدعاية تجرُّدًا من الضمير والمبادئ الأخلاقيّة، والذي يلقي باللائمة على الضحيّة في الأساس.

في عدد صحيفة نيويورك تايمز الصادر اليوم، هناك إعلان يحتلّ صفحة كاملة صادر عن لجنة اليهود الأميركيين، يعيد ترديد بعض الشعارات حول الصراع[٤]. كيف يستطيع الفلسطينيُّون أن يجعلوا قضيّتهم مسموعة في مواجهة مثل هذه الدعاية؟

ـ إنّ الإعلانات شيء مرعب لأنّها تقوم أساسًا على الأكاذيب. ليس الأكاذيب وحسب وإنّما هي تقوم بشطب السياق الموضوعي برمته. إنّها تقتطف فقرات من الصحافة المصريّة والسوريّة، شيئًا ربما يكون أحد مصدّري الفتاوى قد صرّح به دون أن تقدّم كامل السياق، وهو أنّ الفلسطينيين يتعرّضون لهجوم الدولة اليهوديّة التي تقوم بما تقوم به باسم الشعب اليهودي. ولذلك، فإنّ هناك علاقة سببيّة بين ما تقوم به إسرائيل وبين مشاعر الاستياء والكراهية التي يشعر بها الناس في العالمين العربي والإسلامي تجاه اليهود. وهي مشاعر لا علاقة لها بالعداء للساميّة الأوروبي الكلاسيكي، بل هي ناجمة عمّا تقوم به إسرائيل والذي هو بربري، ليس هناك كلمة أخرى يمكن أن تصف ذلك.

ثانيا: إنّ ما لا تظهره الإعلانات هو ذلك الدفق الهائل من المشاعر العنصريّة من الجانب الإسرائيلي. منذ بضعة أيّام قال الحاخام الأكبر لحزب شاس عوفيديا يوسف أنّ الفلسطينيين يجب أن يبادوا، إنّهم أفاعٍ ويجب أن يقتلوا[٥]. وإذا ما دقّقت في الصحافة الإسرائيليّة، فإنّك ستجد مشاعر جرى التعبير عنها إزاء العرب والمسلمين والفلسطينيين أسوأ بكثير ممّا يرد في هذه المجموعة السخيفة من الأقوال العشوائيّة، والتي ربّما جرى تصنيع أغلبها على أيدي لجنة اليهود الأميركيين لتسويقها على المستهلك الأميركي الذي لا يعرف جليّة الأمر. إنّ الأميركيين ليس لديهم أدنى فكرة عمّا تقوم نقودهم بتمويله. وكل ذلك إنّما تدفع ثمنه الولايات المتحدة. إنّ اضطهاد

الشعب الفلسطيني يتمّ دعمه بخمسة بلايين من الدولارات التي نمنحها نحن دافعي الضرائب لإسرائيل دون أن يتمّ ربط أيّة خيوط، كما نزوّدها بالقدرة على استخدام الأسلحة التي يفترض أن تكون لأغراض دفاعيّة في خدمة أغراض عدوانيّة.

في هذه الأثناء، لم يصل الفلسطينيّون بعد، لسوء الحظّ، إلى إدراك أنّ ما نحتاجه إنّما هو القيام بحملة منظّمة، والتي أعتقد أنّ بالوسع القيام بها. فهناك مجتمع كبير من فلسطينيي الشتات الذين لم تتم تعبئتهم. وهناك الكثير من المصادر في فلسطين وفي العالم العربي التي لم يتمّ توظيفها وتفعيلها. إنّنا لا نزال على مستوى بدائي جدًّا من التقاتل على القشور، على من سيقود ماذا. إنّنا لا نزال في قبضة سلطة فلسطينيّة مستبدّة، والتي أصبحت عند هذه النقطة في رأيي، بلا نفع، وهي تسعى إلى محاولة السيطرة على المعلومات حتى تبقي على نفسها في سدّة الحكم وتعود إلى المفاوضات التي لا يرغب بها أحد. ومن المؤكّد أنّ معظم الفلسطينيين لا يؤيّدون العودة إلى مفاوضات تفضي إلى تسوية مؤقتة تعطي الإسرائيليين الحقّ في استمرار بناء المستوطنات الذي تصاعدت وتيرته تحت حكم باراك. معظم الناس هنا يعتقدون أنّ باراك رجل كيس كريم تعرّض للهزيمة لأنّه كان ليّنًا جدًّا إزاء الفلسطينيين، بينما هو في الحقيقة لم يقلّ وحشيّة عن شارون. وقد أصبح معدّل الاستيطان في فترة حكمه أكبر ممّا كان عليه في فترة حكم أربعة أو خمسة من رؤساء الوزارات الذين سبقوه.

وهكذا، فإنّ ما يجري إنّما هو استمرار لسياسة ظلّت تنشط بلا انقطاع في اضطهاد وقهر وإخضاع الفلسطينيين باستخدام أساليب تتجاوز بكثير أيّ شيء تمّ اقترافه في جنوب إفريقيا إبان حقبة النظام العنصري. إنّ هذا أمر يحتاج إلى الإيضاح، وهو الأمر الذي لم يتمّ لأنّ القيادة الفلسطينيّة والكثيرين من مجتمع النخبة لا يزالون يعتقدون أنّ الطريقة المثلى لتحقيق ذلك هي محاولة جلب انتباه الإدارة الأميركيّة، وهو أمر لا طائل تحته. وإذا ما نظرت إلى ما قاله كولن باول عندما طالب بانسحاب الإسرائيليين من غزّة عقب تلك الغارة الشهيرة حوالى منتصف نيسان، فإنّك ترى أنّه كان يلوم الفلسطينيين في الأساس لأنّهم استفزوا الإسرائيليين. . إنّ إدارة بوش، مثل كل الإدارات الأميركيّة، هي إدارة معادية للتطلّعات الفلسطينيّة، ولذلك فإنّه ينبغي علينا التركيز على الجماعات الصديقة في الولايات المتحدة، مثل الجامعات

والكنائس واللجنة الإفريقيّة الأميركيّة والمجتمع اللاتيني والمجتمع النسائي. وهي الدوائر التي داومنا على تجاهلها بكل بساطة.

ما هي جذور ذلك التجاهل؟ ولماذا لم يكن هناك امتداد أكبر؟

ـ ربما تكمن جذور المسألة في سيادة الشعور بالإحباط المريع والحصار. ليس ثمّة طريقة للتعبير عن قوّة الضغط الذي يشعر به الفلسطينيُّون جميعًا. ها نحن يجري قتلنا على يد عدوّ لا يرحم، وكل ما نمتلكه للدفاع عن أنفسنا هو فتية يرمون الحجارة على الدبابات والصواريخ والطائرات العموديّة، تلك هي الحقيقة الأوّليّة. ولدينا إلى جانب ذلك قيادة غير قادرة على القيادة بغض النظر عن الأسباب. ففي المقام الأوّل، القيادة مسجونة، ولا يزال عرفات محتجزًا في رام الله منذ شهور عديدة حيث قام الإسرائيليُّون باحتجازه في زنزانة ورموا المفتاح[٦]، وهو لا يستطيع الوصول إلى غزّة. وثمّة سياسة اعتقالات خارجة على كل الأعراف تقوم على التقاط القادة وإبعادهم، بحيث يتعرّض كل من يتولّى منصبًا قياديًّا في المجتمع الفلسطيني إلى تهديد إسرائيل المباشر بالقتل أو الاعتقال. معظم الناس هناك يعيشون تحت ظروف عصيبة على الصعيد الاقتصادي ولا يتمكّنون من العمل أو جلب الطعام لأطفالهم. وهناك نسبة من البطالة تزيد على ٥٠٪[٧]. إنّنا نحسّ هناك بأنّنا وحيدون ومحاصرون، بينما لا يبدي العالم أيّ اهتمام بعد مائة عام من النضال ضدّ هذا العدوّ العنيد. ذلك هو السبب الرئيس.

أمّا السبب الآخر فهو الجهل؛ ذلك أنّ النخب الفلسطينيّة من المثقّفين وغيرهم لا يزالون يعتقدون بأنّ هناك طريقًا مختصرًا للتأثير على أميركا، التي تلعب الدور الرئيس فيما يجري إلى جانب إسرائيل، والتي لم يكن شيء ممّا يجري ليتمّ بدونها. ثمّة جهل بالطريقة التي تعمل بها هذه البلاد وما الذي يمكن أن يشكّل نقاط ضغط فيها. حيثما تمّ استغلال نقاط الضغط هذه فقد نفعت الطريقة. على سبيل المثال، كان هناك جهد ناجح عام ٢٠٠٠ لمنع بوظة (بن وجيري) من استخدام الماء المأخوذ من المستعمرات الإسرائيليّة في مرتفعات الجولان[٨]، وهكذا أصبح (بن وجيري) هدفًا مركزيًّا للضغط والمقاطعة، وفي النهاية توقّفوا. إنّ هذه التكتيكات تجدي في الحقيقة. لكن ما نحتاجه هو قيادة جديدة، قيادة بديلة من المثقّفين الذين يجعلون من ذلك النوع من النشاط محطّ التركيز في المقام الأوّل، ولا ينجرفون وراء أشياء مثل

القلق حيال الجامعة العربيّة وإذا ما كان البريطانيُّون والألمان سيفعلون شيئًا. إنّ ما نحتاج إليه إنّما هو تركيز منظّم ومنضبط على اللاعبين الرئيسيين، وأحدهم هو إسرائيل والشعب الإسرائيلي الذي ينبغي أن يتوجّه إليه الخطاب، وهو ما لم نفعله أبدًا. أمّا اللاعب الثاني فهو أميركا والشعب الأميركي، على الأقلّ تلك القطاعات في هذا البلد العملاق التي يمكن أن تنضمّ إلينا في المعركة ضدّ هذه الحرب التي لا تنتهي.

إلى أيّ حدّ تعتقد بأنّ العرب أنفسهم قد تمّ توطينهم واستيعابهم؟ خاصّة في الولايات المتحدة؟

ـ العرب في الولايات المتحدة يشكّلون مجتمعًا حديثًا نسبيًّا يتكوّن في معظمه من القادمين الجدد، وهم يشكّلون مجتمعات غير متعاضدة، وغير متفاعلة سياسيًّا حيث البلدان الأصليّة لكل جماعة تظلّ مراجعها الأساسيّة.. فتجد مجتمع السوريين ينظر صوب سوريا والمصريين صوب مصر واللبنانيين صوب لبنان. ولا يزال النوع نفسه من المشكلات التي نشأوا معها في الشرق الأوسط يعيش هنا؛ فبعض اللبنانيين لا يثقون بلبنانيين آخرين حاملين معهم الأحقاد الطائفيّة اللبنانيّة، واللبنانيُّون والسوريُّون ليسوا متقاربين.. والحال نفسه بالنسبة للّبنانيين والفلسطينيين. وهكذا، تنشأ مثل هذه المشكلة. إنّ المسألة ليست بالضبط مسألة توطين. إنّهم يعيشون وضعًا غير مألوف ومتّسم بعدم الثقة، وبالتالي، فهم لا يستطيعون التصرّف على أنّهم مواطنون أقوياء لأنّهم منهمكون جدًّا في سعيهم إلى التكامل والحصول على المواطنة. إنّه الجيل القادم، جيل أبنائي هو الذي أعتقد بأنّه على وعي سياسي جيّد، وهم ينظّمون أنفسهم ببطء، لكن ذلك يستغرق وقتًا!

إنّ اليهود أنفسهم لم يكونوا منظّمين حتى ما بعد عام ١٩٦٧ تقريبًا، وقد حدث ذلك لأنّ إسرائيل كانت منتصرة وجرت محاولة للبناء على ذلك والإفادة منه. أمّا نحن، فإنّنا نأتي من خلفيّة خسارات عسكريّة وسياسيّة وإقليميّة هائلة، وهو واقع يصعب تغييره. إنّ لدينا إحساسًا بالهزيمة والفشل في دفاعنا السيكولوجي، وهو أمر ينبغي التغلُّب عليه. وذلك هو السبب في ضرورة تعلّم الدروس من مجتمع الولايات المتحدة الواسع ومن حركات التحرّر حول العالم.. ونحن لم نستفد من ذلك. إنّ هناك الكثير من ذوي النوايا الحسنة والكثير من الناس الراغبين في مساعدتنا.

هل تظنّ أنّ الخوف الكامن في أبناء جيلك قد بدأ يتناقص إلى حدّ ما في الجيل الأصغر؟

ـ لا شكّ في ذلك. وثمّة أيضًا كمٌّ وافرٌ من الازدراء المبرّر لما فعله أبناء جيلي. كل ما عليك فعله هو أن تتأمّل بانوراما العالم العربي، وستجد أنّ المشكلة -وقد اكتشفت ذلك خلال عملي مع الشباب في بعض المنظّمات العربيّة الجديدة- هي أنّ هؤلاء الشباب لم يستطيعوا أن يكتسبوا من أبناء جيلي الخبرات والمعارف المتراكمة والإنجازات التي حقّقناها بسبب ذلك الازدراء. إنّ هذه المنظّمات الجديدة تعيد اختراع العجلة مبتدئة من الصفر. إنّها تعود إلى الوراء وتعيد فعل أشياء كان قد تمّ فعلها ولا يلزم أن يعاد فعلها مرّة أخرى، وإنّما يمكن البناء عليها بدلاً من إهمالها وازدرائها وطرحها جانبًا. إنّها مشكلة استمراريّة الأجيال التي ينبغي العمل على تكريسها، وأظنّ أنّ العمل جارٍ على ذلك.

على الرغم من أنّ المجتمع اليهودي يتفوّق علينا عدديًّا بشكل كبير، وأنّنا لا نمتلك المصادر التي يمتلكها المجتمع اليهودي والعديد من التجمّعات العرقيّة في هذا البلد، فإنّ هناك مخزونًا كبيرًا من روح المنافسة والرغبة في الإنجاز تنتشر بين جيل الشباب، والتي أراها في كل مرّة أذهب فيها إلى الجامعات في كل أنحاء البلاد. ثمّة شباب من العرب الأميركيين يتحالفون مع الأميركيين الأفارقة ومع الحركات النسائيّة ومع الأميركيين الأصليين، وهم شباب في منتهى الحذق والحنكة. إنّ ما نحتاج إليه الآن هو إطار يجمعهم والتفكير في الكيفيّة التي يمكن لهم أن يعملوا وفقها معًا.

لقد أدليت بحديث في بيلينغهام في جامعة واشنطن الغربيّة. كيف استقبل حديثك هناك؟ أنا أسأل عن ذلك لأنّه لم يرق لكل من باركلي وماديسون أو باولدر.

ـ ألقيت محاضرة مهمّة عن الحركة الإنسانيّة humanism التي لم تعنَ بفلسطين. لكنّني كنت قد تحدّثت في وقت أبكر من ذلك اليوم إلى مجموعة ضمّت حوالى خمسين أو ستّين طالبًا من طلبة الأنثروبولوجيا والأدب والعلوم السياسيّة. وقد وجدت، لا أقول إجماعًا، بل انفتاحًا مذهلاً، ليس انفتاحًا وحسب، ولكن قبولاً للموقف الفلسطيني. لم يكن هناك عرب أميركيُّون وإنّما كان الطلاب في أغلبهم من مناطق الشمال الغربي، وكانوا يتوافرون على فهم جيّد للوضع الفلسطيني وللوضع

السياسي في الشرق الأوسط ولطبيعة عمل اللوبي الصهيوني في هذه البلاد. ولعل ممّا ينطوي على المفارقة، أنّ واحدًا من أساتذتهم وهو واحد من أهمّ أساتذة تلك الجامعة كان يهوديًا أميركيًا ولم يكن صهيونيًا. شكرًا لطريقة تعليمه وللقراءات التي يعينها لطلبته من كتبي وكتب ناعوم تشومسكي ومن كتب آخرين والتي اطلع عليها أولئك الطلاّب. هذا مثال يتّسم بالكمال.

قبل ذلك ببضعة أسابيع كنت في برينستون حيث ألقيت العديد من المحاضرات في الجامعات. وهناك رأيت أقلّيّة ممّن يمكن وصفهم بأنّهم ينتمون إلى الجناح الصهيوني اليميني المتطرّف، بينما كان البقيّة منفتحين وجدّ متعاطفين. وفي الأسبوع الماضي كنت في لندن وأدليت بحديث. ولا بد أنّ أكثر من ألفي شخص كانوا هناك، كان الكثير منهم من العرب، ولكن الكثيرين منهم أيضًا كانوا من الإنجليز. وقد تحدّثت أيضًا في معهد الدراسات الشرقيّة والإفريقيّة، وتبيّن أنّ المئات من طلاب تلك المدرسة قد جاؤوا من كل أنحاء العالم الثالث. وهناك أيضًا أذهلني الانفتاح المذهل والرغبة الشديدة في الاستماع إلى شيء عن الوضع الفلسطيني. إنّنا لم نكن نعمل مثل ذلك بأيّة طريقة منهجيّة، وهو ما يصدمني بوصفه منتهى الغباء الذي ينطوي عليه إهاب قيادة عرفات التقليديّة.

وهكذا، فإنّني أبذل ما في وسعي لأنفض عن كاهلي بعضًا من ذلك لأركّز على مساعدة الفلسطينيين. لقد أصبح الأمر الآن مسألة بقاء، لكنّني أعتقد بأنّ علينا الذهاب أبعد من البقاء إلى الانخراط في معركة الثقافة والمعلومات. ثمّة أناس في إسرائيل يتحرّقون إلى سماع ما نقوله. إنّ علينا إيصال رسالة إليهم قوامها أنّ الصهيونيّة لم تحقّق لهم أيّ شيء على الإطلاق. وقد بدأ الكثيرون من الإسرائيليين يدركون أنّ إسرائيل، رغم قوّتها العسكريّة الهائلة وقدراتها الاقتصاديّة والسياسيّة، هي الآن أكثر افتقادًا للأمان من أيّ وقت مضى. إنّ هناك سببًا يكمن وراء ذلك. وبما أنّ القيادة الإسرائيليّة غير قادرة على أن تقدّم لهم تفسيرًا لهذا الواقع، فإنّ علينا أن نقوم نحن بتقديم هذا التفسير. وهكذا فإنّ لدينا العديد من المهمّات الملحّة والقابلة للإنجاز، وهي لا تتضمّن الانتحار ورمي الحجارة الذي ينطوي على الشجاعة ــ وغير المجدي في نهاية المطاف ــ وتعريض نفسك لغارات الجيش الإسرائيلي وأذاه.

أيّ دور ترى أنّه يمكن للأمم المتحدة أن تلعبه في حلّ القضيّة الفلسطينيّة؟

ـ إنّ إطار الأمم المتحدة ضروري بشكل مطلق. ولسوء الحظّ، فإنّ عرفات ومنظّمة التحرير قد ألقوا بعيدًا بمظلّة الأمم المتحدة عندما ذهبوا إلى مفاوضات مدريد. لقد عبّروا دائمًا عن دعمهم لقرارات مجلس الأمن ٢٢٤ و٣٣٨ دون أن يأخذوا شيئًا في المقابل، تلك القرارات التي تمنع ضمّ الأراضي ومصادرة المزيد، وهو ما حدث كثيرًا في سياق عمليّة السلام المسمّاة بأوسلو. الشيء الذي ينبغي أن نفعله الآن كفلسطينيين هو ممارسة المزيد من الضغط على القيادة بحيث لا تقبل أيّ مفاوضات أخرى مع الإسرائيليين إلا إذا قبلوا بمبادئ القرارات ٢٤٢ و٣٣٨. وبما أنّ الولايات المتحدة تمتلك هذا الفيتو التعس في مجلس الأمن، فإنّه يجب العمل على استصدار قرارات من الجمعيّة العموميّة لضمان توفير حماية للمدنيين الفلسطينيين الذين يتعرّضون لنيران البنادق الإسرائيليّة في كل يوم من أيّام حياتهم.

إنّك تمثّل مانعة صواعق في مواجهة النقد الذي يتوجّه إليك، بدءًا من الناشيونال بوست في كندا إلى صحيفة وول ستريت إلى كومينتري إلى نيوريبابليك[٩]. كيف تردّ على ما يقولونه؟

ـ أنا لا أفعل، فذلك هدر كلّي للوقت. إنّ هذه الصحف هي صحف دعائيّة تحمل روح العداء العنصري للفلسطينيين والعرب والمسلمين على نحو يبدو لا شفاء منه. وإلى جانب ذلك، فإنّ المسألة لا تتعلّق بقراء النيوريبابلك أو الناشيونال بوست وإنّما بمالكيها. وهم أشخاص أثرياء من أمثال مارتن بيرتز، كونراد بلاك، مورت زوكرمان، وكل الباقين الذين زوّروا الأفكار التي يستطيعون شراء الناس لقراءتها. أظنّ أنّ ثمّة إطراءً لي عندما يفكّرون بأنّني مهمّ إلى حدّ يستمرّون معه في مهاجمتي. وما يفعله ذلك في الحقيقة هو جلب اهتمام المزيد من الناس إلى عملي وكتاباتي. هذه هي طريقتي في الاستجابة إليهم، بإنتاج المزيد. أعتقد أنّ ما يريدونه إنّما هو صمتي، وهو ما لن يحدث إلاّ إذا مت.

في كتابك «الاستشراق» الصادر عام ١٩٧٨، كتبت: «إنّ حياة عربي فلسطيني في الغرب، خاصّة في أميركا، هي أمر مثبط للهمّة»[١٠]. هل لا يزال ذلك الوضع ماثلاً اليوم؟

ـ إنّ ما يثبط الهمّة هو حقيقة أنّ الكثير من نوع الإجحاف نفسه الذي كنت

أهاجمه، والتشويهات والنظريّات العنصريّة عن العرب والمسلمين لا تزال موجودة. ومن الطبيعي أنّني لم أكن أحمق إلى حدّ الاعتقاد بأنّ كتابي سوف يقلب ذلك التوجّه الذي يجري فرضه يوميًّا عبر وسائل الإعلام التي تعمل على تأبيد وإدامة تلك الصورة، سواء بشكل مقصود أو بفعل الجهل أو البلادة، حتى على أيدي الأشخاص الذين يحاولون أن يفعلوا عكس ذلك. سأعطيك مثالاً جيّدًا. قبل خمس سنوات جاء لمقابلتي روبرت بيرنز الذي عمل لسنوات عديدة مراسلاً لصحيفة التايمز في شبه القارّة الهنديّة، جاء لمقابلتي وقال إنّه قد خطّط لأن يأخذ إجازة بحث لمدّة سنة بإذن من رئيس تحرير التايمز جوزيف ليليفيلد، حتى يتمكّن من إعادة صياغة أدواته بوصفه شخصًا ذا اهتمام بالإسلام والعرب، وقد نال فعلاً تلك الإجازة وقضاها في أكسفورد وكيمبردج. ثم رأيته ذات مرّة عندما كنت أحاضر في أكسفورد، وكان يقرأ عن العرب والإسلام لكي يتمكّن، كما قال، من تغطية هذه الشؤون من وجهة نظر مختلفة، ليس من جهة العنف والإرهاب، بل من منظور تنوّع تلك الثقافة وغناها ، ومن منظور فهم التيّارات التي تحكم تلك المجتمعات والتي تذهب إلى أبعد من مجرّد الإرهاب والعنف. وقد عاد بعد سنة، فماذا كانت النتيجة؟ كانت تقديم المزيد من التقارير عن الإرهاب والعنف في العالمين العربي والإسلامي. وهكذا، فإنّ من الراسخ في بنية الإعلام أنّ هذا هو الحدّ المسموح به، وقد أصبح الوضع أسوأ كثيرًا ممّا كان عليه من قبل في أكثر من جانب.

لكن هناك تيّارًا ناهضًا من الناحية الأخرى بحيث يمكنك تلمّس حضوره أنّى ذهبت والذي تجري اليوم مقاومته. ثمّة إعلام بديل من النوع الذي تمثّله أنت، وهو إعلام واسع الانتشار. وثمّة كَمّ هائل من المعلومات المتوافرة على شبكة الإنترنت، وصحافة بديلة من بلدان متعدّدة مثل بريطانيا وفرنسا وإسرائيل. وهكذا، فإنّه يمكن النظر إلى كتبي من هذا المنظور على الأقلّ ضمن سياق أوسع ، وهو أمر مشجّع.

هناك ضغط مبيّت تجري ممارسته عليّ بقصد منعي من التحدّث إلى الآخرين ولمنع الآخرين من الاستماع إليّ. إنّهم يستخدمون كل الوسائل العقابيّة والتأديبيّة.. يهدّدون ويدفعون الناس إلى إلغاء محاضراتي. إنّ ذلك لم يحدث كثيرًا، لكن ذلك ما يحاولون فعله. إنّهم لا يواجهونك مباشرة، وإنّما بمنتهى الجبن. لقد أصدر كونراد بلاك، على سبيل المثال، تعليمات إلى كتّابه في إنجلترا يمنعهم فيها من أن يقولوا أيّ

كلمة إطراء عن الفلسطينيين وأن يضبطوا أنفسهم لدى توجيه النقد لإسرائيل، وقد فشل. إذ ردّ على الصخب الذي أثاره الكثيرون من الكتّاب، مثل إيان جيلمور وآخرين، ولم يتمكّن من منعهم[١١]. إنّ الوضع في هذا البلد ليس مبشّرًا على ذلك النحو، لأنّ بيريتز لن يسمح بنشر كلمة واحدة من النقد ضدّ إسرائيل في صحيفة نيوريبابليك. ولم تسمح صحيفة النيويورك تايمز بدورها بنشر أيّ اختلاف في وجهات النظر إزاء فلسطين على صفحاتها المفتوحة سوى لمرّات قليلة منذ بدء الانتفاضة، والباقون هم ويليام سافاير وتوماس فريدمان وأشباههم. وهكذا فإنّ على المرء أن ينظر إلى وجهة أخرى، وهناك لا يبدو الأمر مثبطًا للهمّة كثيرًا.

يقول ناعوم تشومسكي إنّك «في وضع متأرجح حينما يتعلّق الأمر بالإعلام والثقافة السائدة» لأنّ مساهماتك في مجال النقد الأدبي يتمّ تبجيلها واعتبارها مميّزة، ومع ذلك تبقى «هدفًا للذم وتشويه السمعة الدائمين»[١٢].

ـ إنّ هذا الوضع شديد الشبه بوضعه هو. وهو لغوي عظيم معروف جدًا، وقد تمّ الاحتفاء به وتكريمه لذلك. لكنّه يتعرّض للنقد حيث يعتبرونه معاديًا للسامية ومن عبدة هتلر. وقد بلغ النقد من هذا النوع حدًّا جنونيًا سواء ضدّه أو ضدّي حتى لقد أصبح يبعث على الضحك، لكن الذين يقومون بذلك هم أناس عديمو الإدراك. أنظر إلى ما حدث لي بسبب تلك الفقاعة التي رميتها في جنوب لبنان[١٣]، حيث كانت الكثير من الأمور محتجبة طوال اثنين وعشرين عامًا من الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان. لقد تمّ قتل ما يقارب السبعة عشر ألف إنسان خلال غزو لبنان عام ١٩٨٢، وجرى تعذيب ثمانية آلاف شخص في معتقل الخيام على بعد ميل واحد فقط من المكان الذي رميت فيه ذلك الحجر. بعد فترة سيتساءل الناس، هل هؤلاء مجانين؟ إنّهم جدّ مهووسين. إنّهم أشبه بشخصيّات من صنع موليير، مليئون بالفكاهة و«الأخلاط الأربعة» كما جرى وصفهم في القرن السابع عشر، إنّهم سريعو الغضب وغير عقلانيين، ويطبعون أقدامهم الصغيرة في البحر؛ وما يفعلونه يعطي عكس النتائج المرجوّة بطرق كثيرة. إنّه لم يوقف ناعوم ولم يوقفني.

لا تزال تداعيات حادثة رمي الحجر مستمرّة إلى الآن. وقد قامت جمعيّة فرويد في فيينا بدعوتك لتدلي بحديث في السادس من أيّار، ثم قامت بسحب تلك الدعوة[١٤].

ـ إنّ ذلك يمثّل تجلّيًا واضحًا لسياسة الضغط. فقد دعتني جمعيّة فرويد في صيف عام ٢٠٠٠، بعد فترة طويلة من حادثة الحجر التي نشرتها في اليوم التالي صحيفة هآرتز ثم الصحافة الأميركيّة بعد ذلك بيومين. كان ذلك في أوائل حزيران وجاءت الدعوة في أواسط تموز. وقد وافقت على تلبية الدعوة في الأوّل من أيلول وأعطيتهم عنوان المحاضرة. وكان في أواسط شباط أن تلقّيت تلك الرسالة غير المعلنة التي تقول بأنّ المحاضرة قد تمّ إلغاؤها. لماذا؟ لأنّ السيّد هناك قال: «بسبب الوضع السياسي في الشرق الأوسط وتداعياته». وقد أرسلت له مباشرة رسالة ردّ تقول بأنّني أودّ معرفة الصلة بين محاضرة عن فرويد في فيينا و«الوضع السياسي في الشرق الأوسط وتداعياته»، ولم أتلقّ إجابة حتى هذا اليوم. لكنّ المحاضرة ألغيت.

لقد اكتشفت بعد ذلك أنّ الذي حدث هو أنّهم قد تلقّوا دعمًا ماليًّا لإقامة معرض لأوراق فرويد في تل أبيب، وقيل لهم إنّهم إذا ما أرادوا أن يعرضوا هذه الأوراق وأرادوا الحصول على التمويل الذي سيقدّمه مموّلون من إسرائيل وأميركا، فإنّ عليهم إلغاء محاضرتي، من مبعث الإحساس بالواجب. إثر ذلك اعترض دزينة من أبرز المحلّلين النفسيين في العالم ووقّعوا رسالة يحتجّون فيها على جمعيّة فرويد وتمّ نشرها في صحيفة لندن ريفيو أف بوكس[١٥]. وقد اتخذت الصحافة النمساويّة موقفًا معاديًا بالكامل، وتمّ إرغام كبش الفداء الساذج ذاك، وهو عالم نفس يترأس مجلس جمعيّة فرويد في ڤيينا، على قول أشياء سخيفة من قبيل: «كان علينا أن نأخذ في الحسبان أحاسيس المجتمع النمساوي اليهودي وعودة بزوغ كورك هايدر وذكريات الهولوكوست»، قال ذلك دون أن يبين أدنى صلة بيني وبين محاضرتي وبين كل ذلك. وأظنّ أنّ الكلمة الأخيرة كانت لي عندما قلت بأنّ فرويد كان قد طرد إلى خارج ڤيينا على أيدي النازيين في أواخر الثلاثينيّات، وقد مُنعت بوصفي فلسطينيًّا من التحدّث في ڤيينا على يد العقليّة نفسها بعد جيل أو جيلين فقط من حادثة فرويد[١٦].

كان من نتيجة ذلك أن وجّهت إليّ جمعيّة متحف فرويد في لندن الدعوة لألقي في لندن المحاضرة نفسها التي كنت سألقيها في ڤيينا في أيّ تاريخ أختاره. ولم يتسنّ لي إلقاء المحاضرة في السادس من أيّار الذي يصادف ذكرى ميلاد فرويد بسبب التزامات أخرى، لكنّني سأقوم بذلك في ديسمبر القادم. ثم قامت أربع مؤسّسات في ڤيينا بما فيها إحدى الجامعات ومعهد العلوم الإنسانيّة ومؤسّسة الشرق الأوسط بتوجيه دعوات

لي لأتحدّث في ڤيينا، وهو ما سأفعله في نوفمبر على الرّغم من صبيانيّة متحف فرويد وانقياده السخيف للضغوط الخارجيّة.

يعلّق روبرت فيسك، مراسل صحيفة الإندبندنت في الشرق الأوسط قائلاً: «إنّ درجة الاضطهاد والتهديدات الصريحة وصلت الآن حدًّا يجري معه توجيهها إلى أيّ شخص، سواء كان أكاديميًّا أو محلّلاً أو مراسلاً صحفيًّا. والذي يجرؤ على انتقاد إسرائيل يقترب بسرعة من حدود المكارثية(*)، كما أنّ الجهل بالشرق الأوسط وتجاهله هي أمور يجري الالتزام بها بصرامة في الولايات المتحدة بحيث تقوم صحف قليلة صغيرة فقط بنشر أيّ شيء يمكن أن يختلف عن وجهة النظر الإسرائيليّة[١٧]».

ـ قمت بإجراء مسح بجهد شخصي للصحف الرئيسيّة التي تصدر في المدن المهمّة، بما فيها لوس أنجلوس ونيويورك وشيكاغو وأتلانتا وبوسطن، ووجدت أنّها في مجملها تقدّم تقاريرها من إسرائيل، أي بالاعتماد على مراسلين يتواجدون في القدس، التي هي إسرائيل بسبب ضمّها، أو من تل أبيب. وهي ليس لديها سوى القليل جدًّا من المراسلين في العالم العربي بحيث يقدّمون وجهة النظر الفلسطينيّة. ثانيًا: يقوم هؤلاء بإرسال تقاريرهم إلى مكاتب التحرير في قواعدهم في الوطن، وهناك يجري تغيير القصص بحيث تعكس الانحياز نفسه والخطّ نفسه. والموضوع هو العنف الفلسطيني وافتقاد إسرائيل للأمن، وهي الفكرة الرئيسة في كل التقارير التي تقوم بنقل الأحداث التي تمّ في غضونها قتل المئات من الفلسطينيين، وجُرح خلالها الآلاف أو شُوّهوا، متجاهلة تقارير منظّمة العفو الدوليّة، ومنظّمات حقوق الإنسان ولجان الأمم المتحدة وتقرير مفوّض الأمم المتحدة الأعلى لشؤون اللاجئين.

بوسعي أن أعطيك عشرات الشهادات التي يمكن التحقّق منها بسهولة عن حقيقة ما يحدث، والذي لا ينعكس أيّ جزء منه في الصحف الرئيسيّة، ولا على شاشات التلفزة بالتأكيد، حتى ما يدعى منها بالنزيهة مثل «نيوز أور» News Hour على محطة بي بي سي والناشيونال بابلك راديو، والتي تنتهج الخطّ نفسه، إلى حدّ كبير بسبب ــ وقد أخبروني بذلك عندما تقصيت ــ، بسبب حملات كتابة الرسائل أو حملات البريد

(*) نسبة إلى Joseph McCarthy جوزيف مكارثي (١٩٠٨ ــ ١٩٥٧)، وهو شيخ أميركي جمهوري قاد حملة ضدّ العناصر اليساريّة الأميركيّة خلال الأعوام (١٩٥٠ ــ ١٩٥٤). (المترجم).

الإلكتروني التي غمرت الصحف أو مكاتب البثّ بالشكاوى، والتي من الواضح أنّ المايسترو في تنظيمها هو المنظّمات الصهيونيّة ولجان العلاقات العامّة بغضّ النظر عمّن يكون هؤلاء، والتي جرى تصميمها بحيث تبقي انتباه الأخبار مركّزًا على إسرائيل ومأزق إسرائيل. هناك القليلون من الناس الجسورين الذين يكتبون في «أورلاندو سينتينيل» و«سياتل بوست إنتليجنسر» و«زد ماغازين» و«الدسموينيس ريجستر» و«هارتفورد كورانت». بوسعك أن تجد هؤلاء هنا أو هناك، ولكنّهم قليلون ومتفرّقون ولا تصل أصواتهم إلى قرّاء المجلاّت والصحف الرئيسيّة.

إنّ الإرهاب هو محطّ تركيز دائم لوسائل الإعلام الأميركيّة. وقد أصدرت وزارة الخارجيّة توًّا تقريرها السنوي، والذي تتكرّر فيه الترنيمة بأسماء الدول الإرهابيّة التي تضمّ أفغانستان وباكستان وإيران والعراق وليبيا والسودان وسوريا، وكلها بلدان ذات أغلبية مسلمة. وقال كولن باول حين أطلق التقرير: «إنّ الإرهاب مرض مزمن»[١٨]. أي غاية جيوبوليتيكيّة تعتقد بأنّ التركيز على الإرهاب يخدم؟

ـ قبل كل شيء، يشكّل هذا الإصرار الذي لا يلين في رأيي نوعًا من نزوع إجرامي تقريبًا، إذ إنّه يسمح للولايات المتحدة بفعل ما تريده في العالم. خذ على سبيل المثال قصف السودان عام ١٩٩٨. لقد تمّ ذلك لأنّ بيل كلينتون كان يعاني من المشاكل مع مونيكا لوينسكي. كان هناك عذر واه بسماكة الورقة مفاده أنّهم يقصفون مصنعًا إرهابيًّا، تبيّن فيما بعد أنّه مصنع للأدوية ينتج نصف المستحضرات الطبّيّة في البلاد التي وقعت بعد ذلك ببضعة أسابيع في قبضة الطاعون[١٩]. وقد مات المئات من الناس نتيجة للطاعون، لأنّه لم تكن ثمّة أدوية لمعالجتهم بسبب القصف المتعمّد الذي قامت به الولايات المتحدة.

لقد أصبح الإرهاب بمثابة ستار تمّت صناعته منذ نهاية الحرب الباردة على أيدي صنّاع السياسة في واشنطن، شأنهم شأن مجموعة كاملة من الناس من أمثال سامويل هنتنجتون وستيفن إميرسون والذين يملكون حصّتهم من ذلك الإصرار. وقد تمّ فبركة المسألة لإبقاء السكّان خائفين، غير آمنين، ولتبرير ما ترغب الولايات المتحدة فعله على سطح الكوكب. وبهذا فإنّ أيّ تهديد لمصالحها، سواء تمثّلت ببترول الشرق الأوسط أو بمصالحها الجيو ـ استراتيجيّة في أيّ مكان آخر، أصبح يوصم بالإرهاب، وهو بالضبط ما دأب عليه الإسرائيليّون منذ أواسط السبعينيّات فيما يخصّ

المقاومة الفلسطينيّة لسياساتهم. ولعلّه من المثير للاهتمام أنّ كل تاريخ الإرهاب يجد جذوره في السياسات التي انتهجتها الإمبرياليّة، فقد استخدم الفرنسيّون كلمة «الإرهاب» لوصف كل شيء قام به الجزائريّون لمقاومة الاحتلال الفرنسي الذي بدأ عام ١٨٣٠ ولم ينته حتى عام ١٩٦٢. كما استخدم البريطانيّون الفكرة ذاتها في كل من بورما وماليزيا. إنّ الإرهاب هو أيّ شيء يقف في وجه ما نرغب «نحن» في فعله.

وبما أنّ للولايات المتحدة، وهي القوّة العالميّة العظمى الوحيدة، مصالح أو هي تتظاهر بأنّ لها مصالح في كل مكان، من الصين حتى أوروبا وإفريقيا الجنوبيّة وأميركا اللاتينيّة وكامل أميركا الشماليّة، فإنّ الإرهاب يصبح أداة ملائمة لإدامة هذه الهيمنة وتأبيدها. وينظر إلى الإرهاب الآن بوصفه مقاومة للعولمة، وثمّة إصرار على إقامة هذه الصلة. لقد لاحظت، بالمناسبة، أنّ أروندهاتي روي Arundhati Roy قد أقام مثل هذه الصلة أيضًا، حيث أنّ حركات المقاومة التي تقوم بها الشعوب ضدّ الحرمان، ضدّ البطالة أو ضدّ هدر الموارد الطبيعيّة، كل ذلك يتمّ وصمه بالإرهاب[٢٠].

في مثل هذه الدائرة الضارية تندرج مجموعات قليلة مثل جماعة بن لادن وأتباعه، سواء كانوا في العربيّة السعوديّة أو اليمن أو في أيّ مكان آخر. إنّهم يُبالغ في تضخيمهم ونفخهم إلى حدود جنونيّة وعلى نحو لا شأن له بقوّتهم الحقيقيّة ولا بحقيقة حجم التهديد الذي يشكّلونه. وهذا التركيز يرمي إلى التعتيم على الضرر الهائل الذي تلحقه الولايات المتحدة على نطاق عالمي، سواء على الصعيد العسكري أو البيئي أو الاقتصادي، هذا الضرر الذي يبدو أيّ شيء قد يقوم به الإرهاب قزمًا إزاءه.

وأخيرًا، فإنّ القليل من الحديث يدور حول الإرهاب الذي يترعرع في الداخل، إرهاب الميليشيات والجماعات المسلّحة في هذه البلاد مثل جماعة تيموثي ماكفي Timothy Mc Veigh. أتذكّر بوضوح بعد تفجير المبنى الفيدرالي في أوكلاهوما سيتي أنّ مكتبي قد غرق في طوفان من المكالمات الهاتفيّة. وأظنّ أنّ ستيفن إميرسون الذي طالما دُعي خبيرًا في شؤون الإرهاب هو الذي قالها أوّلاً: «إنّ في هذا التفجير كل الخصائص التي تشير إلى الإرهاب الشرق أوسطي»[٢١]، ثم اتصلوا بمكتبي على الفور حيث صادف أنّني كنت في كندا حينذاك. لقد اتصل ما يقرب من ثلاثين شخصًا من وسائل الإعلام، مفترضين أنّني ما دمت من الشرق الأوسط فإنّه ينبغي أن يكون لديّ نوع من الإلهام بخصوص تفجير أوكلاهوما. إنّ تلك الدائرة من العلاقات إنّما

هي مدمّرة على نحو عميق للأفراد من أصل عربي وإسلامي في هذه البلاد، ممّا نجم عنه توظيف كل ما يمتّ إلى الإسلام والمسلمين بصلة كوسيلة لإضعاف الثقة بالآخرين وتشويه سمعتهم خلال الحملة الانتخابيّة في عام ٢٠٠٠. وقد قامت هيلاري كلينتون بإعادة مبلغ خمسين ألف دولار حاول التحالف الإسلامي أن يسهم بها، وهي جماعة تقليديّة جدًّا ومحايدة تمامًا على الصعيد السياسي، وذلك لأنّ فيه نكهة الإرهاب على حدّ قولها[٢٢]. ذلك النوع من النعوت يمكن له أن يكون من نوع التصوير المتطرّف ذاته، ليس للأميركيين الأفارقة واللاتينيين فحسب، وإنّما للأميركيين المسلمين أيضًا.

من الواضح أنّ حملات الحصار الاقتصادي التي تقودها الولايات المتحدة والمملكة المتحدة ضدّ العراق تتقوّض وتفشل. ما الذي يعنيه ذلك؟

ـ لقد فشلوا. ففي المقام الأول، كان الهدف من الحصار الاقتصادي هو إسقاط صدام حسين، وقد أصبح صدام أقوى. ثانيًا: عانى المواطنون العراقيّون من أذى كبير بفضل الولايات المتحدة والمملكة المتحدة. هناك ستّون ألف طفل يموتون كل عام منذ تمّ فرض العقوبات الاقتصاديّة[٢٣]، كما أنّ أعدادًا أخرى لا حصر لها منهم قد أصيبوا بالسرطان والأمراض الأخرى التي تنتقل جينيًّا، ناهيك عن إفقار السكّان كلهم. وقد قدّم اثنان من مسؤولي برنامج الأمم المتحدة للنفط مقابل الغذاء استقالاتهم بسبب حجم اللاإنسانيّة التي تنطوي عليها تلك العقوبات[٢٤].

ثالثًا: إنّ العراق، على عكس ما تصوّره أخيلة صنّاع السياسة الأميركيين، غير موجود في الفراغ. إنّه يشكّل، إلى جانب مصر، واحدة من الدول العربيّة المركزيّة. وقد كان اقتصاده تاريخيًّا مرتبطًا على الدوام باقتصاديات جيرانه، خاصّة الأردن. ما حصل هو أنّ العراق كان يزوّد الأردنيين بالبترول بنصف كلفته، كما أنّ الأردن يتاجر مع العراق. وهناك أنواع أخرى من العلاقات العضويّة بين العراق وجيرانه بما فيها بعض دول الخليج. وهكذا فإنّه ليس من الممكن أن تستمرّ العقوبات على النحو الذي تمّ وضعها على أساسه.

في المحصّلة، نرى كولن باول يسافر عبر الشرق الأوسط خلال شهر شباط وهو يروّج لما يدعى «العقوبات الذكيّة»، وهو الأمر الذي أذهلني بوصفه خطأً كاملاً في

التسمية وخيالاً مرّة أخرى، حين الاعتقاد بأنّه يمكن للولايات المتحدة في الحقيقة أن تدفع بالناس إلى العمل ضدّ مصالحهم الخاصّة بحيث يصطفّون مع الولايات المتحدة[٢٥]. إنّ ذلك لن يحدث، فقد كان الأمر برمّته سياسة كارثيّة عديمة الجدوى. والمفارقة فيه، أنّ قوّة وثروة وبعد الولايات المتحدة هي أمور تجعل الناس غير مدركين لمدى الضرر الذي تمّ التسبّب به باسم الولايات المتحدة. والأسوأ من ذلك هو حجم الكراهية التي تمّ خلقها ضدّ الولايات المتحدة في كامل الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، لا لغرض سوى ضمان استمرار الهيمنة لأقليّة صغيرة ترتبط مصالحها بهذه السياسة الخرقاء وغير الإنسانيّة.

إحدى الدول التي قامت بخرق العقوبات الاقتصاديّة وقامت بإرسال رحلات جويّة إلى العراق هي تركيا. وهي في وضع تشكّل فيه موقعًا للقاعدة الجويّة الأميركيّة الرئيسيّة التي تقصف العراق، وهي أيضًا بلد كان قد قام بغزو شمال العراق لعدّة مرّات في سعيه لمطاردة مقاتلي المقاومة الكرديّة.

ـ وهي البلد الذي تدعمه الولايات المتحدة في سعيه لشنّ حربه ضدّ الأكراد إلى حدّ يجعل ما حدث للألبان في كوسوفو لا يعدو كونه رحلة مدرسيّة في يوم الأحد مقارنة به. ويجب أن لا ينسى أحد أنّ تركيا على تحالف وثيق مع إسرائيل، وهما تقومان بمناورات عسكريّة مشتركة. هناك تحالف عسكري مع الولايات المتحدة ومع إسرائيل، ومع ذلك، وبسبب المصالح الاقتصاديّة والإقليميّة، تقوم تركيا الآن بالإتجار مع العراق وباستيراد النفط منه بوصفه ثاني أكبر مزوّد للنفط في المنطقة. ولا يبدو من غير المحتمل أن يقيم العراق الآن علاقات تجاريّة مع الباكستان.

هل تعتقد بأنّ التحالف العسكري والاقتصادي الذي تقيمه إسرائيل مع تركيا يشكّل جزءًا من استراتيجيّة شاملة ترمي إلى محاصرة العرب؟

ـ كلا، لأنّ مصر جزء من الموضوع. إنّ الهدف ليس الإحاطة بالعرب وإنّما محاصرة ما يُنظر إليه بوصفه دولاً ذات سياسات متعنّتة مثل سوريا والعراق وإيران. إنّه ليس موجّهًا ضدّ العرب، ولكن بالأحرى تجاه تلك الدول التي تبدو مفرطة في عدائها لإسرائيل أو في تعاطفها مع الفلسطينيين. لكنّها سياسة غير عقلانيّة ولا تنمّ عن تفكير، لأنّه في التحليل الأخير، وعلى الرغم من أنّ الجيش هو أكبر مستخدِم في

مصر، وهو بالطبع خاضع لإرادة الحكّام، إلاّ أنّ هذه السياسات لا تحظى بالقبول العام، وهي لذلك لن تدوم. إنّها أشبه بسينغمان ري Syngman Rhee في كوريا الجنوبيّة أو نغوين كاو كاي Nguyen Cao Ky ونغوين فان ثيو Nguyen Van Thieu في فيتنام، لكن صنّاع السياسة لا يتعلّمون أبدًا. إنّهم يعيدون الأخطاء نفسها بنفس الكلفة الإنسانيّة والاقتصاديّة والسياسيّة، وسوف يصرّون على فعل ذلك لأنّ لهم نفس الثقافة والمنظور اللذين يتمّ توارثهما جيلاً بعد جيل.

أجرت الصحافة التركيّة لقاءً مع شيمون بيريز، الحائز على جائزة نوبل ووزير الخارجيّة الإسرائيليّة الحالي، أنكر فيه أنّ الأرمن قد تعرّضوا للإبادة العرقية[٢٦].

ـ إن السياسة التركيّة والسياسة الإسرائيليّة متشابهتان إلى حدّ كبير. ولدى كليهما مصلحة في كبت المعرفة أو الإقرار بما اقترفته الحكومة التركيّة في حقّ الأرمن في بدايات القرن العشرين. سأعطيك مثالاً: في سنة ١٩٨٣ كان هناك برنامج إذاعي إسرائيلي حكومي والذي كان يحاول فهم ما جرى للأرمن[٢٧]. وقد منع بثّ البرنامج فقط لأنّهم استخدموا كلمات «هولوكوست» و«الإبادة العرقيّة» والتي تستخدم في إسرائيل لوصف ما حدث للإسرائيليين وحسب. وما فعله بيريز إنّما يصبّ في خطّ إدامة هذا النوع من السياسة، فعلى نحو يتّسم بالغباء، وبدلاً من محاولة توسيع دائرة الاعتراف والتفهّم لما قد يحدث للشعوب سواء كانوا راونديين أو أرمن أو بوسنيين أو آخرين في أيّ مكان من العالم، حيث حدثت مثل هذه الأشياء الفظيعة وحيث لكل البشر مصلحة في أن لا تحدث مرّة أخرى، فإنّهم يريدون صياغة ذاكرة يجري تركيزها بشدّة على مجموعات معيّنة، وليس على مجموعات أخرى عانت من تلك الكوارث التاريخيّة.

أصدر نورمان فينكلشتين Norman Finkelstein مؤخّرًا كتابًا عنوانه «صناعة الهولوكوست»[٢٨]. ما هو رأيك حيال هذه النظريّة القائلة بأنّ ثمّة ما يمكن تسميته بصناعة هولوكوست؟

ـ أعتقد أنّه مصيب إلى حدّ كبير. هناك جهد مركّز في هذا البلد لتحويل الهولوكوست إلى نوع من الدين الدنيوي، ولجعله موضوعًا للدراسة العلميّة بمعنى خصوصيّته باعتباره جزءًا من التجربة اليهوديّة ومقصورًا فقط على التجربة اليهوديّة،

بينما في الحقيقة يجب النظر إليه باعتباره جزءًا من ظاهرة أوسع بكثير، بما في ذلك الهولوكوست الذي جرى في هذا البلد بحقّ السكّان البدائيين الأصليين. ينبغي أن يضمّ مفهوم الهولوكوست تلك الآلام والعذابات والتجارب الفظيعة التي تعرّض لها الأميركيّون الأفارقة الذين جُلبوا بالملايين ليعانوا من العبوديّة والرقّ. لقد تعرّف فينكلشتين إلى صناعة الهولوكوست بشكل صائب على أنّ لها صلة وثيقة بتكريس القوّة أكثر من كونها ذات صلة بتأكيد الحقيقة التاريخيّة. إنّها ضرب مؤذ ومثير للاستياء لا يكاد يمتّ بصلة إلى المعاناة الحقيقيّة لضحايا الهولوكوست أنفسهم سواء في ألمانيا أو بولندا، وهو أمر ينبغي دراسته كله، لكن ليس ضمن الحدود الضيّقة التي يمكن أن نجدها اليوم في الجامعات الأميركيّة. يجب النظر إليها باعتبارها جزءًا من دراسة أوسع لظاهرة اللاإنسانيّة التي تنطوي عليها البشريّة.

تحدّثتَ في أكثر من مناسبة عن حقّ العودة. هل يحرز الفلسطينيّون أيّ تقدّم إزاء الاعتراف بهذا الموضوع.

ــ إنّ مزيدًا من الناس قد باتوا يدركون أنّ هناك حقًّا للعودة، ولا أعني أن يكون ذلك إلى فلسطين بالضرورة. إنّ حقّ العودة موضوع تنصّ عليه المادّة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة، كما جرى التأكيد عليه في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وفي كل المواثيق الدوليّة، وهو ينصّ على أنّه لا يجوز طرد الناس من بيوتهم أو حتى أن يختاروا مغادرة هذه البيوت ثم لا يعود لهم الحقّ في العودة. هذا هو المبدأ الأساسي. أمّا بالنسبة للفلسطينيين، فإنّ تلك أيضًا مسألة سياسيّة يجب إيضاحها ويتمّ التأكيد عليها بمثابرة. فقد تمّ طيّها جانبًا في عمليّة السلام التي تمّ الاتفاق عليها في أوسلو. إنّ الفلسطينيين يمثّلون الآن أكبر جماعة من اللاجئين، والتي يجري تجاهلها منذ الحرب العالميّة الثانية، والتي لا تزال موجودة ولا يزال بالوسع رؤيتها في مخيّمات اللاجئين.

يمكن لحقّ العودة أن يساهم في جلب الانتباه إلى حالة الفلسطينيين في الدول العربيّة، لبنان وسوريا والدول الأخرى حيث لم يتمّ منحهم حقّ المواطنة وتمّ منحهم حقّ الإقامة والعمل والسفر. وهكذا، فإنّ الفلسطينيين لا يعاملون على نحو مثير للاستياء في إسرائيل وحسب، رغم أنّ إسرائيل هي السبب الرئيسي في حدوث ذلك، ولكن أيضًا في الأماكن الأخرى من العالم العربي. وأنا أميل إلى الاعتقاد بأنّ هذا

يشكّل جزءًا من ظاهرة أوسع تعنى بجلب الانتباه إلى حقّ المهاجرين في دخول بلاد أخرى إذا ما تمّ طردهم من ديارهم. وإذا لم يتمكّنوا من العودة لأسباب سياسيّة أو حسّيّة، فإنّه ينبغي أن يمنح لهم الحقّ في الإقامة حيث هم.

إنّها ظاهرة تمتدّ على كامل الكوكب وتثير اهتمامي بشكل عميق. نحن نعيش في حقبة الهجرة، في زمن السفر القسري والإقامة القسريّة. وهي ظاهرة تضمّ الكوكب بكل ما في الكلمة من معنى. وقد ظهرت نتائج ذلك ليس في إسرائيل وحسب وإنّما في الولايات المتحدة وبريطانيا في سلسلة من أكثر قوانين الهجرة رجعيّة بدافع من أسطورة النقاء العرقي. وقد ادّعت دول مثل إيطاليا والسويد وبريطانيا والولايات المتحدة لنفسها الحقّ بأن تصدّ وتلقي خارجًا بهؤلاء الناس الأقلّ مرتبة والذين ينحدرون من أفريقيا وآسيا على وجه الخصوص. إنّ المبدأ هو نفسه، سواء كان لا يسمح للناس بالعودة إلى ديارهم في فلسطين أو أنّه لا يسمح للناس بإيجاد أوطان جديدة في دول مثل لبنان أو الولايات المتحدة أو السويد، لأنّهم يعتبرون غرباء أو أجانب. ولعلّ المفهوم المتعلّق بمن هو الغريب ومن هو الأجنبي ومن هو المواطن يجب أن يخضع بمجمله لإعادة النظر، ليشمل أقدار الشعوب التي جرى إبعاد أسلافها والناس الذين قدموا وأصبحوا بالقوّة مستوطنين مقيمين في بلدان مثل إسرائيل والولايات المتحدة. إنّها ظاهرة شاملة وتحتاج إلى إعادة النظر بشكل عاجل وبطرق آمل أن تتمكّن حركة الحقّ الفلسطيني في العودة من أن تكون تعبيرًا دراميًّا عنها.

إنّك تمارس التدريس لما ينوف على الثلاثين عامًا الآن. أيّة معرفة تحاول أن تنقل لطلابك؟ وكيف تغرس في نفوسهم نوعًا من التفكير النقدي؟

ــ ذلك صعب. فنحن نعيش في عصر المعلومات التي تتخذ شكل الحزم والسلع والتي يمثّل الإعلام نموذجًا لها، بل حتى الشبكة المعلوماتيّة. يمكنك أن تحصل على موضوعات مطبوعة تحمل ريح نوع معيّن من السلطة والإطلاق، والتي يبدو لي أنّ العقل النقدي ملزم بإعادة استنطاقها ومساءلتها. بالنسبة لي، وقبل كل شيء، واجب المعلّم أن يعطي المعلومات والمعرفة، وأن يعرّض الطلاب إلى أشياء لم يكونوا يعرفونها من قبل. أنا أدرّس الأدب بشكل أساسي والفلسفة. وهناك عدد هائل من الكتب والمؤلّفين الذين يستحقّون أن يُعرفوا والذين أحاول حثّ الناس على قراءتهم. كما أنّني أحاول أن أدرّب الناس على كيفيّة القراءة.

ثانيًا: أنا أعلّم الناس كيف يقرأون بشكل نقدي، وهو أن يكون بوسعهم ليس فقط أن يروا الكتاب بما هو ببساطة، مجرّد كتاب، ولكن أن يضعوه ضمن سياقه، أن يفهموا كيف تمّ إنتاجه، وأن يفهموا أن لا شيء يحدث هكذا بالصدفة. إنّه فعل اختيار، بل سلسلة من الاختيارات والإجراءات والتي يخضع لها كل من الكتّاب والمجتمعات. ثالثًا: أنا أحاول أن أري طلابي كيف تمثّل هذه الكتب أجزاءً ممّا يمكنك تسميته شبكات من المفاهيم والمعلومات والمعرفة التي يجب على الطلاب أيضًا أن يهضموها ويتحدّوها ويستوعبوها، وأن يقوموا أيضًا بتمحيصها على نحو نقدي لكي يفهموا كيف، قل، كيف يمكن لرواية باللغة الإنجليزيّة أن تكون ذات صلة برواية بالفرنسيّة أو برواية إنجليزيّة كتبها شخص غير إنجليزي في إفريقيا أو الكاريبي أو أميركا. النقطة التي أرغب في أن يصل إليها طلابي هي أنّ المعرفة والقراءة لا يتمّ استنفادهما أبدًا. إنّهما دائمًا في حالة استمراريّة. وهما يحتاجان إلى مقدار من الاستنطاق لا حدّ له، ومن الاستكشاف والتحدّي. وإذا لم أحقّق نجاحًا على أيّ صعيد آخر، فإنّ غرس بذرة عدم الاكتفاء والمساءلة الدائمة فيهم، والتي لا تلغي في الوقت نفسه ذائقة متعة القراءة والتعلّم، هي في الجوهر ممّا أفعله.

هل دور المثقّف هو المعارضة بالتحديد؟

ـ في هذا المجتمع أظنّ أنّ الأمر ينبغي أن يكون كذلك. أنا شديد الإيمان بوعي الفرد، وهذا هو الأصل في كل الجهد الإنساني. لا يمكن للفهم الإنساني أن يحدث على مستوى جمعي إلاّ بعد أن يحدث أوّلاً على المستوى الفردي. لكن وعي الفرد في عصرنا قد جرى قصفه، إن لم نقل أيضًا خنقه بواسطة كمّيّات هائلة من المعلومات المنظّمة والمحزومة، والتي تهدف أساسًا إلى توليد نوع من القبول وعدم المساءلة والسلبيّة الجمعيّة. إنّنا نخضع معظم الوقت إلى قصف كيانات تطلب منّا أن نستسلم لها ونشتريها في النهاية سواء عبر الأخبار أو البضائع أو السفر أو أيّ شيء.

لقد بات كل شيء محزومًا ومغلّفًا وجاهزًا للبيع. هذا هو معنى اقتصاد السوق الحرّ الجديد الذي سوّقته العولمة على العالم خفية، غير تاركة سوى حيّز صغير للتحدّي الفردي والمساءلة. بينما المنظّمات الضخمة، سواء كانت حكومات أو مؤسّسات، تتبنّى سياسات عمياء في كثير من المجالات متسبّبة في حدوث دمار بيئي واسع ودمار جيني شديد الشمول، وموفّرة للجماعات القويّة إمكانيّة جني الأرباح دون

أيّة مسؤوليّة. ضمن هذا الإطار، فإنّ دور المثقّف هو أن يعارض، وأنا أفكّر بهذا على أنّه دور نحتاجه بشكل قطعي، بل بشكل يائس. أنا لا أقصد أن يتمّ ذلك بطريقة سخيفة وسلبيّة.. فأنا أقف ضدّ ذلك. ولكنّني عندما أكون معارضًا فإنّ بوسعي أن أمحّص وأن أحكم وأن أنتقد، وأن أختار على نحو يجعل من الاختيار والمداخلة أمرين يعودان إلى الفرد. إنّ من المهمّ أن تكون جزءًا من كل آخر، من مجتمع لا يمتلك اهتمامات محزومة سلعيّة وأهدافًا تجاريّة مربحة ماثلة نصب عينيه. إنّ تلك أهداف صعبة التحقيق، لكنّني أظنّها، مع ذلك، ممكنة التحقيق.

الهوامش

(1) Melissa Radler, «US Blocks Israel at UN, Opposes International Monitors,» *Jerusalem Post*, August 21, 2001, p. 1.

(2) See chapter 2, note 5 above.

(3) Deborah Sontage, «Death and Daily Life Link Arab and Israeli,» *New York Times*, May 2, 2001, p. A11.

(4) The text of the ad (The Big Lie Is Still Alive) is available online at: http://www.ajc.org/InTheMedia/AdvertisementsDetail.asp?did=201&pid=699.

(5) Sam Kiley «Israeli Rabbi Calls on God to Annihilate Arabs,» *The Times* (London), April 10, 2001.

(6) See, among other reports, Serge Schmemann, «Arafat Remains Defiant Amid Rubble of His Compound,» New York Times, September 22, 2002, p. 1:8.

(7) Tracy Wilkinson, «Palestinian Towns Wobbling on Last Legs,» *Los Angeles Times*, December 30, 2002. See also Sara Roy, «Decline and Disfigurement: The Palestinian Economy After Oslo,» in *The New Intifada: Resisting Israel's Apartheid*, ed. Roane Carey (New York: Verso, 2001), and Stephen Farrel, «Dying for Work: Five Pay Price at Gaza,» *The Times* (London), December 14, 2002.

(8) Associated Press, «Vermont Ice Cream Maker in Middle East Controversy,» September 24, 1998.

(9) See, for example, the scurrilous article by Justus Reid Weiner, «The False Prophet of Palestine,» *Wall Street Journal*, August 26, 1999, p. A18.

(10) Edward W. Said, *Orientalism* (New York: Pantheon Books, 1978), p. 27.

(11) See Charles Glass, «The First Casualty: A Newspaper Proprietor Should Champion, Not Censor, His Writers,» *The Observer*, March 18, 2001, p. 27.

(12) Maya Jaggi, «Edward Said: Out of the Shadows,» *The Guardian* (London), September 11, 1999, p. B3.

(13) See Karen W. Arenson, «Columbia Debates a Professor's 'Gesture',» *New York Times*, October 19, 2000, p. B3.

(14) See Danitia Smith, «Freud Museum Speaking Ban Sparks Said Fury,» *The Observer* (London), March 11, 2001, p. 21.

(15) Jessica Benjamin et al., Letter to the Freud Society of Vienna, *London Review of Books* 23: 6 (March 22, 2001). Available online at http://www.lrb.co.uk/v23/n06/letters.html.

(16) Smith, «Freud Museum Speaking Ban Sparks Said Fury,» p. 21.

(17) Robert Fisk, «I Am Being Vilified for Telling The Truth about Palestinians,» *The Independent* (London) December 13, 2000, p. 5.

(18) Marc Lacey, «Attacks Were Up Last Year, U.S. Terrorism Report Says,» *New York Times*, May 1, 2001, p. A14.

(19) See James Risen, «To Bomb Sudan Plant, or Not: A Year Later, Debates Rankle,» *New York Times*, October 27, 1999, p. A1, and Tim Weiner and Steven Lee Mayers, «U.S. Notes Gaps in Data About Drug Plant but Defends Attack,» *New York Times*, September 3,1998, p. A6.

(20) Arundhati Roy, Interview with David Barsamian, *The Progressive* 65: 4 (April 2001). See also Arundhati Roy, *Power Politics*, 2nd ed. (Cambridge: South End Press, 2001).

(21) See Felicity Barringer, «Terror Experts Use Lenses of Their Specialties,» *New York Times*, September 24, 2001, p. C1.

(22) Dean E. Murphy, «Mrs. Clinton Says She Will Return Money Raised by a Muslim Group,» *New York Times*, October 26, 2000, p.A1.

(23) See Anthony Arnove, ed., Iraq Under Siege: *The Deadly Impact of Sanctions and War*, 2nd ed. (Cambridge: South End Press, 2002), p. 79.

(24) Arnove, *Iraq Under Siege*, p. 47.

(25) John F. Burns, «Iraq Defiant as U.S. Lobbies Arabs on Shift in Sanctions,» *New York Times*, February 25, 2001, p. 1: 4.

(26) Robert Fisk, «Press Stands Accused Over Denial of 'Meaningless' Armenian Holocaust,» *The Independent* (London), April 18, 2001, p. 13.

(27) Edward W. Said, *The Politics of Dispossession: The Struggle for Palestinian Self-Determination, 1969-1994* (New York: Pantheon Books, 1994), p. 253.

(28) Norman Finkelstein, *The Holocaust Industry: Reflections on the Exploitation of Jewish Suffering* (New York: Verso, 2000).





أصول الإرهاب

KGNU, Boulder, Colorado, September 24, 2001

أصابت أحداث الحادي عشر من سبتمبر العديد من الأميركيين بالحيرة والارتباك. من أين تظنّ أنّه يمكن البدء لتزويد الناس ببعض الفهم حول السياق والخلفيّات التي من الممكن أن تكون الدافع وراء ما قام به الطيّارون الانتحاريّون؟

ـ بوصفي نيويوركيًّا أقول إنّها كانت حادثة مروّعة تبعث على الصدمة، خصوصًا من حيث حجمها. فقد تمّ تصميمها لتصدم وتروّع وتحدث قدرًا هائلاً من الشلل وأشياء مريعة أخرى أرى أنّه لا يمكن التماس العذر لها. لكنّ العمليّة مع ذلك تبدو بكل وضوح حصيلة لقدر وافر من التخطيط إلى جانب التنفيذ البارع، أو اللامع، كما يحلو للبعض أن يسمّيه. والأمر في باطنه إنّما هو رغبة في إيقاع الضرر. وبالوسع القول إنّ العمليّة لم تكن تتوجّه إلى أهداف عشوائيّة تمامًا، لأنّها استهدفت رموزًا مثل مركز التجارة العالمي، قلب الرأسماليّة الأميركيّة، والبنتاغون حيث مكاتب إدارة المؤسّسة العسكريّة الأميركيّة. لكنّها لم تكن ترمي إلى إثارة أيّ جدل أو حوار. لم يكن ما تمّ جزءًا من أيّة مفاوضات. ومن الواضح أنّ النيّة لم تكن تتجه إلى إبلاغ أيّة رسالة عبر العمليّة. لقد تحدّث الحدث عن نفسه وهو أمر غير عادي.

أعتقد أنّ الحادثة قد جاءت في أعقاب جدل طويل حيال تورُّط الولايات المتحدة في الخارج والذي امتدّ عبر القرن الماضي برمّته. وشمل ذلك التدخّل في شؤون العالم الإسلامي والدول المنتجة للبترول والعالم العربي والشرق الأوسط، كل تلك المناطق التي يجرى النظر إليها بوصفها أساسيّة لصيانة المصالح والأمن الأميركيين. تلك المصالح التي تضمّ البترول والقوّة الاستراتيجيّة معًا، إضافة إلى إيجاد موطئ

قدم للولايات المتحدة في الخليج الفارسي والسيطرة عليه وحماية حلفاء الولايات المتحدة من أمثال إسرائيل والعربيّة السعوديّة وآخرين. وخلال كل هذا الجدل الذي واكبته سلسلة من التدخّلات المستمرّة، لعبت الولايات المتحدة دورًا بارزًا بالنسبة لسكّان تلك المنطقة، وهو دور أظنّ أنّه قد جرى حجبه عن معظم الأميركيين أو أنّهم لم يكونوا مدركين له.

من المهمّ أوّلاً وقبل كل شيء فهم أنّ ثمّة عالمين هنا: عالم الناس الذين يعيشون في تلك البيئة هناك، وعالم الناس الذين يعيشون في الولايات المتحدة، وثمّة القليل ممّا هو مشترك بينهما في الحقيقة. لم يكن هناك أبدًا قدر من التماس المباشر بين هذين العالمين مثل ذلك الذي كان، على سبيل المثال، بين بريطانيا العظمى والعالم الإسلامي بما في ذلك أفغانستان، وكذلك بالطبع مع الخليج والهند، ـ ومع العراق مثلاً. وقد ظلّت الولايات المتحدة على الدوام محتمية خلف بعدها الشاسع عن المكان، بما في ذلك وجود المحيط الأطلسي والبحر المتوسط والصعوبة البالغة في الوصول إلى هناك. وثمّة أيضًا حاجز آخر كان ماثلاً على الدوام، وهو بالطبع، حاجز اللغة والدين.

هذه منطقة من العالم يعيش فيها ١,٢ بليون مسلم، لنقل إنّها تبدأ من البوسنة وتمتدّ شرقًا عبر كل وسط آسيا ثم تنحدر إلى الشرق الأوسط والباكستان وبنغلادش وإندونيسيا في الشرق ثم الدول العربيّة في المنتصف، وعبر كل الشمال الإفريقي المسلم في غالبيّته. وفيها ينظر إلى الولايات المتحدة من منظورين مختلفين تمام الاختلاف، أحدهما يتوجّه إلى الولايات المتحدة الرسميّة، الولايات المتحدة ذات الجيوش والتدخّلات كما حدث عام ١٩٥٣ عندما أطاحت بحكومة محمد مصدق الوطنيّة في إيران وأعادت الشاه إلى سدّة الحكم، الولايات المتحدة التي تورّطت أوّلاً في حرب الخليج ثم بإلحاق الضرر المدمّر والمدمّر جدًّا بالمدنيين، عن طريق فرض العقوبات الاقتصاديّة ضدّ العراق. الولايات المتحدة التي تمثّل المساند الأكبر لإسرائيل ضدّ الفلسطينيين، أوّلاً عبر إنشاء الدولة عام ١٩٤٨ ثم في احتلال عام ١٩٦٧ وخلال الحرب اللبنانيّة حين قامت إسرائيل بغزو لبنان عام ١٩٨٢، وكذلك خلال انتفاضتي عام ١٩٨٧ وعام ٢٠٠٠، والولايات المتحدة التي تمدّ إسرائيل بكمّيّات ضخمة من الأسلحة. وهكذا، فإذا ما كنت تعيش في المنطقة، فإنّك تنظر

إلى كل هذه الأشياء باعتبارها جزءًا من سعي دؤوب نحو الهيمنة مقرون بنوع من القمع العنيد والمستمرّ لآمال وأماني وطموحات الناس هناك.

أعتقد أنّ معظم العرب والمسلمين يشعرون بأنّ الولايات المتحدة لم تبد في الحقيقة أيّ اهتمام برغباتهم، وإنّما دأبت على ممارسة السياسات التي تخدم مصالحها الخاصّة دون أن تبذل أثناء ذلك أيّة محاولة لتبرير تلك السياسات بشكل ما أو لتوضيح ماهيّتها. وهي فوق كل شيء، تواصل انتهاج هذه السياسات دون العودة إلى أيّ من المبادئ التي تزعم الولايات المتحدة أنّها حكر عليها وحدها مثل: الديمقراطيّة وتقرير المصير وحرِّيَّة التعبير وحرِّيَّة الاجتماع والالتزام بالقانون الدولي. إنّ تبرير احتلال الضفّة الغربيّة وغزّة مثلاً، والذي مضى عليه أربعة وثلاثون عامًا هو أمر في غاية الصعوبة، وكذلك وجود المائة والأربعين مستوطنة وما يقدّر بأربعمائة ألف مستوطن تمّ جلبهم بدعم وتمويل من الولايات المتحدة، بحيث نقول بعد ذلك إنّ هذا يمثّل جزءًا من التزام الولايات المتحدة بالقانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة.

وهكذا، فإنّ كل ذلك يمثّل سجلاً لا يني يتعاظم في المنطقة حيث ــ وهنا نأتي إلى الجانب المحزن من المسألة ــ قامت أميركا بدعم حكّام المنطقة ضدّ تطلّعات شعوبهم. ثمّة إحساس عامّ بأنّ الولايات المتحدة تنتهك مبادئها الخاصّة في سبيل الحفاظ على بقاء وديمومة مثل هذه الحكومات والأنظمة في السلطة، بينما هي في الحقيقة لا تلقي بالاً إلى العدد الهائل من الناس الذين تحكمهم هذه الأنظمة.

الحصيلة هي ما يشبه الصورة الفصاميّة للولايات المتحدة. كل العرب والمسلمين الذين عرفتهم يبدون اهتمامًا بالغًا بالولايات المتحدة، والكثيرون منهم يرسلون أبناءهم إلى هنا للدراسة، ويأتي الكثيرون منهم إلى هنا لقضاء الإجازات، والبعض يقومون ببعض الأعمال أو يأتون للتدرّب. إنّهم مدركون تمامًا أيّة بلاد غير عاديّة تمثّل هذه البلاد من ناحية، ومن الناحية الأخرى، ثمّة الجانب الآخر، وهو الشعور بأنّ حكومة الولايات المتحدة شيء مختلف وأنّها غير منفتحة على ما يقتضيه الضمير واللياقة والقانون الدولي. والآن، ومع وجود هذه الصورة التي هي أقرب إلى مزيج متهوّر من ممارسة العنف والسياسات التي لا تتمتّع بأيّ قبول جماهيري على الإطلاق، فإنّه ليس صعبًا على الديماغوجيين، خاصّة أولئك الذين يزعمون التحدّث

باسم الدين ـ وهو الإسلام في هذه الحالة ـ أن يشنّوا حملة عنيفة ضدّ الولايات المتحدة، وأن يرفعوا الشعارات ويقولوا بأنّنا ينبغي أن ندفع عن أنفسنا أذى هذه السياسة وأن نعمل على إسقاط أميركا. علينا في المقام الأوّل أن نقاوم وثانيًا علينا أن نقاتلهم في ديارهم.

ولا تنس أمرًا ينطوي على مفارقة، وهو آخر نقطة يجب إيضاحها، وهو أنّ الكثير من هؤلاء الناس، بما فيهم أسامة بن لادن وطالبان الأفغان كما هو حال المجاهدين، وهم المقاتلون من بينهم، كانت الولايات المتحدة قد دعمتهم وغذتهم في مطالع الثمانينيّات إبان الغزو السوفياتي لأفغانستان، في وقت ساد اعتقاد بأنّ حشد الإسلام في مواجهة الشيوعيّة الملحدة سيجلب في ركابه عواقب وخيمة، وهو ما حدث في الحقيقة. وأذكر أنّ مجموعة من المجاهدين قدموا إلى واشنطن عام ١٩٨٦ وحيّاهم الرئيس ريغان داعيًا إيّاهم «مقاتلو الحرّيّة»[١].

كانت هذه هي اللازمة التي تردّدت لوقت طويل، ثم نجم ذلك الشعور بالخديعة الذي يحسّ به الكثيرون من المسلمين العاديين الذين يعيشون، كما أقول، في ظروف من الفقر واليأس، حيث اليأس هو الشعور المسيطر، ـ اليأس والجهل. ولن يكون صعبًا في حال كهذه تعبئة الناس باسم الإسلام. إنّ هؤلاء الوعّاظ، بالمناسبة، هم أناس قد عيّنوا أنفسهم بأنفسهم ليتحدّثوا باسم الإسلام الذي لا يمثّلونه بأيّ شكل من الأشكال، فهم ليسوا أئمّة ولا شيوخًا بل هم نصّبوا أنفسهم للقتال دفاعًا عن الإسلام. وفي حالة أسامة بن لادن على وجه الخصوص، وهو سعودي الجنسيّة، فإنّه رجل يشعر بأنّه وطني لأنّ القوّات الأميركيّة تتواجد في السعوديّة المقدّسة لكونها بلد النبي محمد، وهو يشعر بأنّ من واجبه أن يشرع بمقاومة عنيفة ضدّ الولايات المتحدة وأن ينقلب على الناس الذين جلبوها إلى هناك. ثم هناك ذاك الشعور الغامر بالانتصار، حيث يشعر الناس بأنّ بوسعهم أن يحقّقوا نجاحات ما داموا قد هزموا الاتحاد السوفياتي. من كل ذلك، من ذلك الشعور بالقنوط إلى جانب الدين المرضي، يأتي كل ذلك الميل الغامر إلى الإيذاء والإيلام دون اعتبار للأبرياء ومَن لا دخل لهم كما كان الحال عليه في أحداث نيويورك.

إنّ الحاجة إلى فهم كل ذلك لا تعني بالطبع التسامح معه بأيّ حال من الأحوال. لكنّ الذي يخيفني حدّ الرعب هو أنّنا ندخل طورًا هنا، حيث التحدّث عن هذا الأمر

بوصفه شيئًا يمكن فهمه تاريخيًّا دون أيّ تعاطف أو تسامح معه، سوف يتمّ منعه واعتباره أمرًا منافيًا للانتماء الوطني، وذلك أمر في منتهى الخطورة. لقد أصبح لزامًا على كل مواطن أن يفهم تمامًا طبيعة العالم الذي نعيش فيه والتاريخ الذي لسنا جزءًا منه وحسب، ولكنّنا نشارك في صياغته بطرق كثيرة بوصفنا قوّة عظمى.

في مقالتك التي نشرت في لندن أوبزيرفر تحت عنوان «الإسلام والغرب ليسا شعارين مناسبين» تقول بأنّ انجراف الولايات المتحدة نحو الحرب يشبه إلى حدّ كبير مطاردة الكابتن أهاب لموبي ديك[٢]، ما الذي كان في ذهنك حين كتبت ذلك؟

ـ كان الكابتن أهاب في رواية ملفيل الرائعة «موبي ديك» رجلاً يتملّكه هوس غامر بمطاردة الحوت الأبيض الذي ألحق به الأذى والذي مزّق رجله، حتى ولو إلى أقاصي الأرض وبغضّ النظر عمّا يمكن أن يحدث[٣]. وفي المشهد الأخير من الرواية، نرى الكابتن أهاب وقد تمّ وضعه هناك في عراء البحر وقد التفّ حبل حربته على الحوت الأبيض، حيث يبدو واضحًا أنّه ذاهب إلى حتفه. إنّه مشهد يمثّل نهاية انتحاريّة على وجه التقريب. وأظنّ أنّ الحكومة بهذا الحثّ للشعب الأميركي ولفّ الحبل عليه، تبدو منغمسة في غمرة انسياق مشابه نحو الانتقام لأسباب مفهومة تمامًا، وهو ما يمكن وصفه بضربة هائلة جرى توجيهها للولايات المتحدة. ما من شكّ في أنّ مقدارًا كبيرًا من الأذى والخسارة الفادحة قد لحقا بنا كشعب وكأمّة،لكن كل ما يجري من تصاعد موجة الحرب والانتقام والحديث عن إحضار المطلوب إلى العدالة و«مطلوب حيًّا أو ميتًا»، وكل العبارات التي قالها جورج بوش على الملأ، كل ذلك يوحي بوجود توجّه مدروس ومنظّم باتجاه إحضار الرجل للعدالة وفقًا للأعراف الدوليّة، لكنّه يعني في واقع الأمر شيئًا أقرب إلى سفر الرؤيا أو شيئًا من نوع وحشيّة المجرم ذاتها.

أعتقد بأنّ ذلك يدفع بالأمور إلى المزيد والمزيد من السوء، لأنّ هناك دائمًا عواقب. ويبدو لي أنّ منح بن لادن-الذي تمّ تحويله إلى شيطان، بل تمّ تحويله في الواقع إلى موبي ديك، وأصبح يمثّل كل ما هو شرّير في العالم ـ، إنّ منحه نوعًا من الحجم الأسطوري هو في الحقيقة انخراط في اللّعب على طريقته. إنّني أعتقد بأنّنا ينبغي أن ننزل بالرجل إلى الأرض. إنّنا نحتاج إلى أن نهبط به إلى مملكة الواقع وأن نعامله كمجرم وكشخص ديماغوجي أطلق العنان لممارسة العنف المنافي للعرف ضدّ أناس أبرياء وأن نعاقبه على أساس ذلك. إنّنا لا يجب أن نهدم العالم على رأسه

وعلى رؤوسنا إذا لزم الأمر، وإنّما يجب أن نتعامل معه كما يتعامل المرء مع أولئك الذين اقترفوا جرائم بشعة. إنّ الأميركيين يشعرون الآن بأنّهم في حالة حرب مع الإسلام. ورغم دعوات الرئيس والعمدة جيولياني والآخرين الذين قالوا بأنّنا لا نخوض حربًا مع الإسلام، فإنّ الحقيقة هي أنّك أنّى نظرت من حولك في هذا المجتمع، فإنّك ترى العشرات، بل المئات من الحوادث التي جرت ضدّ المسلمين أو مَن يبدون كمسلمين في أعين منفّذي هذه الاعتداءات[٤]، وثمّة قصّة الرجل من طائفة السيخ الذي قتل في أريزونا وآخرين تعرّضت ممتلكاتهم للاعتداء[٥].

لقد تمّ قتل رجل باكستاني في تكساس[٦].

ـ نعم، وقد شعر الكثيرون في نيويورك بوطأة الأحداث، وتعرّض الكثيرون لزيارات الشرطة والمباحث الفيدراليّة لأنّ لهم أسماء شرق أوسطيّة.. وهكذا، وإذن، فإنّ هناك مناخًا من التعبئة، بل من الرعب المتصاعد ونوعًا من جنون الارتياب الذي لا يليق ببلد هو في حالة حرب مع عدوّ غير عادي وهلامي بلا شكل يدعى أسامة بن لادن والإسلام. إنّني أعتقد حقيقة بأنّ الإعلام قد لعب دورًا مهمًّا في ذلك بإصراره على نشر الصور ذاتها مرّة تلو الأخرى، وعن طريق إسباغ صفة الشيطان والإلحاح على شيء لا يتجاوز كونه فكرة. وبهذه الرغبة والاندفاع نحو نقل ما يحدث، فإنّ الإعلام قد سقط ببساطة في فخّ المناخ السائد ودفع بدوره الناس إلى إطلاق أحكام أبعد شأوًا وإلى مزيد من الفعل الذي أعتقد بأنّه متسرّع على نحو مريع، والذي سينتج فيما أرى مشكلات أكثر من تلك التي يحلّها.

يبدو أنّ ثمّة نمطًا يحكم أسلوب العمل هنا كما أشرت. أوّلاً: في السبعينيّات تمّ إسباغ صفة الشيطان على عرفات ومنظمة التحرير، وبعد ذلك على آية الله الخميني ثم معمّر القذّافي وصدّام حسين.. والآن أسامة بن لادن.

ـ هناك هذا الأمر بالتأكيد. كما أنّ هناك، على الأقلّ في حالة صدّام وأسامة بن لادن، عدم رغبة بالتصريح باشتراك الولايات المتحدة في صعود هؤلاء إلى السلطة. ليس فقط على النحو الذي أوضحته في حالة بن لادن، ولكن أيضًا في حالة صدّام الذي قامت بتغذيته الولايات المتحدة في مواجهة إيران، كما منحته الولايات المتحدة الكثير من الأسلحة والدعم في الفترة التي سبقت احتلاله للكويت.

لكن أكثر ما يقلق في كل هذا، كما تعلم، هو غياب محاولة التحليل والتأمّل بدلاً من محاولة إيجاد الاختلافات والتعريفات. أعني خذ كلمة «إرهاب» على سبيل المثال. لقد أصبحت كلمة «إرهاب» الآن مرادفًا لمفهوم المعاداة للأمريكانيّة، والذي أصبح بدوره مرادفًا لكون المرء منتقدًا للولايات المتحدة، والذي أصبح بدوره مرادفًا لكون المرء غير وطني. إنّ تلك سلسلة من المعادلات غير المقبولة، وأظنّ أنّ ما نحتاج إليه هو أن نعود، على سبيل المثال، إلى الحوارات التي جرت في الأمم المتحدة في السبعينيّات حول تحديد ماهية الإرهاب. أعني أنّه ليس بوسعك أن تقول عن المجاهدين في أفغانستان عام ١٩٨٠ وهم يقاتلون السوفيات بأنّهم كانوا «مقاتلي الحرِّيَّة»، ثم تقول الآن بأنّهم إرهابيُّون، لأنّهم يحاولون مقاومة غزو الدول الأخرى لأفغانستان. في هذا الأمر بالتحديد يبدو أنّ هناك حربًا غير معلنة أو شبه معلنة ضدّ طالبان الذين يمثّلون جماعة غير جذّابة بأيّ شكل من الأشكال كما تعلم. أعتقد أنّ تعريف الرهبة والإرهاب ينبغي أن يكون أكثر دقّة وتحديدًا بحيث نكون قادرين، ما دمنا نمتلك كل هذه القوّة كأمّة، على التفريق، مثلاً، بين ماهية ما يقوم به الفلسطينيّون لمقاومة الاحتلال العسكري الإسرائيلي الذي ما زال قائمًا منذ حوالى خمسة وثلاثين سنة وبين الإرهاب من النوع الذي نجم عنه تدمير مركز التجارة العالمي. ثم هناك إلى جانب ذلك إرهاب الدولة.

قال لي الناشط والمفكّر الباكستاني المعروف إقبال أحمد ذات مرّة إنّ الإرهاب يمثّل قاذفة بي ــ ٥٢ بالنسبة للفقير[٧].

ــ أعتقد ذلك صحيحًا بالتأكيد على أحد المستويات، بمعنى أنّ أسلحة الضعيف يمكن لها أن تكون من هذا النوع، وأنا لا أتحدّث الآن عن مستوى ما حدث في مركز التجارة العالمي. أرغب التمييز بين هذا النوع من الإرهاب وبين ذاك الذي يجعل، على سبيل المثال، شابًّا من غزة يعيش تحت أكثر الظروف إرهابًا -الاكتظاظ السكّاني والفقر والجهل والجوع، والذي معظمه، ربما تسعين بالمائة منه، فرضته إسرائيل كجزء من إفرازات احتلالها وسياسات الحصار التي تنتهجها ضدّ الفلسطينيين ــ، يجعل ذلك الشاب يلفّ الديناميت حول جسده ويلقي بنفسه في جمع من الإسرائيليين. إنّني لم أتعاطف أبدًا مع ذلك أو أوافق عليه، لكنّه أمر يمكن فهمه على الأقلّ بوصفه نتيجة لانفعال كائن بشري يحسّ بنفسه ملقى به خارج الحياة ومنعزلاً

عن كل ما يحيط به، عن مواطنيه وعن الفلسطينيين الآخرين وعن والديه وأخواته وإخوته، والذين يموتون أو يتعرّضون للإيذاء، فيرغب بأن يردّ الضربة. إنّ ذلك يمكن فهمه بوصفه سلوكًا يقوم به شخص يائس يحاول أن يحرّر نفسه/ أو نفسها ممّا يعتقد بأنّه ظروف أمليت عليه على نحو غير عادل. إنّه شيء لا أوافق عليه، لكنّني على الأقلّ يمكن أن أفهمه.

إنّنا نتحدّث الآن عن شيء مختلف، لأنّ هؤلاء الناس ليسوا يائسين وليسوا سكّان مخيّمات لاجئين كما هو واضح. إنّ الذين نفّذوا الهجوم على مركز التجارة العالمي وعلى البنتاغون ينتمون إلى الطبقة الوسطى كما يظهر، وهم متعلّمون كفاية بحيث يستطيعون الالتحاق بمدرسة للطيران في فلوريدا ويستطيعون التحدّث بالإنجليزيّة. إنّ ما نتحدّث عنه الآن يتجاوز السياسي ويدخل في منطقة الميتافيزيقي، وهي قفزة أظنّ بأنّ المرء ينبغي أن يتأمّل فيها بسبب من أهمِّيَّتها البالغة، لأنّها تكشف عن النوعيّة الكونيّة ــ وربّما أقول أيضًا، النوعيّة الدوغماطيّة المتزمّتة ــ التي تسم العقول التي تعمل هنا. إنّهم يرفضون، بل لا يعيرون أدنى اهتمام للدخول في أيّ حوار أو الانضمام إلى أيّة حركة سياسيّة أو ممارسة إقناع من النوع الذي يفضي إلى تغيير سياسي وتحسين في وضع المرء في مقابل هذا الشيء الذي يتبنّونه، وهو الدمار الذي تتسبّب به عقول دمويّة، لا لسبب سوى القيام به فحسب. تذكر أنّه لم يكن ثمّة دعوى وراء هذا القصف الإرهابي. لم تكن هناك رسالة سياسيّة خلفه. لم تكن هناك أيّة مطالب، ولم تكن هناك تصريحات. لقد كان قطعة من الإرهاب الأخرس الذي تمّ تسليطه على الناس دون تمييز ولا مفاوضات. ولا أستطيع القول هنا بأنّ هذا هو قاذفة بي ــ ٥٢ الخاصّة بالفقير.

لكنّني أودّ أن أضيف أيضًا بأنّ بعض الأشياء التي فعلتها قوى مثل بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا ضدّ شعوب أضعف منها، مثل قصفهم من الجوّ حيث لا يستطيع شعب أعزل بالأساس الوصول إلى القاصف، هي أيضًا أمور لا يمكن التماس عذر لها. إنّ هذا بالضبط هو ما يفعله الإسرائيليّون في الضفّة الغربيّة وغزّة وهم يستخدمون طائرات ف ــ ١٦ لمهاجمة منازل الفلسطينيين الذين هم عزّل تمامًا - ليس ثمّة جيش فلسطيني ولا سلاح جوّ ولا قدرة على التصدّي للطائرات-. وأظنّ أنّ لذلك أيضًا بنية الإرهاب. إنّ القصد منه هو فرض الرعب، وهو يجري بلا قيود

وليس ثمّة فرصة لنجوم ردّة فعل. إنّه تدمير واضح تمامًا لأجل التدمير وإرهاب الناس وحسب. وهكذا، فإنّنا نعيش في منطقة حيث الكثير من الأشياء غير السارّة نقوم بها نحن ويقومون بها هم، بغضّ النظر عمّن نكون نحن وهم، وكل منّا يشبه الآخر إلى حدّ كبير.

مرّة أخرى. علّق إقبال أحمد قائلاً: «إنّ الإرهاب الثوري إذا ما تمّ اللجوء إليه يجب أن يكون انتقائيًا على الصعيدين الاجتماعي والسيكولوجي.. لا تختطف طائرة... لا تقتل الأطفال»، ثم أضاف إنّ «الثورات العظيمة، الصينيّة والفيتناميّة والجزائريّة والكوبيّة لم تستخدم أبدًا نوع الإرهاب المتعلّق باختطاف الطائرات«[٨].

ـ تلك الثورات لم تفعل ذلك، ومن المهم تذكّر أنّها جاءت في وقت أبكر قليلاً من مرحلة اختطاف الطائرات في أواخر الستينيّات وأوائل السبعينيّات، حين أصبح السفر بالطائرات النفّاثة أوسع انتشارًا وأكثر رمزيّة بكثير فيما يتعلّق بالتواصل الدولي عبر الحدود.

هل ترى أيّ خصيصة ثوريّة في هذه التصرفات؟

ـ كلا بالطبع، وهذا ما قلته آنفًا. لم تكن ثمّة رسالة، ولا محاولة لتغيير فكر الناس. إنّها سلوكات لا تمثّل جزءًا من أيّ شيء على الإطلاق. لقد استخدم الجزائريّون الإرهاب في الحقيقة، حيث كانوا يضعون القنابل في المقاهي والمطاعم في الجزائر لقتل الفرنسيين. وهو أمر لا أوافق عليه شخصيًا ولا أدافع عنه، لكنّه كان جزءًا من حركة سياسيّة ترمي إلى تخليص الجزائر من ربقة الاستعمار الفرنسي الذي ظلّ هناك لمائة وثلاثين عامًا. لكن أحداث الحادي عشر من أيلول كانت جزءًا من لا شيء. إنّها هجوم غامض وغير سوي ولم تواكبه أيّة توضيحات أو تصريحات، اتخذ من أناس أبرياء ضحايا له دونما غاية يمكن رؤيتها في الأفق سوى الإرهاب لذاته. وهو بهذا المعنى يشكّل قفزة ميتافيزيقيّة إلى مملكة أخرى -مملكة التجريد المجنون والتعميمات الميثولوجيّة الغامضة ـ، وهي قفزة قام بها أناس قاموا فيما أرى باختطاف الإسلام نفسه لأجل أهداف تخصّهم وحدهم. ومن الضروري عدم الوقوع في المصيدة ومحاولة الاستجابة بانتقام ميتافيزيقي من نوع ما.

ثمّة بعض وسائل الإعلام والتعليق السياسي تبدو وكأنّها ترجع صدى عبارات

«كورتز» في «قلب الظلام» عندما قال: «أبيدوا كل المتوحّشين»[٩]. ففي معرض تعليق له في محطة إن بي ر NPR، قال روبرت كابلان Robert Kaplan، الكاتب في الأتلانتيك مونثلي Atlantic Monthly ومؤلّف كتاب «الفوضى القادمة» The Coming Anarchy أنّ هناك «نوعًا من الكراهية الوجوديّة... للغرب»[١٠]. وقال دان راذر Dan Rather، محرّر أخبار السي بي إس إن متحدّثًا عن الإرهابيين في برنامج «آخر الليل مع دافيد ليترمان: Late Night with David Letterman» قال «إنّهم يرون أنفسهم على أنّهم الخاسرون في العالم»، وإنّهم «أناس مهووسون وكاتمو أصوات»[١١]. قال ذلك قبل أن ينخرط في البكاء.

ـ من الصعب عليّ أن أفسّر ما ذهب إليه دان راذر وروبرت كابلان اللذان لا أكنّ لأيّ منهما إعجابًا بشكل خاصّ أو أتطلّع إليه لقراءة دواخل الأمور. لكنْ، ما من شكّ أنّه في حالة أشخاص مثل أسامة بن لادن وآخرين من الذين يتبنّون خطابه، فإنّني أظنّهم ينظرون إلى أنفسهم كخاسرين على الإطلاق. أعتقد بأنّهم يرون أنفسهم على أنّهم حملة رسالة عظيمة. إنّهم أناس قد عيّنوا أنفسهم بأنفسهم كما هو واضح، يجدون في أنفسهم الحماس والثقة اللذين يتوافر عليهما أناس يحملون في دواخلهم، بطريقة ملتوية، عبء حضارة عظيمة تقوم بالرد على اعتداءات البرابرة.

أظنّ بأنّ استخدام كلمات مثل كاسبين وخاسرين خطأ، وخطأ جسيم. فبالنسبة إليهم، يمثّل الغرب الماديّة، ونوعًا من السوقيّة وقلّة الذوق، تمثّلها أفلام الفيديو الموجودة في كل مكان وكل آن والأفلام الإباحيّة. لقد رسموا له صورة كائن هائل متكشّف عن وحدة متراصّة وتناغم كلّي، تمامًا من النوع الذي ينزع معظم الناس هنا إلى خلقه عن الإسلام الذي باتوا ينظرون إليه على أنّه شيء صنميّ وحدي متكامل. إنّ هذا التصوّر يعمل على كلا الاتجاهين، فبالنسبة إليهم، يمثّل الغرب كل ما هو قبيح وبلاء في العالم. وهكذا فإنّ دورهم هو التطهير وأن يقوموا بالعمل نيابة عن الله. إنّ هذه خطابة منمّقة تؤتي أُكلها لكل من يستخدمها سواء على هذا الطرف أو ذاك، بافتراض وجود طرفين حقيقة، بينما يبدو واضحًا أنّ هناك أطرافًا أخرى كثيرة. لكن الناس الذين يفكّرون في ذواتهم على نحو: «نحن» في مقابل «هُم»، ويستخدمون هذه المعارضة الثنائيّة، سواء كانوا أميركيين أو غيرهم، إنّما يمثّلون أناسًا فقدوا التماس مع نوعيّة الواقع التي ينبغي على البشر أن يكونوا بصدد حمايتها، وتحديدًا ما

يخصّ تنوّعه واختلافاته وتجلّياته، لا أن يكونوا بصدد تكريس هذه المجرّدات الميثولوجيّة والدينيّة أو الدينيّة الزائفة التي هي في رأيي سخيفة، والتي يشعر كل شخص وفقها بأنّه/أو أنّها أداة لتنفيذ إرادة الله. لا أظنّ أنّ الأمر يكون عندئذ مسألة خاسرين أو رابحين. إنّها مسألة رابحين على الدوام في هذه الحالة.

يبدو أنّ هناك تغطية وتحليلاً لما يجري أكثر توازنًا، خاصّة في أوروبا. فعلى سبيل المثال، ماثيو باريس Matthew Paris، وهو عضو سابق في حزب المحافظين في البرلمان البريطاني كتب في التايمز اللندنيّة: «ألا يعلمون أنّك عندما تقتل بن لادن واحدًا فإنّك تغرس عشرين آخرين؟ إنّ لعب دور شرطي العالم ليس هو الجواب على كارثة نيويورك»[١٢]. ثم قال داريو فو Dario Fo، الروائي الإيطالي الذي فاز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٧: «إن المضاربين التجاريين العظماء يتخبّطون وهم ينغمسون في اقتصاد يقتل في كل سنة ملايين الناس جرّاء الفقر... بغضّ النظر عمّن الذي يقوم بارتكاب المذبحة» وهو يشير بذلك إلى الأحداث في نيويورك وواشنطن دي سي. «إنّ هذا العنف هو الابنة الشرعيّة لثقافة العنف، والتجويع والمغامرات اللاإنسانيّة»[١٣].

على العموم، يبدو المشهد خارج الولايات المتحدة بالضرورة مختلفًا قليلاً، لأنّ تلك البلدان لم تتعرّض للضرب، وهو أمر أساسي تجدر ملاحظته. أمّا الشيء الثاني فهو أنّها بلدان تعيش مرحلة ما بعد الإمبرياليّة وهي أصغر مساحة، إذ لم تعد لبريطانيا إمبراطوريّة تدافع عنها. ومهما كان نوع الإحساس بالمسؤوليّة والأهمّيّة التي تشعر به، فإنّه ناجم عن ارتباطها بالولايات المتحدة. وهذا هو المغزى من وراء قدوم بلير إلى الولايات المتحدة وقوله بأنّنا يجب أن نقف كتفًا إلى كتف وما إلى ذلك. إنّه يحاول، كما جرى فعلاً، أن يستظلّ بظلّ القوّة الأميركيّة العظمى. لكن ثمّة شيئًا آخر، فهناك في كل العالم عمومًا شعور مبعثه الحجم في الأساس، يجعل من الدول تتقارب معًا. فالأوروبيّون والشرق أوسطيّون أقرب كل إلى الآخر من حيث المسافة والتاريخ. هناك إحساس بأنّنا كلّنا مشتركون في العنصر نفسه الذي ربما يسمّيه المرء، الواقع أو التاريخ، ممّا يجعلنا بأنّنا ينبغي أن نكون أكثر ميلاً إلى التحليل وأكثر قدرة على التفهّم وأكثر تأمّلاً.

إنّني أفترض أيضًا أنّ ثمّة مقدارًا من الشعور بالامتعاض والغيرة إزاء الولايات

المتحدة بسبب قوّتها الهائلة التي يشعر الأوروبيُّون أحيانًا بأنّها تثقل صدورهم. وهكذا، فإنّ الأمر خليط من الأشياء التي تسمح بظهور وجهات نظر وقراءات مختلفة في الإعلام. لقد وجدت الأمر بداية، في الأيّام القليلة التي أعقبت كارثة الحادي عشر من أيلول، مصطبغًا بلون واحد على نحو محبط في الولايات المتحدة. كان هناك دائمًا التحليل نفسه مرّة تلو المرّة، وثمّة انتباه قليل انصرف إلى وجهات النظر الأخرى، ولم يمنَح سوى حيِّز صغير لوجهات النظر والقراءات والتأمّلات الأخرى المخالفة. وقد حدث ذلك، فيما أرى، لأنّ لدينا نزوعًا في هذا البلد إلى اعتبار التحليل التاريخي شكلاً من أشكال التعاطف مع ما حدث. إنّ الأمر ليس كذلك البتّة، إذ إنّ بوسعك محاولة فهم ما يحدث بدون أيّ تعاطف أو غفران مع ما يشكّل في الحقيقة جريمة إرهابيّة، لكن هناك أيضًا قلقًا بالغًا من عواقب مثل هذا السلوك المتسرّع الذي يبدو أنّ البلاد مقبلة عليه. ثمّة قلق حيال ذلك، فالناس يتحدّثون جهارًا عمّن يريد أن يغيّر الخطاب السائد قليلاً بحيث يتراجع الناس، وأعتقد أنّ ذلك أصبح ملاحظًا في بعض التعليقات حتى تلك التي صدرت عن الحكومة. وهناك اختلاف ملحوظ في اللغة التي يستخدمها دونالد رامسفيلد وباول وولفويتز في وزارة الدفاع، وربما شخص مثل باول الذي يبدو أكثر حذرًا بشكل عام. إنّه بيروقراطي، هذا صحيح، لكنّني أظنّه يدرك طبيعة المشاعر المتباينة التي تحكم العالم الذي نعيش فيه.

هل يخامرك الشعور بأنّنا عدنا إلى عام ١٩٩٠ مرّة أخرى؟ فهناك «بوش» آخر في البيت الأبيض، وهناك تحالف يجري تشكيله للقيام بعمل عسكري ضدّ ـ في هذه الحالة بلد من أفقر البلدان في العالم ـ أفغانستان، والتي تقول عنها السي آي إي بأنّها لا تتوافر حتى على حكومة فعّالة.

كلا. لا أشعر بذلك بشكل كاف، إلاّ فيما يخصّ المناخ السائد هنا. لكنّني أظنّ أنّ الناس شرعوا بالتراجع أكثر وأكثر. ليس هناك الاندفاع نفسه الذي كان هنا عام ١٩٩٠، لأنّه لا توجد في الحقيقة جبهة مادِّيّة متجسِّدة اسمها الإرهاب الذي ما زال يحتاج إلى التعريف كما أسلفت. إنّك لا تستطيع أن تختزل الإرهاب وتقصره على أسامة بن لادن. هناك أنواع أخرى كثيرة من الإرهاب، والتي ينبغي بوضوح أن تدرج تحت ذلك العنوان بالذات. ولا يوجد مكان محدّد ـ ما عدا أفغانستان، والتي تشكّل بالكاد، كما أشرت أنت قبل قليل ـ تحدّيًا كبيرًا يشبه ذاك الذي كان يشكّله العراق

عام ١٩٩٠ بجيشه الضخم وسلاحه الجوّي وصواريخه، كما لا يبدو أنّ هناك غاية. إنّ القول بأنّنا سنقوم بالقضاء على دول وأن نجتثّ الإرهاب أو نقضي عليه، وبأنّها ستكون حربًا طويلة الأمد قد تمتدّ لسنوات وسنخوضها بأدوات مختلفة وما إلى ذلك، كل ذلك يوحي بوجود أزمة أكثر انفتاحًا على الاحتمالات وأكثر تعقيدًا وأطول أمدًا، والتي أعتقد بأنّ معظم الأميركيين غير مستعدّين لها.

وهكذا، فإنّ هناك نوعًا من الشعور بأنّ هذا قد حدث من قبل، لكن هناك أيضًا عنصرًا جديدًا ينضاف إلى الوصفة - وهو اللاواضح أو اللامعرف، ومكوّنات هذه الحرب والتي ربما تضمّ ستّين بلدًا يفترض أنّها تؤوي الإرهابيين، كما ينبغي تحديد الكيفيّة التي ستواجه الولايات المتحدة ما يمثّل في الحقيقة ظاهرة شديدة التعقيد بمزيج مركّز قوامه الطائرات والجنود وقوّات البحريّة وما إلى ذلك.. ليس ثمّة هدف واضح في الأفق المنظور. وكما أشار ماثيو باريس Matthew Paris، فإنّك حتى لو عثرت على أسامة بن لادن، فمن الواضح أنّ منظّمته قد خرجت من يده وهي تعمل الآن بشكل مستقلّ عنه، وسوف يكون هناك آخرون سيعاودون الظهور. ولهذا، أعتقد بأنّنا نحتاج إلى حملة أكثر دقّة، وأكثر تعريفًا يجري بناؤها بشكل أكثر أناة، وبحيث تكون حملة تجري مسحًا ليس فقط على حاضر الإرهاب، وإنّما أيضًا على الجذور والأسباب التي أنجبته، وهي أمور يمكن للمرء أن يعثر عليها ويتثبّت منها.

في كوينز، ليس بعيدًا عن المكان الذي تجلس فيه الآن في الجانب الشمالي الغربي من منهاتن، يعيش رجل يدعى إمانويل هاييتي الصارم (Emmanuel Constant of Haiti) وهو متّهم بارتكاب جرائم حرب في هاييتي وبانتهاك حقوق الإنسان وقد تمّت مقاضاته، وقد بذلت هاييتي محاولات لإخراجه من الولايات المتحدة وإعادته إلى هاييتي(١٤). ما الذي يمكن أن يحدث لو قام سلاح الجوّ الهاييتي أو البحريّة بالهجوم على الولايات المتحدة بسبب إيوائها لمجرم حرب؟

ـ بالضبط. أظنّ أنّ السؤال في حدّ ذاته ينطوي على إجابته. إنّه غير قابل للتفكير فيه واقعيًّا. ولا يمكن التفكير بأحد، سوى الولايات المتحدة بقوّتها الهائلة وسيطرتها الكونيّة، يمكن له حتى أن يفكّر بفعل أشياء مثل تلك التي يبدو التخطيط جاريًا للقيام بها. أعني، ليس لديّ أيّة معلومات أكثر ممّا لدى أيّ شخص آخر، لكن يبدو أنّها حملة عالميّة رئيسية، بل حملة عبر القارات، مليئة بالتدخّلات في شؤون دول ستجرى

محاكمتها، والتي يبدو أنّها ستعتبر مذنبة بسبب جرائمها الإرهابيّة.

إنّ فكرة وجود نوع من مجلس المحكمة السرّي يقوم في واشنطن ويقرّر أيّة دول ينبغي أن تُضرب إضافة إلى وجود جدل يجري داخل مجتمع المخابرات حول أيّ الدول تستحقّ القصف بالقنابل، إنّما هي فكرة غير مقبولة. لا يجب أن يمتلك أيّ فرد أو دولة أو حكومة مثل تلك الرغبة ولا مثل هذه القدرة على تنفيذ تلك الرغبة.

إنّ الردّ العادل على هذه الحادثة المفجعة في نيويورك - مرّة أخرى أتحدّث كنيويوركي يشعر بالحزن الشديد إزاء الهجوم المرعب على هذه المدينة والذي فقد فيه كل منّا أصدقاء وعانى من تداعياته ـ، إنّ ذلك الردّ لا ينبغي أن لا يُطوى قسرًا تحت أجنحة الولايات المتحدة بل أن يرسل على الفور إلى مجتمع العالم، إلى المجتمع الدولي، إلى الأمم المتحدة. إنّ دور القانون الدولي يجب أن يسود على ذلك كما على بقيّة الأحداث. لكن ذلك ربما يكون متأخّرًا جدًّا لأنّه أمر لم تفعله الولايات المتحدة أبدًا، فهي دائمًا تذهب الشوط كلّه بمفردها كما فعلت في العراق ثمّ تدعو إلى اجتماع الأمم المتحدة في آخر المطاف بعد أن يكون الفعل المزمع قد تمّ إقراره.

لماذا تبذل الولايات المتحدة جهودًا لتُحضر، مع حلفائها، المتّهمين بارتكاب جرائم حرب أمام محكمة مختصّة بجرائم الحرب أنشأتها الأمم المتحدة من أجل يوغوسلافيا السابقة في لاهاي؟

ـ هذا سؤال جيّد للغاية. لكن قبل كلّ شيء، نحن إزاء حكومة مختلفة. فمنذ أن جاء جورج بوش إلى الحكم، أوضح تمام الوضوح أنّ الأحاديّة هي الكلمة المفتاح لهذه الإدارة، وأنّها تريد التصرّف على طريقتها من أجل مصالح تحدّدها الولايات المتحدة إلى حدّ كبير. وهناك نزوع نحو الأحاديّة وسم السياسة الخارجيّة الأميركيّة لوقت طويل وأظنّ أنّه يجري تكريسه الآن. وربما تكون الأمور على هذه الشاكلة، بشكل مفهوم بسبب من التركيز على العقل الأحادي، على الولايات المتحدة في هذا الهجوم. لقد أصبح السلوك المتضارب والغريب أحد حجارة الزاوية في السياسة الأميركيّة الخارجيّة.

في مقدّمتك للطبعة المجدّدة من «تغطية الإسلام: كيف يقوم الإعلام والخبراء بتقرير كيفية نظرتنا إلى بقيّة العالم» تقول: «إنّ التعميمات الحاقدة حول الإسلام قد

أصبحت الشكل الأخير المقبول لتشويه سمعة الثقافة الأجنبيّة في الغرب»[١٥]. حدّثنا عن دور الثقافة الشعبيّة في صياغة وجهات النظر عن العرب والمسلمين والإسلام. لقد أصدر جاك شاهين مؤخّرًا كتابًا بعنوان: «العرب السيّئون حقًّا» يتحدّث فيه عن الكيفيّة التي وفقها قامت هوليوود بتشويه صورة العرب والمسلمين والإسلام[١٦]. هل تعتقد بأنّ هذه منطقة مهمّة ينبغي بحثها؟

ـ تمامًا، لقد فكّرت هكذا منذ البداية، وشرعت في الكتابة عن هذا الموضوع في كتابي «الاستشراق». ثمّة صورة عجوز عتيقة الطراز للإسلام وأفترض أنّ هناك تصوّرًا مشابهًا إزاء العرب جاء في ركابها، ـ بالمناسبة، الكثير من الناس يعتقدون بأنّ أفغانستان هي جزء من العالم العربي ـ، حيث لا يجري التفكير في الفروقات وحيث يجري افتراض أنّنا نتحدّث عن عدد من الصفات والخصائص، وهي في معظمها محض تخيُّلات عن «الآخر»، مع وضع خطوط تحت كلمة «الآخر». وهكذا يتمّ التفكير بالمسلمين على أنّهم كل ما ليس هم: عنيفون، غير عقلانيين، وهكذا. وقد تكرّست الفكرة لأنّها منغرسة على نحو عميق في الجذور الدينيّة حيث يجري التفكير بالإسلام على أنّه نوع من المنافس للمسيحيّة. إنّ الإسلام يأتي من التربة ذاتها التي أتت منها المسيحيّة، دين إبراهيم الذي تمثّل أوّلاً في اليهوديّة، ثم المسيحيّة ثم الإسلام. كما كانت هناك أيضًا حقبة طويلة قاربت الثمانمائة عام كان الإسلام يسيطر فيها على أوروبا حينما بدأ المدّ الإسلامي، أو المدّ العربي في أواسط القرن السابع واستمرّ حتى القرن الخامس عشر.

إنّ تلك النظرة إلى الإسلام على أنّه يشكّل تهديدًا «للآخر» قد استمرّت. بالإضافة طبعًا إلى نوعيّة المعرفة عن الإسلام والعرب التي تطوّرت خلال الحقبة الاستعماريّة فيما أسميتُه الاستشراق، حيث كان لدراسة «الآخر» صلة وثيقة بسيطرة أوروبا والغرب بشكل عام وسيادتها على العالم الإسلامي. ينبغي القول بأنّه لم يتغيّر إلاّ القليل. وإذا ما نظرت إلى الخطّة الدراسيّة لمعظم الجامعات والمدارس في هذا البلد، آخذًا بعين الاعتبار مواجهتنا الطويلة مع العالم الإسلامي، فإنّ هناك القليل جدًّا ممّن يمكن أن تعثر عليه ويمكن أن يزوّدك بمعلومات عن الإسلام. وإذا ما نظرت إلى الإعلام الشعبي فإنّك ستجد أنّ الصورة النمطيّة التي بدأت برودلف فالنتينو Rudolpgh Valentino في فيلم «الشيخ» *The Sheik* قد دامت وتطوّرت إلى شخصيّة

الشرّير الكوني في التلفاز والأفلام والثقافة العامّة بشكل عام[١٧].

إنّ من السهل إقرار تعميمات متوحّشة حول الإسلام. كل ما عليك فعله هو أن تقرأ أيّ طبعة من طبعات نيو ريبابليك *New Republic* وسوف ترى الإسلام يتمّ ربطه بالشرّ المتطرّف، والقول بأنّ للعرب ثقافة فاسدة ومنحرفة، وهكذا. إنّ هذه تعميمات لا يمكن لها أن توضع عمليًا إزاء أيّ دين آخر أو مجموعة إثنيّة في العالم اليوم، في الولايات المتحدة حيث هناك حساسيّة كبيرة، كما ينبغي أن تكون، لدى الأميركيين الأفارقة والأميركيين الآسيويين والأميركيين اللاتينيين وهكذا. لكن، ها هو الأمر يجري الإلحاح عليه، ويكمن أحد الأسباب الرئيسيّة في إدامته والإلحاح عليه هو غياب انخراط المسلمين والعرب انخراطًا حقيقيًا وفاعلاً في هذا الجدل الدائر.

إنّ الأسباب الكامنة وراء ذلك معقّدة، وأطول من أن أناقشها هنا. لكن كان هناك على الدوام جهل ملحوظ في العالم العربي والعالم الإسلامي بالكيفيّة التي ينظر بها الغرب والمقيمون في الدول الغربيّة في معظمهم ـ وهنا على المرء أن لا يعمّم ـ إلى العربي والمسلم. ليس ثمّة سياسة ثقافيّة، وليس ثمّة حسّ بضرورة الانخراط في الحوار أو المناظرة. إنّ حوارًا بين الثقافات هو أمر غائب بالقدر الذي يعني الإسلام وبالقدر الذي يعني العرب، وتلعب إسرائيل دورًا بارزًا في كل ذلك. ويشعر الناس أنّك، وقد عايشت ذلك في تجربتي الخاصّة، إذا ما حاولت أن تتحدّث عن العالم العربي، وإذا ما حاولت أن تحضر كاتبًا عربيًا إلى أميركا، فإنّك تواجه على الدوام احتجاجًا عنيفًا نحو: لم ليس هناك توازن؟ لَمَ لَم تحضر كاتبًا إسرائيليًا؟ وإذا ما تحدّثت عن الثقافة العربية والحضارة العربيّة فإنّك تعتبر معاديًا لإسرائيل. وذلك واقع مقيم على المرء أن يتعامل معه. إنّ الأرضيّة ليست ممهّدة للتفاوض لأنّها مليئة بالفخاخ السياسيّة والشراك.

وأودّ أن أضيف شيئًا عن دور التعليم العالي. إنّك إذا ما نظرت إلى جامعة كولومبيا، والتي فيها دائرة للغات الشرق الأوسط، والتي فيها قسم للأديان، فإنّنا لا نقدّم بانتظام مساقًا عن القرآن. إنّ دراسة القرآن ضروريّة لتكوين فهم للإسلام. والأمر يشبه ببساطة دراسة المسيحيّة من دون النظر في الإنجيل، ومن دون النظر إلى العهد الجديد. وهو مثل دراسة من اليهوديّة دون النظر إلى العهد القديم. وهذا، للأسف، هو حال دراسة الإسلام حيث تنظر فقط في ملخّصات تضمّها كتب ودوريّات كتبها

الدارسون الغربيّون عن ماهيّة الإسلام أكثر من النظر في النصّ الرئيسي نفسه، والذي يلعب في الإسلام دورًا أكبر بكثير من ذاك الذي تلعبه الأناجيل في المسيحيّة أو التوراة في اليهودية.

عودة إلى «تغطية الإسلام». إنّك تقول في مقدّمتك: «هناك جسم مركزي من الخبراء في شؤون العالم الإسلامي الذين وصلوا إلى الشهرة، والذين يجري استخراجهم خلال أيّة أزمة لكي يتحدّثوا مثل الأحبار والأساقفة عن أفكار تتخذ شكل صيغ جاهزة عن الإسلام في برامج الأخبار وبرامج المقابلات»[١٨]. وهناك برنامج حواري ذو اعتبار على محطة بي بي إس PBS هو برنامج «عرض شالي روز» لمدّة ساعة ليليًا. ولديّ قائمة تضمّ ضيوف البرنامج منذ الأسبوع الأوّل بعد هجوم الحادي عشر من أيلول. دعني أقرأ لك بعضًا من الأسماء: ويزلي كلارك Wesley Clark، ساندي بيرغر Sandy Burger، أنتوني لويس Anthony Lewis، فرانك ريتش Frank Rich، ديفيد هالبرستام David Halberstam، جم هوجلاند Jim Hoagland، مورت زوكرمان Mort Zuckerman وفؤاد عجمي Foad Ajami لثلاث مرّات، وهو ناقد منتظم في سي بي إس CBS والذي لا ينفكّ يتحوّل إلى الظهور على بي بي إس.

ـ إنّ ذلك يريك نوعيّة ما يجري محاولة تكريسه، وهو معاملة شأن كهذا، ـ والذي هو في الحقيقة حدث مريع ليس في الولايات المتحدة وحدها ولكنّه شأن له تداعيات دوليّة، وتشعّبات وجذور ـ بوصفه أمرًا يتعلّق بالأمن والاستراتيجيّة العسكريّة. إنّ الضيوف الذين ذكرت ليسوا كلّهم في القارب نفسه. ولكن يمكن القول إنّ تركيزهم جميعًا ينصبّ إلى حدّ كبير على هذا النوع من الطرح. لا يمكن اعتبار أيٍّ ممّن ذكرت ـ باستثناء عجمي ـ يعرف أيّ شيء على الإطلاق، حتى بطريقة تعليميّة، عن الإسلام أو العالم العربي. . . ولا واحد منهم. أمّا عجمي فهو خبير لا يخفي أنّه قد وضع بضاعته في سلّة الجناح الأميركي اليميني، في حركة المحافظين الجدد. وهو يتّخذ مواقف استرضائيّة جدًّا إزاء إسرائيل. ويُنظر إليه على أنّه راو مثالي لبرامج الحوار، لأنّه عربي ومسلم، بينما هو في الحقيقة، وعلى قاعدة ما نشره والأشياء التي قالها، قد كشف عن نفسه كرجل بدون اهتمام ثقافي محدّد، والذي لم يكن سمع به أيّ ممّن أعرف عنهم في الساحة وفي العالم العربي والإسلامي أو أخذه على محمل

الجدّ. إنّه يشكّل مثالاً جديرًا بالملاحظة للتنافر المعرفي. إنّ معاملة الخبراء على أنّهم كذلك تجري دون تقدير لتحصيلهم أو حتى مكانتهم أو عملهم أو نوع المعرفة التي ينطوي عليها مثل هذا التنافر، وهو أمر مدهش للغاية. في الوقت الذي يمكنني التفكير بسهولة بالغة بنصف دزينة من الناس في هذا البلد، والذين كانوا ليقدّموا عملاً أفضل وأكثر معرفة حيال أمور لها صلة بالعالم العربي والإسلامي من عجمي.

حدّثنا عن جناحي العالم الإسلامي واللذين سيتأثّران بالعمل العسكري ــ مصر في الغرب والباكستان في الشرق.

ــ هناك الكثير من العناوين التي يجب أخذها بعين الاعتبار. لكنّ الحكومة المصريّة كانت على الدوام قلقة من الحركات الإسلاميّة. وهي حركات نشأت أساسًا كجزء من التيّار القومي في مصر في حقبة الثلاثينيّات مع ظهور الإخوان المسلمين. وكانت معادية للبريطانيين وللإمبرياليّة وللملَكيّة. وكان يواكب هذا التوجّه، بالطبع، هدف إقامة دولة إسلاميّة في بلد إسلامي يشكّل المسلمون أغلبيّته الساحقة رغم أنّ مصر ليست إسلاميّة بالكامل. فهناك أقلّيّة مهمّة من المسيحيين الأقباط والذين يعتبرون أنفسهم مصريين على الدرجة نفسها التي يقف عليها المصريّون المسلمون. وعلى أيّ حال، فإنّ تلك الجماعة من القوميين المسلمين قد تحوّلت إلى جماعة أصبحت، في رأيي، رجعيّة. وهي ترى نفسها تحمل عبء الإسلام الأصلي والبدائي، ممّا يدفعها إلى محاولة إعادة مصر إلى مكّة القرن السابع وتدمير التداعيات الطفيليّة التي جاءت متقحمة في ركاب الحضارة الحديثة. وقد استطاعت تلك الجماعات طبعًا انتزاع الانتباه العام لأنّها مسلّحة، وتمتاز بقدر جيّد من التنظيم. كما أنّ لبعض فروعها القدرة على أداء مهمّات انتحاريّة من النوع الذي ربّما يتضمّن قتل السيّاح واغتيال أنور السادات. إنّها جماعات تشكّل قوّة تدميريّة وقادرة على العصيان المسلح.

إنّ ذلك لا يعني أنّ كل الناس الأتقياء، كلَّ النساء المتحجّبات والرجال الذين يرتدون الأثواب الطويلة والعمامات يشكّلون جزءًا من ذلك. فهناك أيضًا جماعة كبيرة من المحتجّين داخل مصر الذين انشقّوا على سياسات الحكومة، خاصّة فيما يتعلّق بالسياسات الاقتصاديّة والسياسة الخارجيّة، تلك السياسات التي أفرزت طبقة من خرّيجي الجامعات المسحوقين بالفقر والذين يظهرون بمئات الآلاف في كل سنة دون عمل، وبدون أن يحصلوا بسهولة على مكان للسكن ولا طريقة لكسب العيش وتكوين

أسرة. والإسلام يجمع هؤلاء جميعًا معًا.

لقد لعبت الحكومة مع تلك الجماعات دورًا في منتهى الخطورة، فقد استجابت في بعض الأحيان لمطالبهم كأن تقوم، على سبيل المثال، بمراقبة وحظر الكتب التي تعتبر إباحيّة ومعادية للإسلام، وأن تسجّل دعاوى ضدّ الأساتذة والكتّاب والشخصيّات العامّة، وأن تطارد الجماعات التي ينظر إليها على أنّها منحرفة وشاذّة جنسيًّا أو دينيًّا. وبين الحين والآخر تنحني الحكومة وترمي لهم برشوة على شكل فتات، فتحظر برامج تلفزيونيّة أو روايات وغير ذلك بدلاً من أن تختط نهجًا واضحًا لأنّها تجد من الصعب فعل ذلك.

من الناحية الأخرى، هناك في الباكستان تراث من العصيانات الإسلاميّة المسلّحة والتي لم تكن ناجحة على الإطلاق. وفي كل مرّة توافرت فيها الفرصة لإجراء انتخابات يتقرّر فيها إذا ما كان يراد حكومة إسلاميّة أم لا، فإنّهم يخسرون بشكل محتوم. لكنّهم أيضًا قادرون على التفتيت والاغتيالات وهكذا، وهم يعبّرون أيضًا عن عدم قناعتهم بما يرونه اقتصادًا منحرفًا. إنّنا إزاء تلك القوّة النوويّة التي لا تستطيع حل مشكلات الفقر والمجاعة والبطالة في المدن الكبيرة مثل كراتشي. إنّنا إزاء خليط غير ثابت هنا. والآن وقد جرى فرض عبء نشاط الولايات المتحدة العسكري الهائل عليهم، فإنّ ذلك يمكن أن يزيد من شعور تلك الجماعات بعدم الاستقرار. وفي أماكن مثل الباكستان، فإنّ فكرة أن تقوم الحركات الإسلاميّة أو المؤيّدة لطالبان بزعزعة استقرار حكومة برفيز مشرف العسكريّة إنّما تشكّل تهديدًا أكبر بسبب القدرة النوويّة التي ستصبح في متناول أيّة حكومة ستتولّى السلطة، وهو أمر ليس من الممتع تأمّله.

هناك صورة على الصفحة الأولى من صحيفة النيويورك في عددها الصادر يوم ٢٢ أيلول يظهر فيها شرطيّان باكستانيّان وهما يقومان بضرب وركْل متظاهر أعزل. وقد قتل أربعة باكستانيين في كراتشي[١٩].

ـ بالطبع. إنّها حكومة عسكريّة، والفكرة هي أنّنا نحشد وأنّنا سوف نقوم بذلك مع الولايات المتحدة. ومن الواضح أنّ هناك مكافآت اقتصاديّة، فبعض ديونهم سيتمّ التغاضي عنها[٢٠]، وسوف يكون هناك المزيد من المساعدات. كما أنّ مكانة حكومة برفيز مشرف سوف تحظى بدعم وتأييد الولايات المتحدة. ولكن، مثلما هو الحال

في كثير من هذه التدخّلات، فإنّ النتائج سوف تكون، على المدى البعيد، سلبيّة أكثر ممّا ستكون إيجابيّة.

لكنّ الموقف يغصّ بالمفارقات، خاصّة في الباكستان التي احتضنت المجاهدين خلال حقبة الثمانينيّات، وأنشأت طالبان في الحقيقة وساعدت في وصولهم إلى السلطة.

ـ نعم، وهي لا تزال تفعل ذلك. إنّ دوائر المخابرات الباكستانيّة هي في الحقيقة ـ لا أدري كيف أقول ذلك ـ هي أجهزة التحكّم بطالبان. وهناك حركة نشطة متبادلة منتعشة في التجارة والدعم، وفي تهريب المخدّرات بين أفغانستان والباكستان وهي شبه رسميّة. إنّه ليس أمرًا يتعلّق بشخص أو شخصين وحسب، ولكنّه يضمّ كل فروع الجهاز السرّي الباكستاني. وذلك ما لن تتمّ السيطرة عليه بسهولة حينما يبدأ العنف.

أخيرًا. ما الذي تعتقد بأنّه يمثّل مصدرًا جيّدًا للمعلومات؟

ـ هناك سلسلة كاملة من الكتابات عن أفغانستان. وأنا كنت لأبدأ بأعمال الرجل الذي تفضّلت بذكره، إقبال أحمد، الذي توفي منذ سنتين، وهو صديق عزيز[٢١]. وأقول إنّه الشخصيّة الأولى الأساسيّة التي كان يجب أن تكون معنا الآن لأنّه عرف أفغانستان، وكان هو نفسه باكستانيًا، كما أنّه عرف الغرب وعرف العالم العربي. كان مسلمًا، وكان رجلاً ذا حسّ عصري ومعلومات تاريخيّة واسعة جدًّا. كنت لأختار البدء بإقبال أحمد الذي توجد له سلسلة كاملة من المقالات والحوارات معك. وربما أقول ذلك أيضًا عن أسئلة ذات صلة بالعرب والإسلام، إذ هناك مكتبة كاملة من المواد. وبالتأكيد هناك أعمال ألبرت حوراني Albert Hourani وفيليب حتّي[٢٢] Philip Hitti. وهناك مكتبة واسعة عن مصر المعاصرة، كما هو الحال عن باكستان وأفغانستان. وأظنّ أنّ ما ينبغي علينا محاولة بلوغه هو مصادر موثوقة جدليّة لا تتّصف بالهجوميّة، وهي ليست دليل استخدام «وزارة الدفاع» حول الغزو والحرب.

الهوامش

(1) Eqbal Ahmad, *Confronting Empire*, p. 134. See also Eqbal Ahmad, *Terrorism: Theirs and Ours* (New York: Seven Stories Press / Open Media, 2001), p. 4.

(2) Edward W. Said, «Islam and West Are Inadequate Banners,» *The Observer* (London), September 16, 2001, p. 27.

(3) Herman Melville, *Moby Dick, or the Whale* (New York: Modern Library, 1992).

(4) Darryl Fears, «Hate Crimes Against Arabs Surge, FBI Finds,» *Washington Post,* November 26, p. A2.

(5) See Phuong Ly and Petula Dvora, «Japanese Americans Recall '40s Bias, Understand Arab Counterparts' Fear,» *Washington Post*, September 20, 2001, p. B1.

(6) Somini Sengupta, «Torn Between Silence and Open Discussion,» *New York Times*, September 19, 2001, p. B10.

(7) Eqbal Ahmad, personal conversations with the author.

(8) Eqbal Ahmad, «Terrorism: Theirs and Ours,» presentation at the University of Colorado, Boulder, October 12, 1998. Transcript available from Alternative Radio.

(9) Joseph Conrad, *The Heart of Darkness* (New York: Penguin Books, 1999), p. 87.

(10) Liane Hansen, Interview with Robert Kaplan, *Weekend Edition Sunday*, National Public Radio (NPR), September 23, 2001.

(11) David Letterman Interview with Dan Rather, *Late Night with David Letterman*, September 18, 2001

(12) Matthew Paris, «The Bigger They Come the Harder They Fall,» *The Times* (London), September 15, 2001.

(13) Steve Erlanger, «In Europe, Some Critics Say the Attacks Stemmed From American Failings,» *New York Times*, September 22, 2001, p. B12.

(14) Sarah Kershaw, «Renewed Outcry on Haitian Fugitive in Queens,» *New York*

Times, August 12, 2000, p. B2.

(15) Edward W. Said, *Covering Islam: How the Media and the Experts Determine How We See the Rest of the World.* Updated and revised ed. (New York: Vintage, 1997), p. xii.

(16) Jack G. Shaheen, Reel Bad Arabs: How Hollywood Vilifies a People (Northampton, Massachusetts: interlink, 2001).

(17) *The Sheik*, directed by George Melford (1921) and *Son of the Sheik*, directed by George Fitzmaurice (1926)

(18) Said, *Covering Islam*, p. xi.

(19) See David Rohde, «Militants in Kashmir Deny Pakistani Support,» *New York Times,* September 22, 2002, p. 1:27, and photograph on p. 1:1.

(20) Edward Alden, «Bush Offers Fresh Help to Pakistan,» *Financial Times* (London), February 14, p. 10.

(21) See Ahmad and Barsamian, *Eqbal Ahmad: Confronting Empire.*

(22) See, among others, Philip Hitti, *History of the Arabs*, 10th rev. ed. (New York: Palgrave Macmillan, 2002). Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples* (New York: Warner Books, 1992).

منظور فلسطيني حيال الصراع مع إسرائيل

KGNU, Boulder, Colorado, August 15, 2002

ربّما تكون الأزمة الأخيرة في فلسطين هي الأكثر حدّة خلال خمسة وثلاثين عامًا من الاحتلال الإسرائيلي، وتتحدّث صحيفة الغارديان اللندنيّة عن «سوء تغذية حادّ» في غزة[1]، ما هو تقديرك للموقف؟

ـ الوضع هناك رهيب وينذر بالكارثة، وهو يعود برمّته إلى الاحتلال الإسرائيلي لمدن الضفّة الغربيّة، بينما غزّة محتجزة فيما يشبه القفص الكبير. الطرق بين المدن يتعذّر استخدامها على الفلسطينيين في الوقت الذي تقوم بالمقابل بنية متكاملة من الطرق على خدمة الإسرائيليين الذين يقطنون الضفّة الغربيّة وغزّة بشكل غير مشروع. وإذا ما أضفت إلى ذلك القدس الشرقيّة التي جرى ضمّها دون شرعيّة، فإنّ هناك الآن أكثر من أربعمائة ألف مستوطن يسمح لهم بالتجوال مسلّحين في الوقت ذاته الذي يظلّ فيه الفلسطينيّون محتجزين في منازلهم لفترات طويلة تحت حظر التجوّل، ولا يتمّ رفع هذا الحظر إلاّ لفترات قليلة يتسنّى لهم فيها الخروج لشراء الطعام. والآن، تمّ تدمير معظم أجزاء البنية التحتيّة في الضفّة الغربيّة، وبينما تتحدّث إسرائيل عمّا تسمّيه «أوكار الإرهاب» فإنّها تقوم بتدمير كامل البنية التحتيّة للمدن من كهرباء وماء وخدمات صحّيّة إضافة إلى المكاتب، ولم يقتصر التدمير على تلك المكاتب الخاصّة بالسلطة الفلسطينيّة التي تصفها إسرائيل بأنّها عصابة من الإرهابيين، وإنّما يشمل أيضًا تلك الخاصّة بالسلطة المدنيّة مثل وزارات العمل والتخطيط والمراكز الصحّيّة والمكاتب المركزيّة للخدمات الصحّيّة والتي تتركّز كلّها في رام الله بشكل أساسي. لقد تمّ تدمير مباني كل تلك الدوائر والمؤسّسات، وتمّ سحق الحواسيب، وقامت

القوّات الإسرائيليّة بنهب الأقراص الصلبة والملفّات الورقيّة. لقد أتلف الإسرائيليّون ملفّات تخصّ مليونًا من طلاب المدارس الأطفال![٢]. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ معظم الطلبة يتعذّر وصولهم إلى معظم المدارس والجامعات ولا يتمكّنون من المرور عبر الحواجز العسكريّة. الحياة صعبة جدًّا فيما يخصّ الانتقال من مكان إلى آخر، فأنت مثلاً لا تستطيع الذهاب من بير زيت إلى مستشفى في رام الله، أو يتمّ الإبقاء عليك رهن الانتظار على الحاجز لساعات في آخر المطاف. وقد مات العشرات من الناس لأنّهم لم يتمكّنوا من الوصول إلى مراكز غسل الكلى. وتغصّ وسائل الإعلام، حتى هنا في أميركا، بالتقارير التي تتحدّث عن أناس، معظمهم من المدنيين، والذين أطلقت عليهم النار على نقاط التفتيش.

هناك بالطبع تركيز إعلامي كبير ينصبّ على الانتحاريين، وهناك صور لأشلاء الضحايا ومواكب الدفن وأسماء الضحايا. لا شكّ أنّ كل تلك التفجيرات هي أمور فظيعة، لكنّك تجد في كل تقرير إخباري جديد، يصل من الضفّة الغربيّة وغزّة وعلى نحو شبه يومي، أخبارًا عن قتل أربعة أو خمسة فلسطينيين، وهم يظلّون بلا أسماء، وقد تمّ قتلهم لا لسبب محدّد كما تمّ قتل العديد من الأطفال. ومعدّل القتل بين الفلسطينيين في مقابل الإسرائيليين هو ثلاثة إلى واحد وأحيانًا أربعة[٣].

إنّ المجاعة وسوء التغذية هما النتيجة المباشرة لقيام الإسرائيليين بإعاقة توزيع الطعام. ولنأخذ للتدليل على ذلك شيئًا حصل منذ وقت قريب. لقد تمّ احتجاز شاحنة قادمة من غزّة على أحد الحواجز العسكريّة لساعات وهي تحمل أربعمائة كيلو غرامًا من الخوخ وتحاول الخروج من القفص الكبير، وظلّت الشاحنة لساعات تحت الشمس بينما الفاكهة تتعفّن[٤]. لكن أسوأ الخروقات هي تلك المتعلّقة بإعاقة الخدمات الطبيّة وإمدادات الدم والأدوية. لديّ صديقة، وهي امرأة مريضة حصلت على إذن بالمغادرة لأسباب طبيّة. وهكذا جرى نقلها على متن سيّارة إسعاف من رام الله إلى عمان في الأردن وكانت تجلس في المقعد الأمامي. وعلى بعد نحو مائتي متر من نقطة تفتيش قلنديّة فتح الجنود النار، فحطّموا الزجاج الأمامي وأخطأوها ببضعة إنشات فقط. مثل هذا النوع من الأحداث شائع وفي منتهى العاديّة.

لقد انتهيت لتوّي من كتابه مقالة بعنوان «الموت البطيء.. العقاب بالتفصيل»[٥]، وهذه هي فيما أظنّ خطّة شارون.. أن يقوم بتجويع الفلسطينيين وضربهم وإجبارهم

على الركوع، وهو لا ينجح في ذلك؛ فالفلسطينيّون باقون على أرضهم وهم لا يغادرون. صحيح أنّهم يعانون من الإحباط وسوء الحال، لكنّ المؤشّرات، كما هي عادة في كل الحروب الاستعماريّة، تشير إلى تسارع وتيرة التكيّف ونمو إرادة المقاومة.

ليس ثمّة أفق سياسي لما يجري؛ فخطّة شارون ترمي أساسًا إلى طلب مقادير هائلة من المساعدات الأميركيّة، وهي حيلة فظيعة؛ فهو يريد المساعدات ويريد أن يبقي على الحصار في آن. والناس يتحدّثون عن الإصلاحات، بل إنّ هناك كثيرًا من الإصلاحات التي جرى التخطيط لإجرائها. وقد قال بوش قبل زمن طويل بأنّنا نحتاج إلى إجراء إصلاحات، رغم أنّ ما يعرفه جورج بوش عن الفلسطينيين لا يعدو ما يمكن نقشه بمجموعه على رأس دبوس؛ إذ كيف بوسعك أن تجري إصلاحات جدِّيَّة أو انتخابات أو استقرار أمني في الظروف الحاليّة التي يعيشها الفلسطينيّون معتقلين في منازلهم؟ إنّه ليس مسموحًا لأيّ شخص بالتجوّل، وإذا ما أقدمت على ذلك فإنّك تصبح هدفًا لإطلاق النار. السيّارات تمّ تدميرها والصحافة الإسرائيليّة مليئة بالقصص عن الدمار الوحشي، والآن، أو منذ نيسان على وجه الدقّة يجري تدمير البيوت. لقد تمّ هدم عدّة آلاف من البيوت الفلسطينيّة في أماكن كثيرة مثل جنين وجباليا والدهيشة بواسطة جرّافات الكاتربلر التي تزوّد الولايات المتحدة بها إسرائيل.

لقد تمّ اجتياح وسط المدينة القديمة في نابلس وتحتلّه الآن حوالى مائة دبّابة إسرائيليّة. إنّنا نتحدّث عن طرقات صغيرة وضيّقة، لذلك تسحق الدبّابات جدران المنازل لتمرّ عبرها. إنّهم لا يقومون بإرهاب الإرهابيين وإنّما يقومون بإرهاب المدنيين.

يمكن لنا أن نصوغ الموقف الإسرائيلي على النحو التالي؛ إنّهم يقولون: «إنّنا لا نجد شريكًا لإجراء مفاوضات، لذلك نقوم باتخاذ هذه التدابير دفاعًا عن النفس وردًّا على الإرهاب الفلسطيني». كيف تجيب على ذلك؟

ـ لقد كان لهم شريك مفاوضات على مدى تسع سنوات منذ عام ١٩٩٣، حين وقّع ياسر عرفات ومنظّمة التحرير الفلسطينيّة اتفاقًا معهم. وخلال ذلك الوقت سلّم الإسرائيليّون الذين كان ينبغي أن ينسحبوا من الضفّة الغربيّة وغزّة ما نسبته ١٨٪ فقط

من الأرض للفلسطينيين، وهو ما قمت بتوثيقه في كتبي، وهي الأرض نفسها التي قاموا الآن بإعادة احتلالها. وخلال تلك الفترة زاد عدد المستوطنات إلى الضعف أو أكثر. وهكذا، فبينما كانت ما يسمّى بعمليّة السلام تمضي قدمًا، وبينما كانت المفاوضات تجري كما هو مفروض، فإنّها في الحقيقة كانت تتجه إلى لامكان. بينما عدد المستوطنات والأراضي التي تتمّ مصادرتها من الفلسطينيين تزداد وتزداد.

منذ العام ١٩٩٦، جرت سلسلة من الإغلاقات التي تمّ خلالها منع الفلسطينيين الذين يعتمدون في عيشهم على العمل في إسرائيل من الذهاب إلى أعمالهم. وبدلاً منهم قامت إسرائيل باستيراد عشرات الآلاف من العمّال من بلدان مثل رومانيا وتايلند[٦]. وفي غزّة لوحدها يعاني الفلسطينيّون من بطالة تبلغ نسبتها ٧٠٪، ويعيش حوالي ثلاثة أرباع الشعب الفلسطيني على ما معدّله أقلّ من دولارين للفرد الواحد في اليوم[٧]. إنّ هناك الجوع والحصار وهو الأمر الذي يخلق مناخًا من القنوط. وحرفيًّا أصبح على الناس أن يقاتلوا ليعيشوا. أن يقاتلوا دونما جيش وبلا سلاح جوّ، بل ويمكن القول: بدون قائد، بما أنّ عرفات قد تمّ سجنه، وبدون أيّ من المؤسّسات التي يمكن أن تتمتّع بها السلطة المدنيّة لأنّ إسرائيل قامت بتدميرها. هذا هو الوضع الفلسطيني. ويأتي الإسرائيليُّون ليقولوا بعد ذلك إنّه ليس من أحد هناك يتفاوضون معه. إنّ هناك أيّ عدد تريده من الفلسطينيين الذين يمكن لهم التفاوض معهم، كما أنّ معظم دول العالم، باستثناء الولايات المتحدة وإسرائيل، مستعدّة للتفاوض مع السلطة المنتخبة.

بالنسبة لي شخصيًّا فأنا معارض، ولن أصوّت بالتأكيد لصالح عرفات فيما لو تمّ إجراء انتخابات، لكنّه لا يزال إلى الآن زعيم الشعب الفلسطيني الذي جرى انتخابه في عمليّة خضعت للرقابة الدوليّة عام ١٩٩٦. وإذن، فإنّ هناك أحدًا ما. لكن شارون وحكومته كانوا يهدفون إلى نزع الشرعيّة عن الفلسطينيين وتجريمهم وإظهارهم بمظهر الوحشيّة وعزلهم، وتجريدهم من الصفات الإنسانيّة بحيث يموتون مثل الصراصير. ولا يعدو قادتهم، كما أشار شارون مؤخّرًا، كونهم عصابة من الحشّاشين وسفّاكي الدماء والإرهابيين الفاسدين[٨].

وإذن، فإنّ بإمكانك أن تحطّم أيّ أمل في إيجاد شريك مفاوضات. وحتى لو كان هناك واحد، فإنّك تداوم على القول بأن ليس ثمّة أحد نتفاوض معه.

لقد كان ما نسبته ثمانون في المائة من الخسائر الفلسطينيّة في الأرواح من المدنيين[٩]. وفي السنة الأخيرة دأبت إسرائيل على ممارسة ما يسمّونه «القتل الموجّه» Targeted Death أو الاغتيالات[١٠]، حيث يقومون بتحديد مكان قائد مزعوم، ويقومون بقتله باستخدام سيّارة مفخّخة أو بإطلاق صاروخ من مقاتلة عموديّة. ومنذ أسبوعين قاموا باغتيال شخص زعموا بأنّه قائد مهمّ من قادة حماس في غزّة. لقد قتلوه، لكنّك عندما تلقي قنبلة من مقاتلة إف ـ ١٦ على أكثر بقاع الأرض ازدحامًا بالسكّان، فإنّ من المحتوم أن تلحق أضرارًا أخرى. وقد دمّرت في تلك العمليّة أربع بنايات وقتل خمسة عشر شخصًا تسعة منهم من الأطفال. وبعد ذلك يصرّح شارون بأنّ تلك كانت واحدة من أنجح العمليّات التي تمّ تنفيذها على الإطلاق[١١].

إذا ما كان قتل تسعة أطفال عمليّة ناجحة، فإنّ المرء يتساءل: لماذا لا يتضمّن هذا الهجوم على الفلسطينيين بسبب تفجيراتهم الانتحاريّة اليائسة أيّة إدانة لغارات الإرهاب الإسرائيليّة التي هي أشدّ فتكًا وأكثر عددًا؟ لقد قاموا بقتل ثمانية أشخاص بعمليّات القتل الموجّهة هذه دون أن يقدّموا ضدّهم أيّ إثبات أو دليل. إنّهم يقولون وحسب إنّ هذا الشخص يخطّط للقيام بهذا الشيء أو ذاك وسوف نقوم بقتله، ثم يقتلونه ويقتلون كل من يكون بجواره، وإذا كان في سيّارة فإنّ عائلته تموت معه، وبعدها يقوم الإسرائيليّون بنسف منزله ومنزل عائلته ويتمّ اعتقال الذكور من أقاربه. وبالإضافة إلى ذلك، ومنذ إعادة احتلال الضفّة الغربيّة في الربيع قامت إسرائيل باعتقال عدد هائل من الفلسطينيين، يتمّ احتجاز بعضهم الآن في إسرائيل. إنّ هذا إجراء غير قانوني وفقًا لاتفاقيّة جنيف الرابعة. إنّك لا تستطيع نقل الفلسطينيين من أرضهم وأخذهم إلى بلد آخر، وهو ما فعلته إسرائيل. وقد جرى وسم بعضهم بالحبر على أذرعهم تمامًا كما كان يتمّ وسم اليهود على أيدي النازيين. إنّ إسرائيل قوّة نوويّة ومدجّجة حتى التخمة بأحدث الأسلحة الأميركيّة، وتواجه سكّانًا مدنيين عزلاً في الأساس، وذلك ما يصعب اعتباره دفاعًا عن النفس. وفي رأيي فإنّ ذلك إرهاب وقتل.

إنّ الأمر الذي لا يتوجّه إليه أدنى انتباه في وسائل الإعلام الأميركيّة لا يتعلّق فقط بتلك الترهات حول الدفاع عن النفس وحسب، وإنّما بمسألة الاحتلال في ذاتها. إنّ الاحتلال لا يُطرح أبدًا بوصفه واقعًا يقوم الفلسطينيّون بالتصدّي له

ويقاتلون ضدّه لمدّة تربو على الثلاث والثلاثين سنة. وكذلك فقدانهم لأراضيهم، والفشل الذريع لعمليّة سلام أوسلو التي فقدوا بها المزيد من الأرض. والشيء الآخر الذي لم يتمّ النظر إليه أبدًا هو أنّ الفلسطينيين شعب بلا دولة أو أنّ ما تفعله إسرائيل إنّما يتمّ فعله ضدّ شعب بكامله، وليس فقط ضدّ أفراد تطلق عليهم صفة الإرهابيين. والهدف، كما عبّر عنه شارون بشكل أو بآخر، هو تدمير البقيّة الباقية من الحياة الفلسطينيّة، إمّا للدفع بالفلسطينيين إلى المغادرة في عمليّة تهجير واسعة أو بالتطهير العرقي، بإرسالهم إلى الأردن أو العمل على جعلهم يهاجرون، يهربون أو يموتون موتًا بطيئًا.

أعتقد أنّ الطرح الإسرائيلي إزاء الدفاع عن النفس هو هراء محض. ولو لم يكن انخراط الولايات المتحدة في أماكن أخرى يعلّل بأنّه من أجل حماية الولايات المتحدة لما أمكن لهذا الطرح أن يصمد ولو للحظة. إنّ إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي تستطيع الإفلات بما تقوم به بكل وضوح على شاشات التلفزة، والتلفاز لا يعطي صورة كاملة بالطبع. إنّه لا يقدم الخلفيّة ولا السياق، ولكنّك تستطيع، على الأقلّ، أن ترى مشهد البيوت التي يجري تدميرها والدبّابات التي تجوس في القرى العزلاء. إنّ استخدام كلمات مثل الدفاع عن النفس لوصف ذلك هو تزوير للغة وادعاؤه غير معقول.

على أيّ نحو تتقاطع حرب الولايات المتحدة على الإرهاب مع السياسات الإسرائيليّة في مواجهة الفلسطينيين؟

ـ تمثّل تلك السياسة أعظم هبة لشارون، الذي يداوم على القول بأنّ ما تفعله الولايات المتحدة في أفغانستان من قتالها لأسامة بن لادن والقاعدة هو نفس ما تفعله إسرائيل في الضفّة الغربيّة وغزّة[١٣]، وهي مقارنة مستحيلة ومنافية للعقل مرّة أخرى؛ فالضفّة الغربيّة وغزّة مقسّمتان إلى مناطق صغيرة لا يستطيع الفلسطينيّون أن يتحرّكوا فيها. إنّهم محبوسون هناك مثل السردين في علبة صفيح. وهكذا فإنّ فكرة وجود مراكز للإرهابيين مثل تلك التي تتحدّث الولايات المتحدة عن وجودها في أفغانستان لا تنطبق على الضفّة الغربيّة وغزّة، هذا هو الأمر الأوّل.

الأمر الثاني هو أنّ هناك احتلالاً إسرائيليًا لا يزال قائمًا منذ خمسة وثلاثين عامًا

وهي حقيقة يجري إغفالها، ليس لأنّهم لا يريدون الاعتراف بأنّ ثمّة احتلالاً، بل لأنّهم يعتقدون بأنّ الأرض لهم. منذ أسبوعين فقط رأيت عوزي لانداو وزير الداخليّة في برنامج عرض تشارلي روز Charlie Rose Show يفنّد كلمة احتل(١٤)، ويردّد وزير الدفاع الأميركي رامسفيلد الآن الكلام ذاته(١٥). قال لانداو: «كيف تستطيع قول (احتلال)؟ إنّنا نعود إلى وطننا، وحتى لو كان هناك أناس آخرون، فإنّ ذلك لا يهمّ، فاليهود يمتلكون الأرض بحقّ مقدّس».

يا لها من حجّة سخيفة مرّة أخرى. إنّ أحدًا ما في أيّ مكان آخر من العالم لم يكن ليمتلك الصفاقة والوقاحة لطرح مثل هذه الحجّة!

أمّا النقطة الثالثة فهي أنّ الشك الذي يكتنف النجاح في الحرب على الإرهاب هو نفسه في الضفّة الغربيّة وغزّة وأفغانستان. إنّ أفغانستان بلد مدمّر وقد تمّ قصفه بدون شفقة. والولايات المتحدة تزعم بأنّها اعتقلت معظم أفراد القاعدة أو دمّرت معظم بنيتها، وهي تحتجز حوالى ألفي سجين، بعضهم تحت ظروف غير قانونيّة وغير إنسانيّة في خليج غوانتانامو(١٦). لقد هاجمت الولايات المتحدة أفغانستان أصلاً لتقبض على ابن لادن، وابن لادن قد اختفى والملاّ عمر ليس في أيّ مكان يمكن القبض عليه. وإذا ما تمّ تحقيق شيء فهو أنّ ذلك البلد قد أصبح أكثر اضطرابًا ممّا كان عليه رغم دعم الولايات المتحدة لنظام حامد كرزاي.

إنّني لا أدافع عن طالبان وليس لي مصلحة في مساندتهم، فهم أناس مريعون. ولكن تذكّر أنّ الولايات المتحدة قد دعمتهم، جزئيًا، إبّان الحرب ضدّ السوفييت ولاحقًا خلال الحرب الأهليّة. لقد كانوا يحافظون على النظام، وهو الأمر الذي لا يتوافر حاليًّا. وإذا ما تجوّلت الآن في شوارع كابول، وفي غير كابول بالتأكيد، فإنّك إنّما تقامر بحياتك. إنّ فكرة كون الإرهاب شيئًا يمكن مقاتلته وإيقافه هي أيضًا فكرة غير معقولة لأنّها مجرّد مفهوم ميتافيزيقي لم يخضع أبدًا للتمحيص. وهي فكرة حوّلت الولايات المتحدة، مثل إسرائيل، إلى ضحيّة لنوع من الشرّ المريع شبه الأسطوري، إذ يشعر بوش وشارون كلاهما بأنّهما مكلّفان مثل الصليبيين بمقاتلته بأيّة وسائل تتوافر لديهما. وفي سياق ذلك فإنّ أشياء مثل الأخلاقيّة والتكافؤ وإيقاع الضرر بالمدنيين أصبحت أمورًا يجري تجاهلها.

لقد عملت الولايات المتحدة الآن على تصعيد الموقف بشكل ينسجم مع رغبة

إسرائيل حدّ القول بأنّها مكلّفة بتغيير الأنظمة. وهي تقول علنًا بأنّها تريد تغيير الأنظمة في كل من العراق وفلسطين وإيران وهو ما تفعله إسرائيل نفسها. ثمّة توافق غير عادي وفي منتهى الغرابة بين المصالح الإسرائيليّة والمصالح الأميركيّة في المنطقة؛ لكنّني لا أرى سببًا واحدًا يبرّر ارتباط تلك المصالح بالمصلحة الوطنيّة الحقيقيّة للولايات المتحدة. إنّ يد اللوبي الإسرائيلي قويّة جدًّا هنا، بينما يقوم أشخاص مثل ريتشارد بيرل Richard Perle وباول وولفويتز Paul Wolfowitz ورامسفيلد وكل أتباعهم بدفع هذا البلد إلى حروب سوف تجلب الخراب والدمار، ليس على المنطقة وحسب، ولكن على اقتصاد هذا البلد، بل وعلى استقرار العالم نفسه.

هناك بالتأكيد لوبي إسرائيلي وله بالفعل تأثير على الكونجرس والشعبة التنفيذيّة. لكن هناك عوامل أخرى. حدّثنا عن المصالح الأميركيّة المتعلّقة بالجغرافيا السياسيّة في الشرق الأوسط.

ـ ثمّة ركيزتان أساسيّتان للسياسة الخارجيّة الأميركيّة في الشرق الأوسط: الأولى تتمثّل في ضمان أمن إسرائيل ودعمها كأولويّة أميركيّة، والأخرى في أن تضمن الولايات المتحدة لنفسها تدفّق النفط من العربيّة السعوديّة. وسوف تلاحظ أنّ حملة منظّمة قد شنّت عبر وسائل الإعلام ضدّ السعوديّة ومصر خلال الأشهر الستة الأخيرة، وهما الدولتان الرئيسيّتان المواليتان للولايات المتحدة في المنطقة، ولا أظنّ ذلك يأتي من قبيل المصادفة. إنّ ما هو حاصل هو رغبة أميركيّة إسرائيليّة مشتركة في تغيير خريطة الشرق الأوسط، بحيث تتاح للولايات المتحدة سيطرة مباشرة أكبر على احتياطيات النفط في الخليج. وعبر آليّة تنصيب أنظمة حكم جديدة في هذه البلاد، مثل العراق، سوف تتمكّن الولايات المتحدة من إحلال أنظمة تتناغم مع الرغبة الإسرائيليّة في الإجهاز على أعدائها.

إنّ لدى العراق الإمكانيّة ليكون أقوى دولة عربيّة، فهو يتوافر على النفط والمياه، ولديه سكّان متعلّمون، ولديه حكومة فظيعة يترأسها ديكتاتور جرى إضعافها عن طريق العقوبات الاقتصاديّة لمدّة اثني عشر عامًا. والآن تعتزم الولايات المتحدة الذهاب إلى هناك، وربما تقوم بتقسيمه بحيث لا يعود العراق كيانًا عربيًا قابلاً للنمو والحياة وصالحًا للاصطفاف في مقابل إسرائيل، والشيء نفسه يحدث مع العربيّة السعودية. إنّني لا أدافع عن آل سعود، لكنّهم داوموا على تزويد الولايات المتحدة بالبترول

الرخيص لستّين سنة مضحّين تضحية كبيرة بمصالح شعبهم وبمصالح العالم العربي برمّته.

إنّ هناك الآن حملة تدار ضدّهم، ربما من أجل إسقاطهم أو، على الأقلّ، من أجل تحييدهم بحيث لا يستطيعون لعب أيّ دور في الصراع العربي الشامل ضدّ الاحتلال الإسرائيلي، والشيء ذاته ينطبق على مصر. إنّ كِلا النظامين فاسد على نحو لا شفاء منه، وهما نظامان غير فاعلين واستبداديّان. إنّهما من دول الحزب الواحد، وهما يقمعان حقوق الإنسان. وهناك القليل جدًّا من الديمقراطيّة في مصر أكثر ممّا في السعودية. الفكرة هي إزالة هذين النظامين أو تطبيعهما بينما يتمّ تحييد العراق من طريق الحرب، وفي الوقت نفسه يجري التخلّص من أيّة مكاسب استراتيجيّة قد يحصل عليها الفلسطينيّون من هذه الدول التي كانت تدعم كفاحهم. وربما تكون الفكرة هي تشويش أيّ دعم يحصل عليه الفلسطينيّون وإلغاؤه. ويمكن لذلك أن يتمّ عبر تحييد العربيّة السعوديّة وإقصائها عن طريق الاستيلاء على حقول النفط، وتحييد مصر وتدمير العراق. وبتغيير الأنظمة هناك وفي إيران تصبح لديك خريطة جديدة للشرق الأوسط، والتي تلائم إسرائيل بشكل رائع.

لطالما فكّر شارون بهذه الطريقة. في عام ١٩٨٢ ذهب إلى لبنان، ليس ليدمّر منظّمة التحرير الفلسطينيّة، وهو ما لم يفعله، وإنّما ليغيّر الحكومة وينصّب بشير الجميِّل حليفًا ليِّن العريكة وسهل القياد لإسرائيل[١٧]. وقد تمّ اغتيال الجميِّل مباشرة عقب تولّيه مقاليد السلطة[١٨]. ولكن لا يبدو أبدًا أنّ شارون قد تعلّم الدرس. إنّه لا يزال يعتقد بأنّ منطق القوّة ودعم الولايات المتحدة سوف يمكّنانه من إعادة رسم الخريطة أو يمكّنانه من لعب دور الإله. لكنّه لسوء الحظّ، يجد في بوش وفي جماعة البنتاغون فريقًا من الحلفاء والمريدين الذين يعتنقون الهراء نفسه الذي لا يعدو كونه شيئًا مجرّدًا ونظريًّا إلى حدّ كبير. إنّهم يعرفون القليل جدًّا عن الشرق الأوسط والعالم الإسلامي.

والنتيجة، موجة عارمة من العداء للأميركانيّة والمزيد المزيد من الاستياء اللذين ستزيد هذه السياسة من تفاقمهما. ثمّة محاولات تجري لإنشاء محطّة إذاعيّة وتوجيهها إلى العرب بغية كسبهم إلى جانب الولايات المتحدة وأفكارها، لكنّ العرب ليسوا حمقى، والقيم الأميركيّة التي يداوم بوش على التحدّث عنها ربّما لا توجد إلاّ في رأسه وفي رؤوس القلّة التي تلتفّ من حوله. لكن ما أصبح يراه

العرب والمسلمون والأوروبيّون أكثر وأكثر إنّما هو دولة تنتهك القانون الدولي، دولة تمزّق معاهدات وترفض التوقيع على أخرى، دولة تعتقد بأنّها استثنائيّة وفوق الجميع في كل شيء. هذا هو ما يراه الناس، وهم لا يرون القيم الأميركيّة، أنّى تكن تلك القيم. إنّ ما نصدره من هذا البلد، بعيدًا عن السلع الاستهلاكيّة، هو شيء جدّ مفارق للديمقراطيّة والحرِّيَّة اللتين تتحدّث عنهما الولايات المتحدة. وأظنّ أنّنا نتّجه نحو أوقات عصيبة.

في أواخر تمّوز، قال البروفيسور شبلي تلحمي، الأستاذ في جامعة ميريلاند للجنة الشؤون الخارجيّة في مجلس النوّاب إنّ: «ثمّة استياءً شديدًا من سياسات الولايات المتحدة في المنطقة»[١٩]. إذا ما كانت تلك التقديرات صحيحة، لماذا تقوم الولايات المتحدة إذن بالاستمرار في انتهاج سياسات تولّد مثل هذا النوع من العداء والحقد؟

_ هذا سؤال مهمّ جدًّا، ربّما لأنّه كان هناك على الدوام تشوّه في القدرة على الفهم، ناجم في معظمه بسبب إسرائيل. إنّ قوّة اللوبي الإسرائيلي قد أصبحت على سويّة تستطيع معها أن تحرّف السياسة الإسرائيليّة بحيث تمنح الأولويّة لرفاه إسرائيل، وقد ترسّخ هذا الفهم الآن بحيث بات يشكّل نوعًا من الرؤية الثابتة في سياسة الولايات المتحدة، وهو ما تمثّله بالتأكيد حالة الخطاب السياسي في هذا البلد. سأعطيك مثالاً: ثمّة سلالة حاكميّة بدائيّة تولّد في نيويورك، هذا كارل ماك كول Carl McCall يهرول ليصبح حاكمًا، ويشعر بأنّ من الضروري والملحّ أن يثبّت أقدامه ويمنح لنفسه الشرعيّة بالذهاب إلى إسرائيل، ولذلك ذهب إلى مستوطنة في الضفّة الغربيّة وأطلق رصاصة بندقيّة على «الإرهابيين» ليبرهن على ولائه لإسرائيل ودعمه المخلص لها ولمستوطناتها[٢٠]، وهذا شيء روتيني، فهيلاري كلينتون تفعل الشيء نفسه، وكل سيناتور ومحافظ، مع القليل من الاستثناءات مثل حالة سينثيا ماك كيني Cynthia McKinney، سيوقّع رسالة يقول فيها إنّنا ندعم إسرائيل، وإنّنا لا ينبغي أن نجرّح شارون، وقد تكرّس هذا السلوك وأصبح راسخًا ومبيّتًا.

وإلى جانب ذلك، ثمّة جهل شعبي هائل بماهيّة الوضع الماثل في الشرق الأوسط. فالعرب لم تكن لديهم أبدًا سياسة إعلاميّة موحّدة. وعرب الولايات المتحدة ليسوا سوى أقلِّيَّة صغيرة إذا ما قورنوا بالأقلِّيَّة اليهوديّة الأكثر نفوذًا وثروة

والأكثر تنظيمًا. ويُنظَر إلى العرب بوصفهم إرهابيين ومتعصّبين، ويجري تشخيص الإسلام بوصفه دينًا عنيفًا. وبالطبع، أسهمت أحداث السنوات الأخيرة الماضية في ترسيخ ذلك. إنّه ليس مسموحًا لك بأن تحاول إيضاح أيّ من مكونات هذا الفهم الذي أملاه علينا اليساريّون السابقون أمثال كريستوفر هيتشينز Christopher Hitchens ومايكل إيجناتييف Michael Ignatieff ومايكل والزر Michael Walzer، هؤلاء الذين انضموا إلى هذه الحملة الشرسة الساعية إلى القول بأنّ الإرهاب الإسلامي هو شيء مستقل بذاته، وبأنّه مستقرّ ومقيم في جوهر الإسلام ولبّه وبنيته، «الفاشيّة الإسلاميّة»[٢١]. إنّهم ينشرون هذا البيت من الشعر ويروّجون له. وينجم عن ذلك أن تتمّ المصادرة على أيّ نقاش محترم وعقلاني.

إنّك لا تجد أيّ شيء في الإعلام يشكّل دفوعًا ضدّ هذه المزاعم المنافية للعقل والمنطق. هناك أشخاص مثل دينيس روس Dennis Ross، المفوّض السابق لعمليّة السلام في الشرق الأوسط في فترة إدارة كلينتون، وهو الذي كان اللوبي الإسرائيلي يدفع له قبل أن يحتلّ منصبه ولا يزال يدفع له إلى الآن منذ غادره. إنّه يظهر على التلفاز ويقول بأنّ العرب قد رفضوا وقوّضوا كل تلك العروض الرائعة التي قدّمها الإسرائيليّون. إنّ إسرائيل دولة محبّة للسلام والعرب هم المقصّرون، ولذلك فإنّه ينبغي لنا أن ننبذ هذا الجزء من العالم. (؟) .nuke وقد تكرّس هذا الفهم مع السخط والغضب المبرّرين بعد الحادي عشر من أيلول، حيث أصبح الإعلام يقول: نعم، هذا ما ينبغي فعله في الحقيقة.

إنّ حقيقة وجود ٢٨٠ مليون عربي و١,٣ بليون مسلم في العالم، ليسوا كلّهم سواء، وليسوا كلّهم إرهابيين، كل ذلك يتمّ تجاهله. ثم تجد نفسك في هذا الخضمّ من التجريدات والتعميمات التي يروّج لها من يُدعون بـ «المستشرقين المميّزين» أمثال برنارد لويس Bernard Lewis وآخرين، والذين يقولون بأنّ العالم الإسلامي برمّته قد ذهب إلى الخطل[٢٢]. ويبدو الأمر وكأنّما لويس يتحدّث عن أولاد في حضانة يسيئون التصرّف ويجب أن يوضعوا في مدرسة للإصلاح. وينتج عن ذلك استحالة إثارة أيّ نقاش عقلاني حول مصالح الولايات. وإذا ما حاولت شيئًا من ذلك، فإنّك سرعان ما تتهم بالعداء للساميّة. ولكن، معظم الوقت يمكنك حتى أن تجد الوقت والمكان لتطرح وجهة النظر هذه. وإلى جانب ذلك، يوجد شعور باللامبالاة لدى جمهور لا

يمثّل له الشرق الأوسط سوى مكان قصي يغصّ بالإرهابيين والناس الراغبين في قتلنا. وهكذا فإنّنا ننساق إلى مزيد من الحروب، والمزيد من الدمار والمعاداة للأميركانيّة(*).

في تقديمه لكتاب «القلم والسيف» كتب إقبال أحمد: «يعاني الفلسطينيّون من حظّ عاثر ناجم عن كونهم يتعرّضون للاضطهاد على يد خصم نادر، على يد شعب عانى بنفسه بعمق ولزمن طويل من محاولة تصفيته»(٢٣).

ـ كنت أقول على الدوام: نحن ضحايا الضحايا. لقد تمّ خلق إسرائيل في أعقاب الحرب العالميّة الثانية والمحرقة. وكانت هناك حركة صهيونيّة بدأت في التشكّل خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وكانت هناك مستوطنات في فلسطين قبل وقت طويل من الحرب العالميّة الثانية، وهناك إرهاب يهودي ضدّ البريطانيين الذين كانوا منتدبين على فلسطين، وقد تمّ نسيان كل ذلك. إنّ ما يتذكّره الناس، وهو صحيح إلى حدّ ما، هو أنّه لم يكن لليهود في أوروبا مكان يذهبون إليه بعد الحرب؛ فالأوروبيُّون لم يكونوا يريدونهم وكذلك الأميركيُّون. وقد لعبوا، من وجهة نظري، على أيدي الصهاينة أمثال بن غوريون الذي أخذهم إلى فلسطين، وفي غضون ذلك طرد وصادر ممتلكات شعب كامل.

لم تكن فلسطين أبدًا بلدًا خاليًا من السكّان، بل كان الناس يعيشون هناك طوال الوقت؛ وقد تمّ إخراج شعب قوامه ثمانمائة ألف نسمة عام ١٩٤٨، وهو الأمر الذي نعرفه الآن من السجلاّت العسكريّة الإسرائيليّة. وقد استفادت إسرائيل عبر السنوات الخمس والأربعين الماضية من هالة عقدة الذنب الأوروبيّة والمسيحيّة والأميركية إزاء ما حدث لليهود في أوروبا. ولسوء الحظ، دفع الفلسطينيون الثمن. لقد بات يُنظر إلينا دائمًا على أننا معادون لليهودية. وهناك تكرار للازمة قتل الأطفال اليهود، بينما نحن في الحقيقة عاجزون عن فعل أيّ شيء ضدّ أيّ فرد من أفراد أكثر المؤسّسات العسكريّة جبروتًا في العالم. وهكذا، فإنّه لا بأس بقتل الفلسطينيين لأنّهم يقومون على نحو ما باستكمال النهج النازي. وهذا ما قاله رئيس الوزراء الإسرائيلي بيغن

(*) يستخدم إدوارد سعيد في غير مكان من كتاباته وأحاديثه مصطلح «المعاداة للأميركانيّة» Anti-Americanism كتعبير يهدف إلى استعارة التداعيات التاريخيّة والإنسانيّة من مفهوم «المعاداة للساميّة» الشائع Anti-Sematism. (المترجم).

بالضبط عام ١٩٨٢ عندما قامت قوّاته بغزو لبنان[٢٤].

ثم، هناك مسألة الالتزام الأخلاقي. خذ ألمانيا على سبيل المثال: إنّها تعاني من موقف صعب على هذا الصعيد لأنّ المحرقة كانت ظاهرة ألمانيّة، ولا تزال علاقتها بإسرائيل حسّاسة للغاية. ومع ذلك، فإنّ الشجاعة تقتضي من ألمانيا وبريطانيا كليهما، وهما مهندستا المأساة الفلسطينيّة، أن تضطلعا بمواجهة مسؤوليّاتهما. فعندما اقترف الألمان فعل المحرقة، وعندما ترك البريطانيّون فلسطين للصهاينة، فإنّما كانوا يصنعون مأساة الشعب الفلسطيني. إنّ ذلك حقل ألغام شائك يصعب الخوض فيه. ولكن يبدو لي على الأقل بأنّ الشيء الواضح في ذلك وضوح الشمس هو وجود حقّ واضح بتحقّق العدالة الأخلاقيّة لصالح الجانب الفلسطيني. إنّ الكثيرين منّا يقولون: لماذا يتوجّب علينا أن ندفع الفاتورة التي فرضتها أوروبا علينا بسبب ما فعلته هي باليهود؟ وقد أمضى اليهود، تاريخيًّا، أوقاتًا في العالم العربي والإسلامي أفضل بما لا يقاس من تلك التي قضوها في الدول المسيحيّة. وهناك تاريخ طويل من المجتمعات اليهوديّة في كامل الشرق الأوسط تعود إلى أيّام بواكير المسيحيّة، وكانت لهم على الدوام تجمّعات في أماكن مثل العراق واليمن ومصر حيث كانوا يشعرون بأنّهم جزء من نسيج تلك البلدان، ولم تكن هناك حركة يعتد بها للرحيل من هذه البلدان إلى فلسطين لتأسيس دولة يهوديّة. لقد كانوا يشعرون بأنّهم جزء من المزيج الشرق أوسطي الذي يضمّ العديد من الأعراق والديانات.

لكن تلك الحالة التي كان عليها الشرق الأوسط جرى تغييرها بحيث أصبح منطقة تتجه نحو تحقيق فكرة النقاء العرقي الأسطوريّة. وهكذا فإنّ إسرائيل تقاتل الفلسطينيين وتقتلهم في سبيل الحفاظ على الشخصيّة اليهوديّة للدولة. ويكمن الحلّ الوحيد، فيما أرى، في القول بأنّ هذه أرض لشعبين، والتي يوجد فيها شعبان في الحقيقة. والأمل الوحيد هو أن يسعى هذان الشعبان إلى التعايش في إطار من المساواة، وليس أن يعيش أحدهما كطبقة مرؤوسة وتابعة للطرف الآخر. لكنّ المزاعم اليهوديّة قد أصبحت، كما أقول، شديدة السطوة على ضمير الغرب بحيث أصبح صعبًا على الفلسطينيين مقاومتها تحت عنوان حقوقنا المستلبة واضطهادنا وترحيلنا عن أراضينا.

لكن ذلك يحدث. فقد بدأ المزيد والمزيد من الناس يدركون بمرور الوقت أنّ

الممارسات الإسرائيليّة لا يمكن تبريرها بدوام الإشارة إلى المحرقة بين الفينة والأخرى. صحيح أنّ إسرائيل دولة مستقلّة، لكنّها لا تزال الدولة الوحيدة في العالم التي لم تعلن عن حدودها بعد. ثمّة خطوط هدنة وحسب، وبذلك تعطي إسرائيل لنفسها الحقّ بالتوسّع وبالاستيلاء على مزيد من الأرض، وبالقذف بالمزيد من الناس إلى الخارج، وهو أمر لا صلة له أبدًا بالهولوكوست. إنّه محض تعصّب مفرط وفوضوي من النوع الشديد الخطّ، وسوف يفضي ببساطة إلى إدامة ناتج في منتهى الدمويّة. لقد استطاع الكثير من الإسرائيليين أن يكتشفوا بأنفسهم أنّ هذه سياسة انتحاريّة، لأنّه بغضّ النظر عمّا تفعله إسرائيل بالفلسطينيين، وبافتراض نجاحها في إبادتهم أو طردهم خارجًا، فإنّها ستظلّ محاطة بدول عربيّة معادية تزداد روح العداء لديها كل يوم بسبب المشاهد التي تُعرض الآن باستمرار على شاشات التلفزة العربيّة، بل والعالميّة. إنّ الإسرائيليين يراكمون مخزونًا من الاستياء والغيظ، بل والكراهية التي ستدوم لأجيال قادمة. إنّ سياستهم قصيرة النظر جدًّا. لا ينبغي لهم افتراض أنّ الولايات المتحدة ستظلّ تدعمهم للأبد، وأنّ بقيّة العالم ستسمح لهم بأن يمضوا قدمًا في خرق القانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة. ثمّة نقطة معيّنة، سيتوجّب عليهم عندها دفع فاتورة الحساب.

هناك حفنة من العوامل الأخرى التي تشكّل وتؤثّر على سياسة الولايات المتحدة الشرق الأوسطيّة والتي أودّ التعليق عليها. الأمر الأوّل هو أنّ متعهّدي الأسلحة الأميركيين من أمثال لوكهيد مارتن Lockheed Martin وشركة بوينج ونورثروب جرومان Northrop Grumman مهتمّون بشكل واضح بأن تبقى المنطقة في حالة فوضى وصراعات من أجل بيع المزيد والمزيد من الأسلحة. والأمر الثاني هو الحماس الذي يبديه عناصر الحقّ المسيحي Christian Right لمساندة السياسات الإسرائيليّة.

ـ لنأخذ الأمر الأوّل وهو عنصر شديد الأهمّيّة. أظنّ أنّ لدى كل واحدة تقريبًا من المقاطعات الخمسمائة الممثّلة في الكونجرس في هذا البلد صناعات دفاعيّة من نوع ما. وقد أصبح بيع الأسلحة للخارج، وهو من الصادرات الأميركيّة الرئيسيّة، مسألة وظائف وليس مسألة دفاع. هذا من ناحية. أمّا من الناحية الأخرى فإنّ الشرق الأوسط ينفق على شراء الأسلحة أكثر ممّا تنفقه أيّة منطقة أخرى من العالم، وتعدّ

العربيّة السعوديّة واحدًا من أكبر مشتري الأسلحة الأميركيّة[٢٥]. وثمّة واقع يغفله أولئك الذين يشنّون الحملات ضدّ العربيّة السعوديّة، وهو أنّ كلاً من العربيّة السعوديّة والإمارات العربيّة المتحدة والكويت وقطر تقوم بشراء الصواريخ الموجّهة بالليزر وأكثر الطائرات المقاتلة تطوّرًا، ولكنّها غير قادرة على استخدامها، وهو أمر ينطوي على المفارقة ويبعث على السخرية.

وبالإضافة إلى ذلك، تقوم الولايات المتحدة بتزويد الجيش المصري بالأسلحة، وهو أكبر مستخدم فرد في مصر. وتظلّ الأسلحة بلا فائدة. فهي تشوّه بنية الاقتصاد وتُشتَرى على حساب رفاه الشعب، على حساب مخصّصات التعليم والصحّة العامّة ونقل التكنولوجيا وأشياء أخرى والتي أصبحت محدودة للغاية بسبب كمّيّات الأسلحة تلك. ويتمّ فعل ذلك كلّه عملاً بمشورة الولايات المتحدة لمصلحة شركات كتلك التي تفضّلت بذكرها. وما يؤدّي إليه ذلك في حالة كل من إسرائيل ومصر والبلدان الأخرى هو عسكرة المنطقة. وهكذا، فإنّ هناك على الدوام طبقة عسكريّة متبطّلة وضخمة جدًّا، وهي التي تقوم بقمع الشعب وإخضاعه في حالة مصر. ويبدو المصريُّون غير راغبين بالذهاب إلى الحرب أو الذهاب إلى السلام. أمّا في حالة إسرائيل، فإنّه يجري تزويدها بأكثر الأسلحة تطوّرًا، والتي تستخدمها بدءًا ضدّ المدنيين الفلسطينيين.

هناك الآن، وأنا سعيد بأن أنقل إليك ذلك، حركة انفصال متنامية في حرم الجامعات الأميركيّة تطالب بأن تفكّ تلك الجامعات ارتباطها مع بعض من تلك الشركات التي لها صلات عمل عسكريّة الطابع مع إسرائيل[٢٦]. وهذه الحركة التي تتنامى على نحو يثير الدهشة تحذو حذو حركة مناوأة سياسة التمييز العنصري في جنوب إفريقيا خلال السبعينيّات والثمانينيّات. خذ حالة شركة «كاتربلر» Caterpillar، والتي لديّ سبب محدّد لاختيارها، لأنّ جرّافاتها هي التي تستخدم لهدم المنازل الفلسطينيّة على رؤوس ساكنيها. إنّ شركات مثل هذه تغدو الآن تحت الأمن العام، جالبة الانتباه لهذا الإشعال غير المقدّس للنيران العسكريّة المشتعلة في الشرق الأوسط، والتي تصبّ بالطبع في مصلحة الشركات الأميركيّة. وهي وبطريقة غير مباشرة، تزيد من سيطرة الولايات المتحدة. تلك هي الفكرة. ولأنّه مع الأسلحة تلزم قطع الغيار والمدرّبون وهكذا، فإنّ ذلك يزيد من التزام السعوديين تجاه الأميركيين، والذين يستطيعون بدورهم عندئذ وضع مزيد من القوّات في المنطقة.

ماذا عن الحقّ المسيحي؟

ـ ثمّة مفارقة كبيرة تنطوي عليها أطروحات أشخاص مثل بات روبرتسون Pat Robertson، وجيري فالويل Jerry Falwell وآخرين، والذين يجاهرون بتزكية دعم إسرائيل إلى أقصى درجة، إلى درجة القول بأنّ الفلسطينيين قتلة، والمسلمين مرتدّون وخارجون وملحدون ومتعصّبون عنيفون. لكنّك لو نظرت إلى الأمر بتمعُّن، وقد قمت أنا بدراسته لأنّ منزل عائلتي في القدس يحتلّه الآن شيء يدعى السفارة الدوليّة المسيحيّة International Christian Ebmassy؛ وهي واحدة من أكثر الجماعات المسيحيّة تزمُّتًا وتتكوّن من الأميركيين أساسًا. إنّك لو تمعّنت في الهدف الكامن وراء عمل كل هذه المجموعات لوجدت أنّها في أعماقها معادية للساميّة. إنّهم يدعمون إسرائيل، ولكن بأيّ معنى؟ إنّهم يقولون إنّ إسرائيل هي بلد اليهود، وإنّها أعطيت لهم من قبل الربّ، ويجب أن يذهب اليهود إلى هناك بأعداد أكبر وأكبر، وهذا هو الحلم الصهيوني بذاته الذي يقول بأنّ الشتات ينبغي له أن ينتهي، وأنّ على كل اليهود أن يعودوا إلى صهيون.

لكنّ الحقّ المسيحي يذهب شأوًا أبعد فيقول بأنّه لكي يتسنّى للمسيح أن يعود، فإنّ على اليهود جميعًا أن يكونوا في فلسطين، وسوف تتضمّن القيامة الثانية حينئذ حربًا كبيرة يتمّ فيها قتل كل اليهود الذين لا يتحوّلون إلى المسيحيّة، وسيبدأ حينئذ العصر الجديد للعالم. وهكذا فإنّ خلف هذا الاهتمام فوق العادي بإسرائيل هدفًا معاديًا للساميّة على نحو عميق ومتطرّف، وهو تدمير اليهود بمجرّد أن يتجمّعوا في صهيون. إنّ هناك علاقة تطابق بين الحقّ المسيحي والحقّ الجمهوري، وهناك نسبة كبيرة جدًّا من سكّان جنوب وغرب الولايات المتحدة، من سبعين إلى ثمانين مليونًا، يعتبرون جورج بوش زعيمهم. وهكذا فإنّ هؤلاء الناس الذين يخدم بوش مصالحهم يدعمون كليّة سياساته المعادية للفلسطينيين، والتي لا تنطوي على أيّ تفهّم لمعاناتهم، تمامًا كما هو حال اللوبي الإسرائيلي الذي لا يكفّ عن الانعطاف نحو اليمين بالتحديد باتجاه العدو الذي حدّده في السبعينيّات والثمانينيّات، بل إنّه تخطّى ذلك الآن إلى الجانب الآخر وأصبح يناصر «الحقّ المسيحي» ويدعمه ويساعده بالتمويل والدعاية، وتتداعى إلى الذهن مباشرة كلمة «تشويه» لتشخيص ذلك. لقد أصبح ذلك أمرًا متنافرًا وغير متساوق على نحو بشع.

لنعد مرّة أخرى إلى صديقك الحميم إقبال أحمد الذي مات في الباكستان عام ١٩٩٩. في عام ١٩٩٨ قال إقبال إنّ: «أسامة بن لادن يشكّل مؤشّرًا على أشياء ستأتي». وعندما طلبت إليه أن يوضّح ما ذهب إليه، قال: «لقد غرست الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وجنوب آسيا بذورًا سامّة جدًّا هي الآن في طور النمو، بعضها نضج وبعضها لم يزل في طور النضوج. ونحن نحتاج إلى فحص الأسباب وراء غرسها وما الذي تمخّضت عنه وكيف ينبغي أن تحصد. إنّ الصواريخ لن تحلّ المشكلة»[٢٧]. ما الذي يمكن أن يحلّ المشكلة إذن؟

أظنّ أنّ على المرء أن يكون متطيّرًا إزاء ذلك. إنّ الولايات المتحدة لا تمثّل ببساطة مجموعة من الأفراد أمثال بوش ورامسفيلد. وإذا ما قلنا بأنّ هؤلاء يجب أن يذهبوا ويُستبدَلوا بأناس أكثر تفهّمًا، فإنّ ذلك لن يكون كافيًا. إنّها مسألة نظام، بل هي مسألة منظور كامل. إنّ المواطنين يجب أن يصبحوا أكثر إدراكًا وأكثر دراية وأن يعلموا أكثر، خاصّة وأنّنا نبدو الآن وكأنّنا على أعتاب طور أكثر عدائيّة بات يتشكّل مع الحرب المزمعة لتغيير نظام الحكم في العراق. أعتقد أنّ ما نحتاج إلى فعله توسيع نطاق الوعي بماهية الرهانات (الخوازيق) في الشرق الأوسط، وأن نميّز وندرك للمرّة الأولى أنّ الشرق الأوسط ليس مجرّد مجموعة من المسلمين المتشدّدين.

ثمّة حركات من أجل حقوق الإنسان في كل بلد عربي رئيسي، وهناك حركات تعمل لأجل حرِّيَّة تدفّق المعلومات وحرِّيَّة التعبير، وهناك حركة نسائيّة تزدهر بشكل ملحوظ. إنّ عدد النساء الناشطات اجتماعيًّا في السنوات العشر الأخيرة قد تصاعد على نحو دراماتيكي. وهناك ثقافة ليبراليّة في بلدان مثل مصر وحتى في الكويت، كما أنّ هناك ثقافة ليبراليّة تناضل ضدّ الإسلاميين، ولكنّها تناضل أيضًا ضدّ تسلّط جماعة بعينها سواء كانت أوليغاركيّة أو حكم العائلة الواحدة. وهكذا، فإنّ هناك هذه التباينات. ولكن ما نفتقده هو إدراك ديناميكي لجدليّة هذا الحراك. ينبغي أن نراه بما هو، وأن نضع أنفسنا في مكان نصبح فيه جزءًا من ذلك الحوار الذي ينبغي أن يدور، لنقل، بين المثقّفين الأميركيين والمثقّفين العرب والمسلمين بدل أن يقوم واحدنا بوعظ الآخر ويحمل له الضغينة.

لا أريد أن أطرح نفسي كنموذج لكنّني أنتمي إلى كِلا العالمين. وقد وجدت على الدوام أنّ من الممكن أن أتعايش مع العالمين، لأنّ هناك أناسًا ذوي عقليّات متشابهة

في كِلا العالمين، والذين يرغبون في التعايش ويؤمنون بالنقاش العقلاني، والذين يؤمنون بالسياسة العلمانيّة أكثر من الدينيّة، والذين يعتقدون بأنّ القوّة والعسكرة والإخضاع هي في منتهى العقم بحيث يجب أن يتمّ تحاشيها وتجنّبها بأيّ ثمن. وأنا أقف الآن على نقطة حيث، رغم أنّني لست من دعاة اللاعنفيّة، فإنّني راغب في تزكية اللاعنفيّة لأنّه قريبًا ربّما سيتهاوى الكثير. الجيوش بلا جدوى، وعندما تصبح مفيدة كما هو في حالة إسرائيل والولايات المتحدة، فإنّها تخلق المزيد من الدمار وتزرع بذور المزيد من الخصام بين الأجيال القادمة. أعتقد بأنّ هناك الكثير من الناس الذين يرغبون في سماع هذه الرسالة في العالم العربي والولايات المتحدة. وقد كانت المشكلة تتلخّص في إيجاد الكيفيّة التي تجعل فيها هؤلاء الناس يلتقون ويفهم كلّ منهم الآخر مع وجود قرع طبول الإعلام وعناد الحكومة واسترسالها في الإثم بمؤسّساتها!.

أعتقد أنّ هناك أملاً في المجتمع المدني المتمثّل في الكنائس والجامعات والأماكن التي تتمتّع بحرِّيَّة نسبيّة في المناقشة. وقد بدأ العديد من الناس الذين ينتمون إلى جيل بعد جيلي بإدراك ذلك. هذا هو الأمل الوحيد في التغيير الذي لا أظنّه سوف يتأتّى من الانقلابات أو تغيير الأنظمة على النحو الذي تتحدّث عنه إدارة بوش.

الهوامش

(1) Jonathan Steele, «For Hire: The Boy Human Shields in Gaza's Most Desperate Town,» *The Guardian* (London), August 6, 2002, p.2.

(2) See Ewen MacAskill, «Schools, Banks, and a Puppet Theatre Trashed,» *The Guardian* (London), April 26, 2002, p. 13.

(3) See chapter 2, note 5.

(4) See Joshua Hammer, «Road Rage and the Intifada,» *Newsweek*, July 30, 2001, p. 20.

(5) See Edward W. Said, «Punishment by Detail,» *Al-Ahram Weekly* 598 (August 8-14, 2002). Online at http://www.ahramoorg.ed/weekly/2002/598/op2.htm.

(6) Tal Muscal, «Foreign Worker Permits Continue to Rise Despite Government Decision,» *Jerusalem Post*, December 19, 2002, p. 11.

(7) Khaled Abu Toameh and Melissa Radler, «Palestinian Society Teetering on Edge of Ruin, UNRWA Warns,» *Jerusalem Post*, December 12, 2002, p.2, Wilkinson, «Palestinian Towns Wobbling on Last Legs.»

(8) Ramit Plushnick-Masti, «Sharon Calls Palestinian Authority a 'Terror Posse',» Associated Press, August 8, 2002.

(9) See chapter 2, note 5.

(10) See Dan Izenberg, «Report Slams 'Association' Policy,» *Jerusalem Post*, October 17, 2002, p.3, referencing reports by the Public Committee Against Torture in Israel (PCATI) and the Palestinian Society for the Protection of Human Rights and the Environment (LAW).

(11) Sharon called the assassination of Salah Shehada a «great success.» Suzanne Goldenberge, Brian Whitaker, and Nicholas Watt, «Sharon Hails Raid as Great Success,» *The Guardian* (London), July 24, 2002, p. 1; Anton La Guardia, «Israel Divided by Policy of 'Target Killing',» *Daily Telegraph* (London), July 26, 2002, p. 16.

(13) See Gary Younge, «Lots of Wars on Terror: The Bush Doctrine Is Now a Template fo Conflicts Worldwide,» *The Guardian* (London), December 10, 2001, p. 17.

(14) Interview with Uzi Landau, *The Charlie Rose Show*, PBS, June 28, 2002.

(15) Rumsfeld referred to the «so-called occupation» of Palestinian land. Barbara Slavin, «Rumsfeld View Veers from Mideast Policy,» *USA Today*, August 7, 2002, p. 10A.

(16) See Julian Borger, «Civil Liberties Clampdown: Rights Flouted at Guantanamo Bay,» The Guardian (London), September 9, 2002, p. 4.

(17) Robert Fisk, Pity the Nation: Lebanon at War, 3rd ed. (London: Oxford University Press, 2001), p. 274.

(18) Fisk, *Pity the Nation*, pp. 353-55.

(19) Shibley Telhami, Testimony, Senate Foreign Relations Committee, Washington, D.C., Federal News Service, July 31, 2002.

(20) See Adam Nagourney, «McCall's Israel Trip Lingers As Issue in Governor's Race,» *New York Times*, March 13,p. B5; Susan Saulny, «Demonstrations Highlight Deep Divisions Over Growing Conflict in Middle East,» *New York Times*, April 6, 2002, p. B5.

(21) See Oliver Burkeman, «Nation Loses its Voice,» The Guardian (London), September 30, 2002, p.7.

(22) Bernard Lewis, *What Went Wrong? Western Impact and Middle Eastern Response* (New York: Oxford University Press, 2002). See Edward W. Said, «Impossible Histories: Why the Many Islams Cannot be Simplified» (review of Bernard Lewis' *What Went Wrong? Western Impact and Middle Eastern Response and Karen Armestrong's Islam: A Short History), Harper's Magazine*, July 2002.

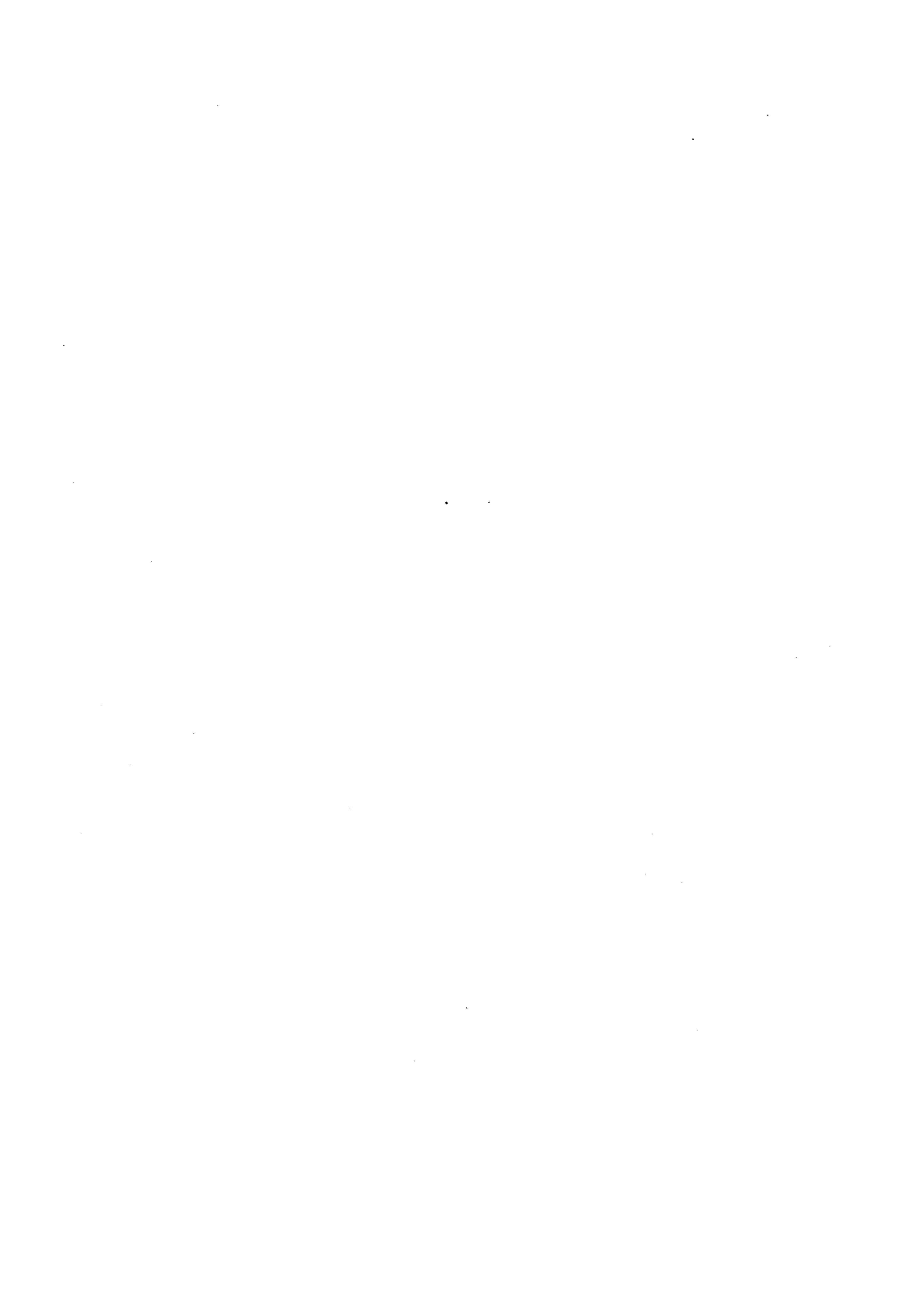
(23) Eqbal Ahmad, Introduction, in Edward W. Said, *The Pen and the Sword: Conversations with David Barsamian* (Monroe, Maine: Common Courage Press, 1994), p. 15.

(24) See Edward Cody, «Soldier' or 'Terrorist'; Through a Mideast Looking Glass,» *Washington Post*, July 7, 1982, p. A1.

(25) See chapter 2, note 36.

(26) See Matthew MacLean, «Students Demand Divestment, This Time Targeting Israel,» *Christian Science Monitor*, April 9, 2002, p. 14.

(27) Ahmad, *Eqbal Ahmed*, p. 135.



على موعد مع النصر

New York, February 25, 2003

أي دور يمكن أن تضطلع به الثقافة في حركات المقاومة؟

ـ خذ المقاومة الفلسطينيّة كحالة ذات صلة. إنّها تضمّ إطارًا كاملاً من أشكال التعبير الثقافي، الذي بات يشكّل جزءًا من تماسك الهويّة الفلسطينيّة وبقائها؛ فهناك سينما فلسطينيّة ومسرح فلسطيني وشعر فلسطيني وأدب بكل ضروبه، كما يتوافر خطاب فلسطيني نقدي وسياسي. وعندما يتعلّق الأمر بالهويّة السياسيّة عندما تكون عرضة للتهديد، فإنّ الثقافة تمثّل أداة للمقاومة في مواجهة محاولات الطمس والإزالة والإقصاء. إنّ المقاومة شكل من أشكال الذاكرة في مقابل النسيان. وبهذا الفهم، أعتقد أنّ الثقافة تصبح على قدر كبير من الأهمِّيَّة.

لكن هناك بعدًا آخر للخطاب الثقافي يتعلّق بالقدرة على التحليل، بمعنى أن تتخطّى القوالب الجاهزة وتضطلع بمهمّة تصحيح الأكاذيب التي لا تني تصدر عن السلطة. أن تقوم بمساءلة السلطة وبالبحث عن بدائل؛ وهذه الأشياء تمثّل أيضًا جزءًا من أسلحة المقاومة الثقافيّة.

يمكن للثقافة أن تشكّل تهديدًا للسلطة، ويتداعى إلى ذهني الآن غزو بيروت عام ١٩٨٢ الذي قاده آرئيل شارون وتمّ خلاله تدمير وتخريب المكاتب التي تضمّ الملفّات الفلسطينيّة. وبعد عشرين سنة، جرى غزو جديد لرام الله تحت قيادة شارون أيضًا حيث تمّ تخريب ونهب مركز خليل السكاكيني الثقافي[١].

ـ إنّ ما تشير إليه هو في الحقيقة أمر بالغ الأهمِّيَّة. لقد حمل المركز الذي ذكرْت اسم رجل كان مربّيًا ومعلّمًا قبل عام ١٩٤٨. كان الرجل صديقًا لعائلتي واعتدت على

رؤيته وهو يأتي إلى منزلنا عندما كنت لم أزل صبيًّا. وقد عُرف الرجل بمدرسته التي كان يديرها والتي كان يؤمّها الكثيرون من أبناء البورجوازيّة الوطنيّة والقوميين. لم تكن تلك المدرسة جزءًا من النظام التعليمي الخاضع لسلطة الانتداب ولم تكن مدرسة إنجليزيّة، وإنّما كانت مدرسة وطنيّة وغير طائفيّة اضطلعت بدور تعليم الشباب الفلسطيني كيفيّة استيعاب إرثهم الثقافي والسياسي. كان السكاكيني مسيحيًّا، لكنّ العديد من أشهر تلامذته كانوا من المسلمين، ومثلّث مدرسته بوتقة ومركزًا هامًّا لتشكيل الوعي الوطني. وهكذا، فإنّ مركز السكاكيني في رام الله الذي يحمل إسمه إنّما يشكّل رمزًا للحياة الوطنيّة والثقافيّة والفكريّة الفلسطينيّة، ولذلك أصبح هدفًا للإسرائيليين.

عام ٢٠٠٢، قام الإسرائيليُّون بنهب ونقل محتويات مكاتب دائرة الإحصاءات الفلسطينيّة المركزيّة، وصادروا كل أجهزة الحاسوب ودمّروا الأقراص الصلبة، كما قاموا بأخذ الملفّات الورقيّة التي تخصّ وزارة التربية والتعليم ووزارة الصحة[٢]، وكل ما يمكن أن يمثّل سجلاً يمكن له أن يضفي وجودًا ماديًّا على تاريخ ما تمّ التعامل معه على أنّه شيء ينبغي تدميره، وتلك حماقة كل الغزاة والإمبرياليين. من الطبيعي أنّه في كلّ حالة استعماريّة، كما كان الحال في الجزائر حيث سعى الفرنسيّون إلى منع تعليم العربيّة في المدارس، فإنّ الناس يجترحون أماكن أخرى ـ المساجد في حالة الجزائر ـ لتعليم اللغة العربيّة وإدامة التراث الشفهي. إنّ هناك دائمًا محاولة للقمع والإخضاع يقابلها إبداع شعبي وإرادة يضطلعان بمهمّة المقاومة.

يعتبر محمود درويش شاعر فلسطين الوطني. أين تكمن أهمِّيَّته؟

ـ إنّ الحديث في ذلك أمر شائك؛ فقد ترعرع محمود درويش بداية في إسرائيل، وهو لم يكن فلسطينيًّا بالمعنى الذي يمثّله معظم أعضاء منظمة التحرير الفلسطينيّة. كما أنّه لم يكن من فلسطينيي الشتات؛ فقد بقي في الداخل وأصبح مواطنًا إسرائيليًّا، وهو يتحدّث العبريّة بالطلاقة ذاتها التي يتكلّم بها العربيّة. وهو إلى ذلك معروف بكونه واحدًا من روّاد ما يسمّى «شعر المقاومة»، أعني أنّه قد تناول أغراضًا قوميّة على رأسها التأكيد على الهويّة الفلسطينيّة. ولعلّ من أكثر قصائده ذيوعًا قصيدته التي تحمل عنوان «بطاقة هويّة» والتي تبدأ: «سجّل.. أنا عربي..»[٣] وهي قصيدة استمدّت وجودها من التجربة الشخصيّة، حيث كان يتوجّب على المرء أن يسجّل

اسمه في مكتب إسرائيلي. وحتى عام ١٩٦٦ كان الفلسطينيّون داخل إسرائيل يرزحون تحت نير الاحتلال العسكري، وترتّب عليهم مراجعة الجهات الأمنيّة على نحو منتظم وأن يسجّلوا. وهكذا، فإنّ درويش، وبطريقة تنطوي على التحدّي يقول للرجل هناك: «سجِّل. أنا عربي». وقد أصبح ذلك القول، ربما على نحو غير مقصود، السطر الأوّل من قصيدة.

فيما بعد، وعندما غادر محمود درويش فلسطين في مطالع السبعينيّات وعاش في مصر ثم في بيروت وباريس، تحوّل إلى شاعر منفى. إنّني أفكّر بالطبع بالشاعر السوري نزار قبّاني الذي مرض مؤخّرًا والشاعر السوري المعاصر أدونيس الذي ما يزال يمارس الكتابة، وأضع درويش على السويّة نفسها معهما بوصفه واحدًا من أعظم شعراء العالم العربي. إنّه شديد الشبه بما كان يمثّله فايز أحمد فايز في التراث الجنوب آسيوي. وهو يجتذب جمهورًا هائلاً يعدّ بالآلاف الذين يأتون للاستماع إليه وهو يلقي أشعاره.

إنّ درويش قارئ نهم. وبالرغم من عضويّته لوقت طويل في منظمة التحرير الفلسطينيّة، إلاّ أنّه ظلّ رجلاً أقرب إلى العزلة ونادرًا ما كان يتولّى مناصب عامّة. إنّه رجل أممي وكوني في مذاقاته ومنظوره. وخلال السنوات العشرين الماضية التي كان خلالها غزير الإنتاج بشكل مدهش، تطوّر أسلوبه إلى نوع آخر من الشعر، والذي يمكن أن أسمّيه تأمّليًا أو غنائيًا (Lyrical).[*] وقد كتب شعرًا يضمّ موضوعات تمتدّ من الأندلس إلى الأميركيين الأصليين إلى مرضه الخطير حتى أنشودته الأخيرة العظيمة «حالة حصار»[٤]، وهي قصيدة نجمت عن وجوده داخل الحصار خلال الغزو الإسرائيلي للضفّة الغربيّة في ربيع عام ٢٠٠٢.

(*) الشعر الغنائي أو التأمّلي Lyrical هو تعبير يستخدم في لغة النقد الأدبي الإنجليزيّة لتوصيف الشعر بمعنيين: الأوّل: استخدامه كصفة لقصيدة موسيقيّة قصيرة، وهو بهذا المعنى استخدام وصفي يتعلّق بالتكنيك. والثاني: هو توصيف عمل أدبي يعبّر مباشرة عن شخصيّة الكاتب، ويكون العمل بهذا الفهم ذاتيًا في منظوره أكثر من كونه موضوعيًا من حيث موضوع التركيز، وعلى نحو يعبّر عن الرؤيا الشخصيّة أو ردّة الفعل تجاه العالم. وهذا الاستخدام يصف موضوع العمل أو فلسفته. إنّ العمل الغنائي التأمّلي يعبّر عن عاطفة أو حالة عقليّة أساسيّة، وهو عادة ما يخلق انطباعًا مفردًا وذاتيًا إلى حدّ كبير. (المترجم).

ودرويش شاعر متعدّد الأبعاد، وهو بالتأكيد شاعر جماهيري، لكنّه في الوقت ذاته شاعر شخصي (Personal) وغنائي (Lyrical) إلى حدّ كبير. وأعتقد شخصيًا بأنّه يعتبر واحدًا من أفضل الشعراء على المستوى العالمي. ولعلّه يتساوى من حيث إمساكه بناصية اللغة وبراعته في تشكيلها مع ديريك وولكوت Derek Wolcott وساموئيل هيني Samuel Heaney باعتبارهما من الحائزين على جائزة نوبل، أحدهما من الكاريبي والثاني من إيرلندا. إنّه يستطيع أن يدمج كمًّا هائلاً من الصور (Imagery) المستمدّة من التراث العربي القرآني ويعيد إنتاجها على نحو دنيوي. إنّه ليس شاعرًا دينيًّا بأيّ حال، لكن الكثير من قصائده متأثّرة بلغة القرآن ولغة الأناجيل، كما أنّه متأثّر بكل من لوركا ونيرودا وييفتوشينكو. وقد أمضى بعض الوقت في روسيا، وأصبح بذلك على دراية تامّة بتراثها الأدبي إضافة إلى تعرّفه إلى نتاج شعراء أحدث من أمثال برودسكي Brodsky.

كنتَ قارنت مرّة بين درويش وبين الشاعر الإيرلندي وليام بتلر ييتس W. B. Yeats في مراحله المبكرة.

ـ نعم، لأنّه كان شديد الارتباط بقضيّة النضال من أجل التحرّر على السوية نفسها التي كان عليها ييتس، إبّان مرحلة النضال الإيرلندي في سبيل التحرّر من الاستعمار البريطاني. كان ييتس على ارتباط دائم بالشقّ الرسمي من الحياة الثقافيّة ـ «مسرح أبي» Abbey Theatre على سبيل المثال ـ وكان عضوًا في البرلمان الإيرلندي، وكان شخصيّة شعبيّة أكثر ممّا هو عليه حال درويش. وعلى الرّغم من كون درويش شاعرًا فائق الشهرة إلاّ أنّه لم يتولّ أبدًا منصبًا رسميًّا باستثناء الفترة التي أمضاها عضوًا في المجلس الوطني الفلسطيني والتي لم تشكّل خصوصيّة يُعتد بها في حياته.

ما هو الحدّ الفاصل ما بين الفنّ وتوجيه النقد؟ وهل يمكن أن يشتبك الاثنان على نحو متين؟ خذ «بابلو نيرودا» على سبيل المثال، فهو قد صنع شهرته كشاعر رومانسي وميتافيزيقي، لكن شعره تحوّل تحوّلاً دراماتيكيًّا حينما ذهب إلى إسبانيا خلال الحرب الأهليّة. وفي معرض ردّه على النقّاد الذين سألوا: «أين الليلك؟»، كتب: «إنّني أفسّر بضعة أشياء»، وكتب: «وستسألون. لماذا لا يتحدّث شعره عن الأحلام وأوراق الشجر، والبراكين العظيمة في وطنه؟» ثمّ وجّه دعوة حثيثة إلى القارئ ثلاث مرّات في ختام هذه القصيدة: «هلم. وشاهد الدم في الشوارع»[٥].

ـ حسنًا. في حالة الشاعر الفلسطيني على سبيل المثال، فإنّه/ أو إنّها ـ لأنّ هناك شاعرات رائعات جدًّا مثل فدوى طوقان, إنّهم مثل نيرودا يجيبون على معطيات الواقع القائم. وقد مثل الواقع بالنسبة لنا منذ عام ١٩٤٨ واقعًا سياسيًّا على نحو كثيف، بمعنى أنّنا نعبّر عن أنفسنا بوصفنا أناسًا قد تمّ احتلالهم. وهكذا، وبما أنّ كل شاعر يجيب بطريقة ما على المتطلّبات السياسيّة والتاريخيّة لهذا الزمان، فإنّ هناك حتى في حالة القصيدة الغنائيّة، كما يقول أدورنو Adorno، والتي هي الأكثر خصوصيّة وشخصيّة بين كل الضروب، هناك علاقة ضمنيّة بالسياسي. وحتى في أكثر الضروب لا سياسيّة، فإنّ هناك علاقة سمتها السلبيّة. لكن هناك أسبابًا مثيرة للاهتمام في حالة الشعر الفلسطيني وفي شعر العالم العربي عامّة تقود إلى الاشتباك بالسياسي الذي تجده حاضرًا بكثافة في الأدب. وهو أمر لا يجعل من الأدب جدليًّا ببساطة، إذ إنّ هناك أدبًا جدليًّا لكنّه بلا خصيصة فنِّيَّة. لكن، ليس ثمّة تعارض ضروري بين الخصيصة الجماليّة والمرامي السياسيّة.

في الحالة العربيّة، خاصّة في الجزء الفلسطيني منها، تتمازج الاستطيقا والسياسة معًا للعديد من الأسباب: أحدها الاضطهاد والمصادرة على الحياة الحاضران دومًا على كل الصعد بسبب الاحتلال الإسرائيلي وبسبب العمل الجاري على إقصاء أمّة بكاملها والإحساس بأنّنا أمّة من المنفيين. وهذا يلخّص واقعنا الذي يستجيب له الكاتب. أمّا العنصر الآخر المؤثّر فهو الضغط الماثل في تقاليد اللّغة العربيّة والإسلاميّة في ذاتها، وهو عامل شديد السطوة. إنّ اللغة هي التعبير الثقافي المركزي عن العرب. وهي في الحقيقة وثيقة الصلة، بل إنّها «لغة الله»، كما جاء في القرآن الكريم، والقرآن منزّل، وهو قد نُزِّل من الله مباشرة، وهو كلمات الله بذاتها دونما واسطة. وهكذا، فإنّ الشاعر في زمن التحوّل الثوري والمقاومة يبحث بدوره عن إيجاد صوت يخصّه/ أو يخصّها في إطار هذه التقاليد. ويعبّر أدونيس بشكل متميّز عن هذه الفكرة في شعره، وهذا ما يجعل شعره صعب الفهم. إنّه شعر ينطوي على معرفة فوقطبيعيّة وعلى معرفة مضادّة في الوقت نفسه. إنّه يعتقد بأنّ عليه خلق لغة جديدة تكافح اللغة القديمة في الوقت ذاته الذي يظلّ يغزل على منوال التقاليد والمصطلحات القرآنية.

إنّ كل ما يعرفه معظم الأميركيين عن اللغة العربيّة مختزل في الأسطورة القائلة بأنّ هناك ألف مرادف لكلمة (سكّين).

ـ نعم، وهو أمر سخيف. إنّ اللغة العربيّة يساء تقديمها على نحو مريع، ويتمّ النظر إليها بوصفها أوّلاً وقبل كل شيء لغة مولعة بالجدل، وعلى أنّها لغة عنيفة باعتبارها لغة الإسلام. لكنّها في حقيقة الأمر تمثّل بالنسبة لواحد مثلي يعرف العديد من اللغات، أكثر اللغات جمالاً على الإطلاق. إنّها لغة جدّ رشيقة ومتساوقة في بنائها ومنطقها. إنّ لها بنية أرسطيّة.

لا بدّ لك من أن تجفل لدى سماع كولن باول وهو يتحدّث عن العراق في الأمم المتحدة ويكرّر كلمة (سُدوم) Sodom. ما حقيقة هذا الأمر؟ إنّه لا ينبغي لك أن تعرف العربيّة حتى تستطيع أن تقول: (صدّام) Saddam.

ـ إنّ ذلك ينطوي على شكل من أشكال العجرفة والغطرسة، بل هو شكل من أشكال الازدراء الواضح. أظنّ أنّ في ذلك محاولة لتسفيه صدّام وتشبيهه بالشياطين، وهو من ناحية أخرى محاولة للقول بأنّ رفع الكلفة يولد الازدراء، وبأنّ العراق لا يمثّل في الحقيقة أكثر من ذلك الرجل الذي غالبًا ما يساء لفظ اسمه. إنّ صدّام، كما قلت، ديكتاتور حري بالازدراء، لكنّه لا يعدو كونه سمكة صغيرة في زمرة الديكتاتوريين الذين حكموا في العالم تاريخيًّا، ولنقل في القرن العشرين.

إنّ ما نتحدّث عنه يتجاوز في أبعاده ما ذهب إليه كولن باول إلى خطاب وسائل إعلام مركزيّة يقوم بتمويلها الملتيمليونيرات والتي تقول: آي راك I raq وآي ران I ran ومهدراساس muhdrassas والشهرية shuhreeyah والموسلمين Mooslems وإيزلوم Izlum.

ـ نعم. إنّ ذلك ينتمي إلى المخزون ذاته من الكليشهيات الاستشراقيّة التي جرى تصميمها لتعمل على تغريب وإقصاء وتجريد الناس من الصفات الإنسانيّة، وهو الأمر الذي حدث لنا. وهذا هو السبب في أنّ معظم العرب يكنّون عداءً كبيرًا لوسائل الإعلام الأميركيّة وللحكومة الأميركيّة. إنّ الخطاب الشعبي السائد هنا ينطوي على الكثير من الجهل، لكنّه يبدو في الوقت نفسه مألوفًا من حيث ازدرائه بتلك الأشياء المركزيّة في حياتنا، وعلى نحو نرى فيه كمًّا من الإهانة الموجّهة ضدّ ثقافتنا وحضارتنا.

عودة إلى موضوع الشعر. كانت لورا بوش قد خطّطت لإقامة احتفال بالشعراء والت ويتمان، وإيميلي ديكنسون، ولانجستون هافز في البيت الأبيض في الثاني

والعشرين من شباط. ثم ألغت الاحتفال على نحو مفاجئ بمجرّد أن علمت أنّ بعض الشعراء المدعوّين قد خطّطوا للتعبير في أثنائه عن معارضتهم للحرب على العراق(٦).

ـ من الواضح تمامًا أنّه لو ذهب أيّ شاعر إلى ذلك الحفل لكان ذلك عارًا، لأنّ ذلك الاحتفال لا يمثّل أبعد من محاولة صفيقة ومكشوفة من جانب البيت الأبيض حتى يمنح لنفسه السلطة على الثقافة، وهو الأمر الذي كثيرًا ما يتمّ فعله في هذا البلد، والذي يرمي إلى تطبيع الثقافة واحتوائها أكثر من معاملتها بوصفها شريكة. أنا في غاية السعادة لأنّ لورا قد اتخذت قرارها الحكيم بإلغاء الحدث، فذلك أفضل بكثير من إحضار بضعة شعراء ليقفوا هناك متظاهرين بأنّ ويتمان وديكنسون لا علاقة لهما بالحرب. لقد تمّت إثارة مسألة الثقافة والسلطة برمّتها عبر محاولة لورا بوش استقدام هؤلاء الشعراء إلى البيت الأبيض. والحقيقة أنّ بعض الشعراء قالوا علنًا إنّهم لم يكونوا ليذهبوا، وهو الشيء الصائب والواجب عمله، وأنا سعيد لإخفاق الموضوع برمته.

لقد أعقبت ذلك مجموعة من القراءات المعارضة للحرب في مختلف أنحاء البلاد.

ـ إنّ ذلك يشي بأنّ فكرة الحرب لا تحظى بالجماهيريّة، وفوق كل ذلك، فإنّه ينمّ عن الحسّ بأنّنا ندخل مرحلة فريدة من تاريخنا كأميركيين. فالحكومة بين أيدي عصبة، وأعتقد أنّنا نستطيع التحدّث هنا عن وجود نظام أو مجلس سياسي وليس حكومة جرى انتخابها ديمقراطيًّا بحيث تمثّل الناس بالمعنى الحقيقي للكلمة. وفي وقت لا يتواجد الحزب الديمقراطي كقوّة بديلة، فإنّ إدارة بوش تخضع لسيطرة جماعة من المحافظين الجدد ذوي العقليّات العسكريّة والمتعصّبين في مشايعتهم لإسرائيل. وهم مصمّمون على شنّ هذه الحرب ليس لأسباب لها أيّة صلة بالأمن الأميركي، ولكن، كما قالوا، لتأكيد هيمنة الولايات المتحدة على العالم بغض النظر عن الثمن الذي يترتّب على ذلك سواء تمّ دفعه بالدم أو بأموال الخزينة، وبغضّ النظر عن مدى الضرر الذي سيلحق ببقيّة العالم. ومن هذا المنطلق يجري اللجوء إلى الخطاب الشعري بوصفه وسيلة بديلة للتعبير.

أطلق رالف نادر وآخرون على هذه المجموعة، مجموعة جورج بوش وديك تشيني

وباول وولفويتز ورتشارد بيرلي لقب «الصقور الدجاج».

ـ ذلك صحيح، لأنّ أحدًا منهم لم يخدم في الجيش رغم أنّ الفرصة قد واتت كلاًّ منهم لذلك. بوش خدم فعلاً ولكنّه ذهب في إجازة بدون إذن رسميّ لما يقارب السنة عندما كان يخدم في حرس تكساس الوطني في أواسط السبعينيات(٧). وهكذا، فإنّ من المخجل أن يقوم هؤلاء الأشخاص الذين لا دراية لهم بالحرب بالتبشير بها ودعوة الناس إليها.

إنّ هذه المجموعة تقول أيضًا إنّها ستجلب الديمقراطيّة إلى الشرق الأوسط.

ـ إنّهم يحطّون من قدر مفهوم الديمقراطيّة لدى زعمهم بأنّها هي الشيء الذي يحاولون فعله في الشرق الأوسط، ولا أعتقد أنّه قد حدث أبدًا في التاريخ أنّ الديمقراطيّة جرى جلبها بالغزو والقصف بالقنابل، وهو ما ستفضي إليه هذه الحرب. ويتساءل المرء عن ماهية المصدر الذي يتمخّض عن مثل هذه الأفكار.

إنّني سعيد بوجود الكثير من الأمور مثل الاحتجاجات والمظاهرات الجارية ضدّ شنّ الحرب على العراق، لكنّني مندهش من عدم وجود تداعيات أكثر وغليان أكبر ما دامت هذه الحرب تذهب في عكس مصالح، بل في عكس رفاه وخير هذا البلد قياسًا على ثمنها الباهظ والضرر الذي سيتمّ إلحاقه واللاأخلاقيّة الصرفة التي تنطوي عليها. ومن المثير للاستغراب أنّ هؤلاء الناس الذين يبشّرون بالحرب قد أفلتوا بكل ما ذهبوا إليه وبلغوا فيه الشأو الذي بلغوه.

في الخامس عشر من شباط خرج ما يقارب النصف مليون شخص إلى شوارع نيويورك، وفي اليوم التالي خرج ما يقارب المائتي ألف إلى شوارع سان فرانسيسكو(٨). إنّ هذا الدفق الهائل من المعارضة أمر غير مسبوق قبل أن تبدأ الحرب.

ـ أتفق معك في ذلك. وربما يكشف ذلك عن وجود حسّ نقدي متصاعد نجم، وهو أمر ينطوي على مفارقة، نتيجة لأحداث الحادي عشر من أيلول. فقد تولّد لدينا الإحساس بأنّنا مثل غيرنا قابلون لأن تصيبنا الجراح، وأنّنا ننتمي بوصفنا شعبًا وأمّة إلى تاريخ هذا العالم ونخضع للسياسات نفسها التي تحكمه. إنّ الناس قد بدأوا يتخطّون كلّ الوصفات الجاهزة والمعادلات، مثل فكرة أنّ الناس يحملون لنا الضغينة بسبب

ديمقراطيّتنا وقيمنا وحرّيّتنا. وأصبح الناس هنا يذهبون إلى إمكانيّة وجود أسباب تقف وراء هذا النقد الذي يتوجّه نحو أميركا وتدخّلاتها في الخارج ومنطق القوّة المتغطرسة، ورغبتنا في الإيضاح مرّة تلو المرّة أنّ بوسعنا فعل أيّ شيء نريده. إنّنا نتخطّى كل الحدود المتواضع عليها ونصمّ آذاننا عن سماع صوت الأمم المتحدة، وآمل أن يدرك الناس أيضًا كيف يشارك بعض حلفاء أميركا مثل إسرائيل في النوع نفسه من الخروج على القانون. وفي الوقت الذي يداوم بوش على القول بأنّ الوقت قد حان لأن تعبر الأمم المتحدة عن جدِّيّتها بخصوص قراراتها حيال العراق، فإنّ علينا أن نسأل: ماذا إذن بشأن قرارات الأمم المتحدة العديدة التي طالما ظلّت محطّ استخفاف إسرائيل والولايات المتحدة؟ إنّ الفلسطينيين يتمّ قتلهم يوميًا فيما يشكّل انتهاكًا لمعاهدات جنيف وميثاق الأمم المتحدة والقرارات التي صدرت عنها. وأنا أعتقد بأنّ هذا النوع من الالتفاف والازدواجيّة قد بات الآن مفهومًا على نطاق واسع.

ثمّة فجوة تتسع بين القصر والرأي العام، ليس في أوروبا وحسب وإنّما في الولايات المتحدة أيضًا.

ــ بكلّ تأكيد وفي كلّ مكان، وربّما أقول في كل البلدان مع القليل جدًّا من الاستثناءات. فهناك مسافة شاسعة بين رغبة العدد الهائل من الجمهور وأولئك الذين يفترض فيهم أنّهم يمثّلونه. وأعتقد بأنّنا على حافّة انهيار ما يمكن تسميته بالديمقراطيّة التمثيليّة، إذ لا يبدو أنّ هذه الديمقراطيّة تحقّق إنجازًا يعتد به في أيّ مكان على الإطلاق. إنّ هذا بالطبع ليس واقع الحال في إنجلترا وإيطاليا، كما أنّه بالتأكيد لا ينطبق على الكثير من الدول العربيّة حيث الحكومات لا تمثّل الناس أصلاً.

غالبًا ما يتمّ اختزال الرأي العام العربي فيما يسمّى «الشارع»، ولعل من المثير للانتباه ملاحظة أنّه عندما يخرج ثلاثة ملايين إيطالي إلى الشارع في روما وربّما مليونان من المتظاهرين في بريطانيا، فإنّه لا يطلق على المشاركين في تلك المسيرات اسم «شارع»[٩].

ــ دعني أخبرك شيئًا عن كلمة «شارع». إنّها كلمة ما فتئ يستخدمها المستشرقون على نطاق واسع. وهناك نوع من الخلط اللاواعي حين يتعلّق الأمر بالعرب فيما بين كلمة «الشارع» وبين تعبير «عرب الشارع» الذي شاع استخدامه في أواخر القرن

التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . إنّ عرب الشوارع هم المتشرّدون. وقد أشار الكثير من الكتابات في العصر الفكتوري إلى الناس في الشارع أو ما يسمّى «ناس الشوارع» من الباعة المتجوّلين والشحّاذين وأمثالهم بوصفهم «عرب الشوارع». وعليه فإنّني أعتقد بأنّ الإشارة إلى «الشارع العربي» بهذه الطريقة إنّما تستدعي إلى الذهن فكرة أنّ هؤلاء هم الرعاع والدهماء، وأنّهم نوع من المشرّدين والتافهين في مجتمع يتكوّن أساسًا من البرابرة وأشباه البشر. وأظنّه ليس من قبيل الصدفة أن يداوَم على استخدام هذا التعبير لدى التحدّث عن الرأي العام العربي.

إنّ كثيرًا من المساجلات السياسيّة العربيّة هي في الحقيقة أكثر حذقًا وبراعة، بل إنّها تمثّل أطيافًا من الرأي أكثر تنوّعًا ممّا هو عليه الحال في الشارع الأميركي. ولعلّ محطّة الجزيرة التي تتواجد مكاتبها الرئيسيّة في قطر هي خير مثال على ذلك. فهي محطّة غير حكوميّة وهي أكثر إقدامًا على النقد الذاتي ممّا يجري عليه الحال في الولايات المتحدة. ولعل وسائل الإعلام الأميركيّة، كما سبق لك وأن كتبتَ، تمرّ الآن في واحدة من أسوأ مراحلها على الإطلاق[١٠]، إذ بات التلفاز في الولايات المتحدة يعتبر نفسه ذراعًا للحكومة بينما هي تقوم بالحشد للحرب.

دعنا نتحدّث أكثر عن الوهن الذي يدبّ في أوصال الديمقراطيّة. لقد خرج حوالى عشرة ملايين شخص إلى الشوارع خلال عطلة نهاية الأسبوع في الخامس عشر من شباط، لكن جورج بوش تجاهلهم بوصفهم «جماعة ضغط» (Focus group)[١١]، ولعلّها أكبر جماعة ضغط في التاريخ.

ـ نعم. لقد كانت كذلك بكل تأكيد. لكنّ الحادثة تكشف أيضًا عن توجّهات التجاهل والانعزاليّة المتعصّبة لدى الرئيس، والذي يعتقد حقًّا ـ وقد قرأت شيئًا عن ذلك ـ بأنّه يتصل مع الله، الأمر الذي يمثّل في الحقيقة تجلّيًا لما يسمّى بمذهب العصمة التوحيديّة أو الحَرفيّة. ولهذه الفكرة، للأسف، تداعيات كثيرة فيما يخصّني؛ فقد كان جزء من أفراد عائلتي معمدانيين يؤمنون بهذه العصمة الحرفيّة. وتذهب هذه الفكرة إلى الاعتقاد بأنّ الله يتحدّث مباشرة إلى الكائن البشري، وعليه فإنّ ذلك الشخص لا يعود يحتمل أيّ نقاش ويكون على قناعة تامّة بأنّه على حقّ. إنّ مثل هذا التوجّه لا يقتصر فقط على الإسلام، إذ إنّك تجده في اليهوديّة، كما أنّه يمثّل إلى حدّ كبير جزءًا من التقاليد البيوريتانيّة والبروتستانتيّة، بل وأظنّه يشكّل على نحو ما جزءًا

من التراث الكاثوليكي أيضًا. لكن هذه الفكرة تصبح شديدة الخطر وجديرة بالازدراء عندما يحملها رئيس أكثر دول العالم قوّة.

إنّ واحدًا من الأمور التي تغيب تمامًا ودائمًا عن أيّ حوار يدور حول العراق هو أنّه يشكّل أيضًا موطنًا لثلاثة من أقدم المجتمعات المسيحيّة في العالم الجديد: الكلدانيّون والآشوريّون والأرمن. كما أنّ كلاً من اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام تقول بأنّها ترجع في أصولها إلى إبراهيم الذي ولد في مدينة «أور» في جنوب العراق.

ـ ذلك أمر يثير لديّ بعض الاهتمام، إذ لا يتوجّه أدنى انتباه تقريبًا إلى حقيقة أنّ العراق يمثّل المركز الثقافي والحضاري للعالم العربي كلّه، بل وللحضارة الإسلاميّة برمّتها. إنّ حضارة العراق حضارة متّصلة تعود ألوفًا من السنين إلى سومر وأكد وبابل، لكن ذلك كلّه يجري اختزاله إلى «سودوم» كما سبق لك أن أوضحت. ولا تنس أنّ العراق كان مركز الخلافة العبّاسيّة التي مثّلت أعلى ذروة وصلت إليها الحضارة الإسلاميّة، ولا يزال العراق إلى اليوم ضروريًّا جدًّا للثقافة العربيّة. وهناك قول شائع مفاده أنّ المصريين يكتبون واللبنانيين ينشرون والعراقيين يقرأون. ولا شكّ في أنّ بغداد هي عاصمة الفنّ في العالم العربي، ومن بين كل الدول العربيّة، يحظى العراق بنعمة توافره على المصادر البشريّة والطبيعيّة، فهو يمتلك ثروة مائيّة وبتروليّة كبيرة، وفيه طبقة وسطى كبيرة جدّ محترفة ومتقدّمة، والتي جرى إضعافها والإضرار بها بشكل كبير جرّاء العقوبات الاقتصاديّة. كما أنّه ليس ثمّة انتباه ولا معرفة بالشخصيّات العظيمة في الثقافة العراقيّة من الكتّاب العظام والفنّانين والرسّامين والنحّاتين والعلماء. وهذا يمثّل مؤشّرًا آخر على الصدع العميق الحاصل بين العالم العربي من جهة والغرب من جهة أخرى.

إنّ العراق أيضًا هو المكان الذي اكتشفت فيه الكتابة.

ـ تلك هي الحقيقة، وهي راسخة إلى حدّ كبير في وعي كلّ عربي خاصّة في هذا الوقت الذي بات العراق على وشك التعرّض للهجوم. وأعتقد أنّ من الصواب القول بأن ليس ثمّة مشاعر حبّ في أيّ مكان من العالم العربي تجاه صدّام حسين، لكن هناك مع ذلك اهتمامًا كبيرًا إزاء المعاناة الطويلة التي يتعرّض لها شعب العراق. وهو الذي اضطر إلى احتمال اثني عشر عامًا من الحصار الاقتصادي والنهب والقصف

المستمرّ وسوء التغذية والجوع والأوضاع الصحِّيَّة الرديئة، إضافة إلى حرمانه من الحصول على اللوازم والكتب المدرسيّة. . إلى غير ذلك. كل ذلك يثير مشاعر استياء عميقة في العالم العربي. ومع ذلك يقول بوش: «لسنا على خصام مع الشعب العراقي»، بينما القادم، كما تعلم، هو ستة آلاف من صواريخ كروز التي جرى توجيهها نحو بغداد. وهكذا فإنّ من الواضح أنّ ثمّة تناقضًا فيما يجري[١٢].

هجوم «الصدمة والرعب» الذي يستطيع القصف الكاسح فقط أن يخلقهما في ذاكرة الناس[١٣].

ـ تلك هي الفكرة مثلما حدث في كلّ من دريزدن وهيروشيما. إذ يفترض في الهجوم أن يكون ذا تأثير مفزع وصاعق يصيب السكّان بالشلل.

إنّك تبدي اهتمامًا بالغًا حيال استخدام اللّغة، إذ يجري توظيف اللّغة لخلق سوء في الفهم. وسأورد مثالين أولهما من صحيفة النيويورك تايمز التي تقول: «ينظر معظم الفلسطينيين إلى المستوطنين والجنود في الضفّة الغربيّة باعتبارهم طليعة لاحتلال غير مشروع»[١٤]. هذا أوّلاً، بينما تكرّر صحيفة شائعة أخرى اللازمة نفسها حين تعلّق قائلة: «وتزعم بغداد أنّ العقوبات الاقتصاديّة التي تقودها الولايات المتحدة تنتج سوء التغذية وموت الأطفال الرضّع بمعدّلات عالية»[١٥].

ـ سأتحدّث إليك وأنا أشعر بحزن عميق حيال كلمات مثل «ادّعى» (Alleged) و«زعم» (Claimed) والجاري استخدامها الآن في توصيف معاناة العرب. في الخريف الماضي انضممت إلى جماعة من هيئة التدريس في جامعة كولومبيا وتوجّهنا إلى رئيس الجامعة لمناقشة خطّة تقوم بموجبها الجامعة بالتخلّص من أسهمها في شركات ترتبط بعقود عسكريّة مع إسرائيل. ثم مضينا إلى التحدّث عن الإساءة إلى حقوق الإنسان وتفجير وتجريف البيوت الفلسطينيّة، بالإضافة إلى خلق نظام ينتهج سياسة التمييز العنصري. وكانت ردّة فعله أن قال إنّ المقارنة بين ما تفعله إسرائيل الآن والتمييز العنصري في جنوب إفريقيا هو أمر مفرط وعدائي. وألمح إلى «الزعم» بوجود إساءة إلى حقوق الإنسان هناك. جاء هذا بعد أكوام من تقارير منظمة العفو الدوليّة، ولجنة حقوق الإنسان وبيتسليم والأمم المتحدة. وهكذا فإنّ هذا تكتيك شائع؛ العرب يبالغون، والادعاءات بمعاناة العرب تحتاج إلى المزيد من التوثيق،

بغض النظر عن مدى ما يعانون. تلك طريقة في التعبير مشتركة وشائعة إلى حدّ كبير، وهي جزء من الأدوات الدعائيّة نفسها التي تقلّل من شأن الناس وتنتقص من إنسانيّتهم.

وثمّة تكتيك آخر يستخدم في الحديث عن الفلسطينيين وهو القول بأنّهم لا يشعرون بالأشياء نفسها التي نشعر نحن بها، وليس لديهم القيم نفسها التي لدينا. إنّهم لا يفهمون الحياة الإنسانيّة على النحو الذي نفهمها نحن. ويشكّل هذا واحدًا من مفردات الخطاب الاستعماري التقليدي الذي بدأ في القرن الثامن عشر. وهو يتعلّق بالفكرة التي تدعى بـ «الشعوب غير المتطوّرة». وهؤلاء لا يقدرون ولا يعرفون كيف يستثمرون الأرض، ولذلك فإنّ المستوطنين الأوروبيين يستحقّون أخذ الأرض منهم. وقد كان هذا هو الخطاب ذاته الذي استخدم في هذا البلد أيضًا. وقد استخدم في إفريقيا كما في الهند. ثم استخدم الصهاينة اللغة نفسها في فلسطين عندما جاؤوا خلال الجزء الأوّل من القرن العشرين. وقد تحدّثوا عن «منح الخلاص» للأرض من الناس الذين كانوا يعيشون هناك، والذين وصفوا على الدوام بأنّهم بدو وهائمون على وجوههم.

عام ٢٠٠٢ كان الشاعر المعروف توم بولين Tom Paulin قد دعي للتحدّث في جامعة هارفارد، وقد ثار مقدار هائل من الجدل حول دعوته لأنّه كان شديد الانتقاد لإسرائيل[١٦].

ـ تلك قصّة متشابكة لأنّها تذهب إلى أبعد من حادثة توم بولين. إنّها تعود في أصولها إلى ردّة فعل رئيس جامعة هارفارد لورنس سامرز Lawrence Summers قبل ذلك بسنة على الحملة الرامية إلى فكّ الارتباط مع الشركات العسكريّة. وقد ألقى سامرز حينذاك محاضرة، ولعلّها كانت عظة؟ في الكنيسة الرئيسيّة في هارفارد عن عودة بزوغ المعاداة للساميّة. واستخدم كمثال رئيسي حقيقة أنّ إسرائيل تتعرّض لنقد متصاعد، وخاصّة مؤخّرًا من قبل أعضاء هيئة التدريس في عرض البلاد. وقد شملت حملة فكّ الارتباط جامعة هارفارد و إم آي تي وامتدّت إلى كولومبيا وبرينستون إلى بيركلي وأماكن أخرى. وهو شكل جديد موثوق وذو مصداقيّة من أشكال النشاط الأكاديمي، وكان قد جرى استخدامه بشكل واسع إبان النضال ضدّ سياسة التمييز العنصري في جنوب إفريقيا في السبعينيّات والثمانينيّات. وينبغي علينا والحال هذه أن نسأل: أين هي المعاداة الساميّة في انتقاد إسرائيل بسبب ممارساتها؟

لقد ردّد سامرز نغمة وجود تماثل وتطابق بين انتقاد إسرائيل وفكرة المعاداة للساميّة. ثم كان أن تلا ذلك ببضعة أسابيع ذلك الهجوم على توم بولين، وهو بروتستانتي من أيرلندا الشماليّة يدرّس في أكسفورد. وهو واحد من أربعة أو خمسة من أكثر الشعراء شهرة في المملكة المتحدة اليوم. كما أنّه أيضًا ناقد رائع كنت قد كتبتُ عنه في السلسلة التي أشرف عليها في هارفارد والمسمّاة «نقاط التقاء» Convergences. وهو فوق ذلك محاضر رائع، وكثيرًا ما يظهر في البي بي سي كناقد في برنامج أسبوعي اسمه «العرض الأخير» The Late Show والذي يتناول الأفلام والموسيقى والأدب والباليه. فهو بكلّيّته رجل كامل، راسخ ومتساوق. وقد تمّت دعوته لإلقاء محاضرة في الذكرى السنويّة لموريس جراي في الشعر في هارفارد. وهو شخص ليس في دائرة اللغة الإنجليزيّة وليس عضوًا في هيئة التدريس، وقد اكتشفت ريتا جولدبيرغ Rita Goldberg أنّ بولين قد صرّح في إحدى المقابلات بأنّه يمقت المستوطنين الإسرائيليين وأنّهم يذكّرونه بالـ إس إس. وكان قد كتب قصيدة مؤخّرًا عن محمّد الدرّة، الطفل الذي نشرت صورته وهو في حضن والده، والذي أطلق الجنود الإسرائيليُّون النار عليه وقتلوه. وقد أصبح الصبي يشكّل نوعًا من صورة رمزيّة للانتفاضة. ولفتت جولدبيرغ إلى ذلك انتباه هيئة التدريس بواسطة لجنة صغيرة تشاورت حينذاك مع سامرز. وقال سامرز إنّه يؤمن بالتعبير الحرّ والحرِّيَّة الأكاديميّة، لكن وجود بولين في الحرم الجامعي سوف يربكه. وقد أوقف الهجوم. وبالطبع، كنت مستفزًّا لأنّ ما قاله توم ربما كان مفرطًا ومغضبًا، لكنّه كان بالتأكيد ردّة فعل مبرّرة على الاستفزازات الفظيعة التي قلّما يجري التعليق عليها في وسائل الإعلام.

إنّك تلاحظ، بالمناسبة، أنّ مادّة عن إسرائيل تنشر كل يوم تقريبًا في النيويورك تايمز، وفي نهاية المطاف، وفي آخر فقرة، تقرأ شيئًا من قبيل: «واليوم، قتل ثلاثة فلسطينيين آخرين». إنّنا نقتل مثل الذباب ولا أحد يقول شيئًا. وأظنّ أنّ ما كان يحاول توم بولين أن يعبّر عنه إنّما كان نوعًا من الغضب البالغ من الممارسات الإسرائيليّة، وهو حقّه. وهكذا فقد تمّ اتهامه مباشرة بالعداء للساميّة.

لكن قسم اللغة الإنجليزيّة اجتمع ثانية آنذاك وتمّت إعادة دعوته على الأثر. وهكذا يجري كل ذلك ليدلّ على أنّ الأمر لا يتعلّق فقط بحرِّيَّة التعبير، بل إنّه في الحقيقة محاولة لخلق انطباع بالتطابق بين انتقاد إسرائيل والعداء للساميّة، وهو أمر

غير عادل أبدًا، وابتزازي وانتهازي. وهو يكشف، قبل كل شيء، عن مدى الرعب الذي أصبح يعاني منه المؤيّدون لإسرائيل بفضل حقيقة أنّ كل العالم بات يعرف عن انتهاك إسرائيل لكل الأعراف المتواضع عليها في معاملتها للفلسطينيين. ولكن ذلك يشي أيضًا، وللمرّة الأولى على ما أظنّ، بأنّ هناك إحساسًا في هذا البلد بأنّ إسرائيل لم تعد تتمتّع بالحصانة من النقد الذي كانت تتمتّع بها من قبل. وهكذا بات مؤيّدوها يستجيبون باستخدام سلطتهم وتأثيرهم وتكتيكات التخويف ليجعلوا الناس يشعرون بأنّهم يصبحون معادين للساميّة لدى انتقادهم لإسرائيل.

وربما أضيف في المقام الثاني أنّ الوضع في الجامعات قد تمّ زيادة اشتعاله بوجود موقع إلكتروني تمّ تصميمه بالتحديد للإبلاغ عن الأكاديميين الذين ينتقدون إسرائيل أو الذين يبدو عليهم أنّهم مؤيّدون للفلسطينيين[١٧]. ويقود هذا الموقع شخص يدعى دانييل بايبس Daniel Pipes، وهو أساسًا أكاديمي من الدرجة الثانية عاطل عن العمل. يستخدم تكتيكًا أبعد شأوًا، هو أن يربط بين انتقاد إسرائيل والعداء للساميّة. وهكذا، فإنّ المسألة لا تقتصر على العداء للساميّة، ولكنّها أيضًا العداء للأميركانيّة. وهناك إسرائيلي لا يطاق هو مارتن كريمر Martin Kramer والذي يستخدم موقعه الإلكتروني في مهاجمة أيّ شخص يقول أيّ شيء لا يعجبه. وعلى سبيل المثال، فقد وصف جامعة كولومبيا بأنّها «جامعة بير زيت في هدسن» لأنّ هناك أستاذين فلسطينيين يدرسان هناك[١٨]. فلسطينيّان فقط في كلّيّة تضمّ ثمانية آلاف شخص! وإذا ما كان لديك فلسطينيّان فإنّ ذلك يجعل منك إرهابيًّا متخفّيًا. وهذا جزء من مناخ التخويف الذي بات يتخذ سمة الماكارثيّة.

دانيل بايبس هو محرّر ما يدعى «منبر الشرق الأوسط» Middle East Forum والذي يتخذ من فيلادلفيا مركزًا له. وهو ضيف شبه دائم على برامج الحوار. إنّ الموقف طافح بالمفارقات. واحدة منها، طبعًا، هي أنّ العرب أنفسهم ساميّون.

ـ من المفارق أنّ تعبير «المعاداة للساميّة» لم يستخدم أبدًا لوصف الناس الذين يهاجمون العرب. وأعتقد أنّنا ينبغي أن نكرّس دعوة الخطاب المعادي للعرب بوصفه «معاديًا للساميّة». ذلك أنّ مفهوم العداء للسامية كان يشمل اليهود والعرب كليهما تاريخيًّا في أوروبا القرن الثامن عشر..

إنّ هذا يقود إلى أرضيّة هشّة، لأنّه من الواضح أنّ هناك أناسًا يكرهون اليهود.

ـ أظنّ أنّ على المرء أن يسلّم بوجود تاريخ مرعب من المعاداة للساميّة. وقد بلغ العداء للساميّة في أوروبا ذروته في المحرقة Holocaust، وليس مقبولاً أن ينكر أيّ شخص تجربة المحرقة المريعة. إنّنا لا نريد أن يغفل تاريخ المعاناة التي يقاسيها أيّ أحد أو أن يتمّ إنكارها. ومن ناحية أخرى، هناك فرق كبير بين الاعتراف بتعرّض اليهود للاضطهاد وبين استخدام ذلك كغطاء لاضطهاد شعب آخر. وعلى المرء أن يكون قادرًا على التفريق بين ما حدث لليهود في الحرب العالميّة الثانية وفي دول أوروبا التي كانت تجاهر بالعداء المؤسّسي للساميّة وبين ما يشعر به الناس حيال الممارسات المريعة للاحتلال العسكري وإبادة الفلسطينيين. ولا تنس أنّ ما تقوم به إسرائيل إنّما تقوم به باسم الشعب اليهودي. ولا يتمّ وكأنّما هو باسم الشعب الصيني أو أيّة جماعة أخرى. وعليه، فإنّ الربط بين اليهود وإسرائيل والممارسات الإسرائيليّة إنّما تعزّزه إسرائيل نفسها.

أتذكّر في إحدى المرّات التي كنت أصنع فيها فيلمًا في الضفّة الغربيّة أنّني رأيت بعض الجرّافات الإسرائيليّة تقوم بتجريف الأراضي الزراعيّة التي يمتلكها العرب. يومها سألت الإسرائيليين: «كيف تستطيعون فعل هذا؟ هذه الأرض تعود لهؤلاء الناس الذين يعملون فيها منذ أجيال.» فقال أحدهم: «إنّها ليست أرضهم. إنّها أرض شعب إسرائيل». فقلت: «ها أنت تستخدم عبارة (شعب إسرائيل) لكي تقصي شعبًا آخر، وتتوقّع أن يتفق معك الجميع بسبب المعاناة الإسرائيليّة في أوروبا. ليس بوسعك أن تحضر تلك المعاناة إلى هنا وتستخدمها كغطاء لاضطهاد شعب آخر».

أعتقد بأنّ مسألة المعاداة للساميّة قد جرى الحكم عليها بشكل مدروس. وينبغي توضيح الفروقات بين المعاداة للساميّة في الماضي في أوروبا، والمتمثّلة في نجوم أشكال جديدة من المعاداة للساميّة في بلدان مثل النمسا وفرنسا، وهي في أساسها معاداة للساميّة بمعنى وجود كراهية تجاه اليهود لمجرّد حقيقة كونهم يهودًا، وبين نوع المشاعر السائدة حيال إسرائيل التي تسود حاليًا في الشرق الأوسط، والتي لا صلة لها حقيقة باليهوديّة في ذاتها، بل بالممارسات الإسرائيليّة بوصفها دولة للشعب اليهودي. إنّ المسألة تقوم على أسس مختلفة. فالمعاداة للساميّة الأوروبيّة تقوم على أسس دينيّة وعلى العقيدة المسيحيّة. وهناك نوع من عدم الثقة والاحتقار لليهود

لكونهم قاموا بصلب المسيح. وللكاثوليكيّة تاريخ طويل، على سبيل المثال، في لعن اليهود. وهذا الشيء غير موجود أبدًا في الإسلام حيث يعتبر اليهود من أهل الكتاب. صحيح أنّه في بلدان مثل السعوديّة ومصر جرى استيراد الكراسات الدعائيّة لمعاداة الساميّة من أوروبا، مثل «بروتوكولات حكماء صهيون». لكن ذلك لا يجري على مستوى يعتد به، ويقوم على أسس مختلفة تمام الاختلاف عن معاداة الساميّة الأوروبيّة الكلاسيكيّة.

كيف يمكن للمعاناة أن تقاس أو تقارن؟

ـ إنّه أمر فاضح وعدائي أن تقوم بمقارنة المعاناة. إنّ القول بأنّ «ما يقومون به ضدّ الفلسطينيين هو نفس ما قاموا به ضدّ اليهود» أمر ليس صحيحًا بالمرّة. إنّ التجربة التي مرّ بها اليهود هي أمر رهيب ولم يسبق له مثيل في الحقيقة. ولكن من ناحية أخرى، لا يمكن لذلك أن يستغلّ كوسيلة لتأطير العقاب الرهيب الذي عانى منه الفلسطينيُّون على أيدي الإسرائيليين. إنّه ليس موضوع مقارنة. ولكنّه يتعلّق بالقول بأنّ التجربتين غير مقبولتين.

إنّني مهتمّ بالتحديد، بوصفي أرمنيًّا، بهذا الأمر برمّته.

ـ عندما كنت أتحدّث في UCLA، سألني أحد الأميركيين: «هل تجد صلة بين مذابح الأرمن وما حدث لليهود أو ما حدث للفلسطينيين؟» فقلت: لماذا علينا أن نتكلّف عناء مقارنة هذه التجارب؟ إنّها جميعًا تجارب تاريخيّة رهيبة بكلّيّتها. ومن الواضح أنّ هناك سمات مشتركة، فالعديد من الناس قد قتلوا وعانوا على نحو لا ضرورة له. إنّ هناك نوعًا من الإحساس الضمني بالقسوة التي اتّسمت بها هذه التجارب كلّها، لكنّها جميعًا تمثّل أشكالاً من المعاناة التي لا يمكن تبريرها وقبولها والتي لا ينبغي أن يسمح لها بالاستمرار.

إنّني أتذكّر جون جوردان June Jordan الكاتب والشاعر الذي توفي عام ٢٠٠٢ وهو يوضح فكرته حول عدم إمكانيّة قياس المعاناة.

ـ نعم. حيث لا يمكن مقارنتها بمعنى إسباغ الكم عليها. ماذا بشأن معاناة الأميركان الأفارقة؟ واحدة من النقاط التي قمت بإيضاحها في محاضراتي الأخيرة، أنّه كان هناك مقدارًا كبيرًا من المعاناة في هذا البلد والتي لا يجري التعرّف إليها.

وأنا واحد من هؤلاء الذين يؤمنون بأنّه لا يوجد وصف أو فترة زمنيّة للمعاناة. ومن ناحية أخرى، لا يمكنك القول بأنّ المعاناة تبدأ هنا وتنتهي هناك. إنّها تستمرّ. إنّها مكتوبة في تاريخ الشعوب، في تاريخ الأميركيين واليهود والفلسطينيين. وما من أحد في وضع يمكنه فيه القول: «حسنًا. لقد تحدّثت كفاية عن المعاناة، دعنا نتحوّل إلى موضوع آخر». الكثير من الناس يقولون الآن أشياء من هذا القبيل عن العبوديّة، عن المحرقة، وعن مذابح الأميركيين. ليس هناك من تقويم (رزنامة) يقول متى يبدأ شيء ما ومتى ينتهي. إنّ التشويهات التي تخضع لها حيوات الناس، وحتى لعدّة أجيال بعد المعاناة الحقيقة، تستمرّ لوقت طويل. إنّه في غاية الصعوبة أن نحدّد لها بداية، ووسط، ونهاية.

سنة ١٩١٥ كان الأرمن ضحايا أوّل عمليّة تطهير عرقي في القرن العشرين على أيدي الأتراك. وكتب ستيفن كنزر Stephen Kinzer مقالة لبضع سنوات خلت بعنوان «أميركا لا تنسى أبدًا، ربما ينبغي أن تفعل»[١٩]. وقد كان النغم السائد في القطعة «لنتجاوز ذلك». لكن ذلك لم يولد في الحقيقة أيّ ردّة فعل ولا تعليق. تخيّل لو أنّ كنزر قد اقترح أن يقوم اليهود بنسيان ماضيهم.

ـ كانت لي ذات مرّة تجربة شديدة الشبه بهذا. كان ذلك عام ١٩٨٨ في مؤتمر تيكون Tikkun في نيويورك الذي نظّمه مايكل ليرنر Michael Lerner، كنت أنا وزميلي إبراهيم أبو لغد على القائمة نفسها مع مايكل وولزر Michael Walzer. وعند نقطة معيّنة وفي لحظة غضب قال وولزر: «حسنًا. سوف تحصلون على دولتكم، وهكذا فإنّني أظنّ من الضروري التوقّف عن التفكير في الماضي. إذهبوا فخذوا دولتكم وسنأخذ دولتنا، وتلك هي خاتمة المطاف». في هذه اللّحظة نهضت امرأة من بين الحضور والتي لن أنساها أبدًا، كان اسمها هيلدا سيلفرستين وكانت في حالة سخط شديد، وصرخت على وولز وقالت: «كيف تجرؤ على القول لفلسطيني بأنّ عليه أن يكفّ عن تذكيرنا بالماضي؟ في الوقت الذي ننتمي أنا وأنت إلى شعب يثابر على تذكير العالم بمدى ما عانى منه ويطالب الناس بأن لا ينسوا أبدًا؟ كيف تطالب فلسطينيًّا بالنسيان؟ إنّنا عندما نتذكّر وعندما ننسى فإنّ ذلك أمر نقرّره نحن بأنفسنا وليس أمرًا يمليه علينا الآخرون. أعتقد بأنّه أمر شائن لليهود اليوم سواء كانوا إسرائيليين أو أميركيين أن يقولوا للفلسطينيين: كفّوا عن تحويل أنفسكم إلى ضحايا.

وابدأوا بلوم أنفسكم». لسوء الحظّ، هناك عدد ملحوظ من المثقّفين العرب الذين يردّدون النغمة نفسها ويقولون: «دعونا نكفّ عن التحدّث عن شرور الإمبرياليّة والصهيونيّة. دعونا نبدأ بالتحدّث عن الجروح التي سبّبناها لأنفسنا». ثمّة أشخاص مثل فؤاد عجميّ وكنعان مكّيّة. إنّه اعتراض مضخّم على الذات والذي أستنكره بشكل عميق. إنّه يتناغم بشكل رائع مع فكرة المحافظين الجدد والقائلة بأنّ الناس مسؤولون عن خلق كوارثهم بأنفسهم، كما أنّ الاستعمار أمر لم يحدث أبدًا وأنّ المذابح لم تحدث أبدًا، وكما لو أنّ التطهير العرقي لم يحدث أبدًا. إنّني أظنّ ذلك أمرًا شائنًا لا يطاق.

في «كتاب الضحك والنسيان» كتب الكاتب التشكي ميلان كونديرا Milan Kundera: «إنّ صراع الإنسان مع السلطة إنّما هو صراع الذاكرة مع النسيان»[٢٠].

ـ إنّ المحاضرات التي ألقيها الآن تشخّص على الدوام أهمِّيَّة الذاكرة في التجربة الفلسطينيّة. ليس الذاكرة المنظّمة، لأنّنا لا نمتلك دولة وليس لدينا سلطة مركزيّة منظّمة، لكنّك لو نظرت في بيت أيّ فلسطيني من أبناء الجيل الثالث بعد عام ١٩٤٨، لوجدت شيئًا مثل مفتاح منزل أو رسائل أو مستند أو صكوك ملكيّة أو صور أو قصاصات صحف، حفظت لتبقي على ذاكرة حقبة كان فيها وجودنا جمعيًا ومتماسكًا نسبيًا. إنّ الذاكرة أداة جمعيّة بالغة القوّة لحفظ الهويّة. وهي شيء يمكن حمله ليس فقط عبر الروايات الرسميّة والكتب، ولكن أيضًا من خلال الذاكرة غير الرسميّة. إنّها واحدة من الحصون الرئيسيّة ضدّ الانمحاء التاريخي. إنّها أداة للمقاومة.

إنّ اختلاف اللهجات في الخطاب العامي الفلسطيني يتمّ حفظه ونقله إلى الجيل الثالث والرابع. خذ إبني، على سبيل المثال، الذي ترعرع في نيويورك وتعلّم العربيّة لاحقًا. عندما تسمعه يتحدّث، فإنّك تسمع لهجة جدّه. ومن الواضح أنّه قد سمعها منّي ومن فلسطينيين آخرين بينما نحن نتحدّث معًا. وهكذا تشكّل لهجة الكلام في حدّ ذاتها لوحة عظيمة للذاكرة، والتي ينبغي أن تفعّل وتستخدَم، إذ إنّها تحمل الماضي قدمًا إلى الحاضر ثم إلى المستقبل وتعصمه من الاختفاء، أو الانزلاق في ثقب الذاكرة.

إنّك غالبًا ما تعالج الأدب لكي توضح هذه النقطة بالذات حول الذاكرة. وقد

كتب بورخيس Borges قصّة قمت أنت بمناقشتها، «فيونيس، ذاكرته»[٢١] Funes, His Memory**. كما أنّك أشرت إلى قصّة أخرى وهي قصة كافكا Kafka «في مستعمرة العقاب»** In the Penal Colony[٢٢].

ــ كنت أسعى حينئذ إلى وصف شيء لا يقدّره أحد بالمرّة في الولايات المتحدة وحتى في أوروبا الغربيّة. كنت أتحدّث عن كافكا لكي أوضح المستوى المفصّل للاضطهاد الذي يعاني منه الفلسطينيُّون على أيدي الإسرائيليين، كيف تستطيع أن تصمّم أدوات لكسر الإرادة الجمعيّة وأن تعمل على تقويض الرغبة بالعيش، ومن الصباح إلى المساء؟ هذا ما كان كافكا يقوم باستكشافه. إنّ كلّ خطوة في الحياة اليوميّة الفلسطينيّة، بدءًا من الذهاب إلى المدرسة أو إلى العمل أو السوق إنّما يقوم بترتيبها العسكر الإسرائيليّون. إنّ عليك أن تمرّ عبر نقاط التفتيش. وإذا ما أردت الذهاب إلى المستشفى في حالة الطوارئ، فإنّ عليك أن تقف مع ذلك في الصفّ لساعات، وقد مات الناس على هذا النحو. المدارس تغلق بشكل روتيني ومتكرّر. وهناك المئات من حواجز التفتيش في الضفّة الغربيّة وحدها. وغزّة سجن كبير مغلق تمامًا بسياج مكهرب من الجهات الثلاث، والبحر هو الحدّ الرابع، بينما القصف ونسف المنازل وتخريب الأراضي الزراعيّة وبناء هذا السياج الذي يفصل القرويين عن أراضيهم، وسجن الشباب، هي كلّها وسائل لإهانة ومعاقبة الفلسطينيين.

في هذه القصّة، يرينا كافكا كيفيّة اختراع آلة تعذيب فريدة، وهي آلة مفصّلة جدًّا في توليدها للألم بواسطة إبر تحفر الكتابة على الجسد البشري. وفي النهاية تتمكّن من الإمساك بمستخدمها ومخترعها نفسه. وأظنّ بأنّ الشيء ذاته يحدث للإسرائيليين. إنّ الجيش الإسرائيلي يستخدم لإهانة الفلسطينيين وإخضاعهم. ولكنّه ربّما يلحق الأذى بالإسرائيليين أكثر ممّا يؤلم الفلسطينيين الذين حقّقوا الانتصار من خلال أعمال بطوليّة تتلخّص فقط في البقاء في مواجهة كل تلك العوائق التي توضع في طريقهم.

لقد ذكرت للتوّ ثقب الذاكرة. وذلك يستدعي بالطبع جورج أورويل George Orwell**. في كتابك «تأمّلات في المنفى»** Reflections on Exile **لديك مقالة عن أورويل بعنوان «سياحة بين الكلاب»**[٢٣].

ــ أعتقد بأنّ أورويل يمثّل نموذجًا معقّدًا لإنسان كان يتمتّع بموهبة المراقب الموهوب، والذي جرى جرّه إلى حالات من المعاناة الشديدة كما هو حال رجال

المناجم الذين يكتب عنهم في كتابه «الطريق إلى ويجان بيير» The Road to Wigan Pier على سبيل المثال(٢٤). كان واحدًا من أوائل الذين كتبوا بالتفصيل عن مقاساة الإنسان في ظلّ الإمبرياليّة. لكنّه ظلّ في الوقت ذاته إنسانًا منفصلاً عن الموضوعات التي يصفها. ليس هناك سجلّ معروف، عدا في «وفاءً لكتالونيا» Homage to Catalonia يدلّ على أنّ أورويل قد مثّل جزءًا من أيّة حركة اجتماعيّة أو سياسيّة(٢٥). وقد اصطبغت سنيه الأخيرة بجنون الارتياب وبنوع من حسّ الكراهية تجاه الناس، الذين يحيطون به والذين نظر إلى بعضهم بوصفهم مخنّثين وحمرًا. وتحتوي كتاباته على توليف غير جذّاب بالمرّة من أحاسيس وحشيّة بالظلم وكراهية الناس. وكان أورويل أيضًا بشكل ما محبًّا لإنجلترا والإنجليز على نحو عميق. وكانت إنجلترا بالنسبة له مركز الكون. وهو لم يُكِنّ أيّ حبّ كبير للهنود أو السود أو اليهود. في الحقيقة، كان معاديًا للساميّة. وكما يتبيّن لاحقًا، معاديًا للصهيونيّة.

في تلك الآونة كانت إنجلترا مركز العالم، لكنّه كان صاحب موقف نقدي إزاء أفعال الإمبراطوريّة. وقد كتب عن تجربته في بورما حيث كان يخدم كرجل شرطة وكان شاهدًا على حادثة شنق(٢٦).

ــ نعم، لقد عرّى الظلم وسلّط الضوء عليه، لكنّني أرى أنّه قد فعل ذلك بطريقة محدودة جدًّا. ولا أظنّ أنّ المرء يشعر بينما يقرأ أورويل بأنّ إرادة ما تحرّكه باتجاه الانعتاق أو الحرِّيَّة. إذ يتعلّق الموضوع بالفضح والهجوم أكثر من كونه يتعلّق بفتح عقول الناس على مصادر جديدة للأمل. إنّه واحد من أولئك الكتّاب الذين لم يكونوا أبدًا على صلة بواحدة من الحركات راسخة الجذور، ولم يشعر أبدًا بأنّه جزء من قضيّة عامّة. إنّ هناك حسًّا من العزلة أو حتى من العدائيّة المرضيّة تجاه الآخر. وهو ما أصبح يتجلّى بشكل كبير عام ١٩٨٤، حيث كل إنسان يصبح عدوًّا محتملاً.(٢٧)

تلك الرواية، عمله الأخير، والتي صدرت نحو عام ١٩٤٩ تجري الإشارة إليها اليوم بسبب هجوم إدارة بوش على الحقوق المدنيّة وإعلانها عن حقبة من الحرب الدائمة.

ــ أعتقد أنّه كان محقًّا بتوصيفه لشكل الدولة التي نتحرّك نحوها. لكنّني أظنّ أنّه لا يضع بديلاً لذلك. إنّ الرؤيا الأورويليّة إنّما هي رؤيا محدودة وكئيبة ومنعزلة. ولا أظنّ أنّه كان على تماس مع الأمل، مع التحرّر، مع الحراك النقدي، مع الترابط

والنسب بين الناس. إنّ فكرة التقدّم البشري قد ظلّت خارج رؤياه تمامًا.

لقد ذكرت رواية أورويل: «وفاءً لكتالونيا» التي تضمّ تقريره عن الحرب الأهليّة الإسبانيّة. وذلك يذكّرني بقصف البلدة الباسكية جويرنيكا Guernica على أيدي سلاح الجوّ الألماني عام ١٩٣٧. وعلى مدخل مبنى الأمم المتحدة، هناك نسخة عن لوحة بيكاسو الشهيرة «جويرنيكا». ومن المفارق أنّ تلك اللوحة قد جرى طمسها. ويظهر أنّ تصوير الحرب والرؤوس المقطوعة والأعضاء المتطايرة كان كثيرًا جدًّا وصعب الاحتمال على أناس يقومون الآن بمناقشة مسألة تدمير العراق.

ـ لقد تمّت تغطية اللّوحة أساسًا على شرف زيارة كولن باول لمخاطبة مجلس الأمن. وهناك شعور شائع بأنّ كل ما يذكّر بنوع من الدمار والرعب الذي ربّما تتسبّب به الحرب إنّما تجب إزالته. كل شيء ينبغي تحويله إلى نمط على غرار تغطية السي إن إن حيث الحرب قد أصبحت إلكترونيّة أكثر من كونها تجربة إنسانيّة. وما تراه إنّما هو أسلحة مبتهجة، جذلة، متهلّلة وانتصاريّة والتي تجعل أهوال الحرب شيئًا شديد النأي. وأظنّها طريقة لتعويد الناس على فكرة الحرب بوصفها شيئًا يمكن أن ننخرط فيه دون إلحاق الكثير من الضرر بأنفسنا وبالآخرين.

وإذا ما لحق الضرر بالآخرين فإنّه مجرّد «عرض جانبي».

ـ بل إنّك لست مضطرًّا أيضًا إلى رؤيته.

الكلمة التي تكافئ كلمة «قاصّ» storyteller في اللّغة العربيّة هي «حكواتي». وأنت «الحكواتي» في الولايات المتحدة فيما يتعلّق بدوام روايتك للقصّة الفلسطينيّة. وعلى مرّ السنين رأيتك تقدّم توليفات جديدة للملاحظات، وبنى متناغمة جديدة وتنويعات وتبديلات جديدة لحثّ السلام على التقدّم. ولكي تقول القصّة كما حدثت.

ـ إنّ المدهش بالنسبة لي هو إلحاح القصّة الفلسطينيّة، والمنعطفات الكثيرة العدد التي تتخذها، وحقيقة كونها ليست قصّة منظّمة لأنّنا بلا دولة وشعب منفي. وعلى المرء أن يظلّ يروي القصّة بأكبر عدد ممكن من الطرق وأن يمليها قدر الإمكان وبما يمكن من الإلحاح لإدامة الانتباه إليها، لأنّ هناك خوفًا على الدوام من أنّها من الممكن أن تختفي هكذا.

أعتقد أنّ إحدى مهام المثقّف في هذا الوقت هي أن يقدّم مزيجًا طباقيًا، بالقصّ وبما يذكر بالطبيعة الصوريّة الناطقة بالحياة للمعاناة، وبتذكير الجميع بأنّنا إنّما نتحدّث عن شعب، وأنّنا لا نتحدّث عن مجرّدات.

في أواخر كانون الثاني عام ٢٠٠٣. استضافت جامعة كولومبيا مهرجانًا للفيلم الفلسطيني دعي «أحلام أمّة» Dreams of a Nation. وأحد الأفلام كان فيلم إيليّا سليمان Elia Suleiman «التدخل الإلهي» Divine Intervention، والذي وصفته «الأمّة» The Nation بأنّه «واحد من الكتّاب والممثّلين ومخرجي الأفلام الاستثنائيين في السينما المعاصرة[٢٨]. هل يمكن للفيلم أن يستخدم كأداة، أو كأسلوب لدعم قضيّة سياسيّة؟

ـ بالتأكيد. لقد نظّم المهرجان أحد زملائي الإيرانيين في قسم اللغات الشرق أوسطيّة «حامد دباشي» Hamid Dabashi، حيث عرض ما يقارب السبعين فيلمًا. والمؤثّر بشكل خاصّ أنّ كل واحدة من جلسات المشاهدة كانت تغصّ بالحضور. وقد نالت الأفلام ثناء استثنائيًا؛ وكانت هناك حشود من الناس الذين لم يتمكّنوا من الدخول.

أمّا الشيء غير العادي في فيلم إيليّا سليمان والذي جلب على نحو مبرّر الانتباه إليه، فهو أنّه لم يكن، بالمعنى الدقيق للكلمة، فيلمًا نضاليًا ودعائيًا. بل على العكس من ذلك، إنّه فيلم ساخر ومفهوم جدًّا يشبه كثيرًا في أسلوبه بستر كيتون Buster Keaton وجاك تاتي Jacques Tati. فهو يضمّ فترات طويلة من الصمت والمشاهد المسكتة التي تظهر فيها القوّات الإسرائيليّة والفلسطينيّون. في ذلك الفيلم، يتمّ تناول تجربة الاحتلال بمرح، ولا يتمّ عرض المعاناة بالمعنى التقليدي للكلمة. أظنّ أنّ ما جلب الانتباه إلى الفيلم هو عفويّته المدروسة.

لقد تمّ تقديم فيلم «التدخّل الإلهي» إلى الأكاديميّة Academy للحصول على إحدى جوائز الأوسكار، فما الذي حدث في هذا الشأن؟

ـ لقد تمّ وضعه في قائمة الأفلام الأجنبيّة، لكن أكاديميّة الصورة المتحرّكة Motion Picture Academy رفضته قائلة إنّه ليس ثمّة دولة اسمها فلسطين[٢٩]، وعليه فإنّه لا يمكن إدراج الفيلم، لكن هذا أمر مألوف. إنّه يُعيد إلى قصيدة محمود درويش

عن بطاقة الهويّة. فمعظم هويّات الفلسطينيين لا تحمل كلمة «فلسطيني» أمام خانة جنسيّة الشخص، وإنّما يوضع إلى جانب خانة الجنسيّة تعبير «غير محدّدة». تلك هي حالة الفلسطينيين اليوم. الكل يعرف بأنّ فلسطين موجودة، لكنّ البعض يرفضون أن يعترفوا بها إلاّ بوصفها «غير محدّدة» undetermined.

في إعلام اليوم، تشاهد احتضانًا علنيًا للإمبرياليّة وللحرب ولتضخيم القوّة الأميركيّة والاحتفاء بها.

ـ إنّ أناسًا من أمثال ميشيل إيجناتيف Michael Ignatieff وماكس بووت Max Boot وجورج ويل George Will إنّما يقومون بتوسيع أفكار غيرهم والتعقيب عليها وحسب، ويحاولون أن يصنعوا لها نوعًا من الغطاء العقلاني. لكن أحدًا منهم لا يمكن اعتباره مفكّرًا أصيلاً. إنّهم نتاجات النظام الذي يستخدمهم في تقديم غطاء لممارسات العداء السافر التي حدثت وتحدث باسم القيم الأميركيّة. لكن كما قال جوزيف كونراد: «إنّ غزو الأرض... ليس شيئًا جميلاً عندما تنعم فيه النظر». إنّه يشمل أخذ الأرض من أناس لديهم «أنوف أكثر تسطّحًا» من أنوفنا وبشرة أغمق من بشرتنا[٣٠].

كان التسويغ العقلي للإمبرياليّة في زمن كونراد يقوم على ما يسمّى «عبء الرجل الأبيض» White Man's Burden ومهمّة نشر الحضارة. واليوم أصبح يتمثّل فيما يدعى «الحرب على الإرهاب».

ـ «الحرب على الإرهاب» و«النضال من أجل الديمقراطيّة» كما يقال. يقول بوش إنّنا سوف نقاتل لأجل نصرة الخير في مقابل الشرّ، وإنّنا سوف ننشر القيم الديمقراطيّة، القيم الأميركيّة، في كل أنحاء العالم. إنّ كل إمبراطوريّة تفعل شيئين: إنّها تبدأ بالقول إنها لا تشبه أيًّا من إمبراطوريّات الماضي. وثانيًا: إنّها لا تتحدّث أبدًا عن الهدم، ولكنّها تتحدّث في الحقيقة عن عكس ذلك، عن إهداء التنوير والحضارة والسلام والتقدّم للناس الآخرين. إنّ المنافحين عن الإمبراطوريّة لا يقولون ذلك صراحة، لكنّ المغلوبين في نظرهم هم أناس أدنى مرتبة. وهكذا، فإنّه ينبغي علينا أن نجلب لهم كلّ هذه الأشياء الرائعة. كان ذلك صحيحًا في زمن كونراد لمائة عام خلت، وهو صحيح اليوم أيضًا.

ما الذي بعث هذه الجرأة في الإمبرياليين اليوم؟

ــ أحد الأسباب هو غياب حركة مضادّة معبّأة بدأب ومنظّمة بقوّة. إنّني لا أظنّ القول كافيًا بأنّ ذلك يحدث بسبب انهيار الاتحاد السوفياتي. إنّني أظنّه أيضًا فشلاً للطبقة المثقّفة، مع بعض الاستثناءات هنا وهناك. إنّ هناك الكثير من الشقاق والحزبيّة والكثير من روح التشيّع والطائفيّة والكثير من التنازع والخلط حول التعريفات والماهيّات، بحيث فقد الناس القدرة على رؤية الهدف الحقيقي. وكما وصف أيمي سيزير Aime Cesaire الأمر، ثمّة هناك موعد مع النصر حيث يلتئم شمل كل الباحثين عن الحرّيّة والانعتاق والتنوير. لكن أحد أسباب هذا الفشل هو ما يدعى بـ «ما بعد الحداثة»، والذي لعبت فيه النفعيّة الأميركيّة pragmatism والتحليل اللغوي، مثلها مثل التفكيكيّة الفرنسيّة، دورًا بالغ الأهمّيّة. فقد أدارت الطبقة المثقّفة ظهرها للروايات العظيمة عن التنوير والتحرير، ويخبرنا جين باودريارد Jean Baudrillard أنّ تلك الأيّام قد مضى عهدها.

وثمّة سبب آخر بالغ الأهمّيّة، يتمثّل في فشل الديمقراطيّة التمثيليّة. ففي مجتمع ذي حزبين مثل مجتمعنا ــ كما في بريطانيا ــ فإنّ الحزب الآخر يصبح ببساطة جزءًا من اللعبة وليس جزءًا من المعارضة. لقد اختفت فكرة المعارضة من مشهد السياسة الرسميّة وتمّ إيداعها الآن في مكان آخر، في الجامعة، في الكنيسة، في الحركة العمّاليّة وهلمّ جرّا. ولا أظنّ بأيّ شكل من الأشكال أنّ المعارضة شيء يجب أن يضطلع به المثقّفون النجوم أو أناس من القمّة، بل على العكس تمامًا.

لدى ظهوره في عرض تشارلي روز The Charlie Rose Show في الثالث عشر من شباط، قال توماس فريدمان Thomas Friedman شيئًا مثيرًا للاهتمام؛ قال إنّ العراق: «بلد لا يعرف غالبيّة الأميركيين أيّ شيء عنه»[٣١]، ولم يعقّب روز في حينه بشيء وإنّما انتقل إلى السؤال التالي، وقد فكّرت بأنّ ذلك يكشف عن الكثير.

ــ أعتقد أنّ الأمر الأكثر كشفًا هو أنّ فريدمان لم يؤكّد نقطة أنّ الولايات المتحدة إنّما تحشد للحرب ضدّ بلد بالكاد تعرف عنه أيّ شيء في الحقيقة.

سأحاول أن أستخدم بعض المقارنات الموسيقيّة هنا، لأنّ الموسيقى تشكّل جزءًا من ماهيّتك إلى حدّ كبير. كيف تستطيع وسائل الإعلام الجماهيريّة، وربما النظام

التعليمي أن تنجح في جعل الكثير من الأميركيين صمًّا، وغير قادرين على التمييز بين النغمات المختلفة؟

ــ نعم، إنّ قدرات الناس التحليليّة قد تمّ تعطيلها وتخديرها. والنتيجة هي أنّك تحصل على قبول فوري لما هو سهل. إنّك تنسى كل شيء عن التعقيدات والصعوبات.

قال بلوتراخ Plutrach مرّة إنّه لخلق التناغم في الموسيقى فإنّ على المرء أن يبحث في النشاز والتنافر.

ــ يقول أدورنو إنّ أفضل فهم للموسيقى إنّما يتحقّق عبر إدراك التنافر وليس عبر التناغم. وأظنّ بأنّ ذلك ينطوي على جانب من الصواب. إنّ ما يجعل الموسيقى مثيرة للاهتمام هو التوازن بين تنافر النغمات وتوافقها، حيث وزن القطعة الموسيقيّة يقاس على التنافر والنشاز أكثر من كونه غير ذلك.

أعرف أنّك لا تحبّ التحدّث عن نفسك، لكنّني أريد أن أسأل: كونك إدوارد سعيد، أيّ نوع من العبء يلقي ذلك على كاهلك؟ إنّك تعرف أنّك تتعرّض للمراقبة، وتعرف أنّ كل حركاتك وكل ما تتفوّه به يخضع للمراقبة. هل تتعب من ذلك؟ هل تتمنّى لو أنّك كنت تعزف البيانو أو تشاهد مباراة تنس جيّدة وحسب؟

ــ نادرًا. إنّني عادة ما أشعر بأنّني مشغول جدًّا وفي عجلة من أمري بحيث لا أجد متّسعًا للتفكير في الأمر. منذ سنوات كثيرة خلت تعلّمت أن لا أكون شديد الانتباه إزاء نظرة الآخرين إليّ. أعتقد بأنّ لديّ ما يكفي لأفعله وأنا أحاول عبور اليوم، خاصّة منذ أصبحت مريضًا. وأنا الآن أخضع للعلاج منذ تسع سنوات وأبذل مقدارًا هائلاً من الطاقة محاولاً أن أحافظ على الاستمرار على الرغم من الوهن والعديد العديد من الأزمات. وهكذا فإنّك تنزع إلى التركيز على ما هو مهمّ. أمّا الكيفيّة التي ينظر الآخرون بها إليّ فهي أمر لا يتخذ في الحقيقة مكانًا بارزًا على قائمة أولوياتي.

في معرض ذكرياتك في كتاب «خارج المكان» Out of Place كتبت: «إنّني أكتشف نفسي من وقت لآخر كقطرة في خضم تيّارات دافقة... مع الكثير جدًّا من التنافرات في حياتي»[٣٢].

ـ إنّني لا أنظر إلى نفسي باعتباري شخصًا مفردًا ومتساوقًا، بل إنّني كثرةٌ من الأشياء المختلفة منضمّة معًا، ولست أحاول الموازنة بينها. وأنا لا أرى نفسي شخصًا يحاول أن يصلح حال ما فيه من الاختلافات، وإنّما أحاول أن أعيش في التفارقات.

في المرّات الكثيرة التي تحدّثتَ فيها إليّ، وعندما أسألك عن صحّتك، فإنّك دائمًا تقول: «عليّ أن أمضي قدمًا».

ـ إنّ الأمر كذلك بالفعل، ويعود معظم الفضل في ذلك إلى طبيبي. ربّما كان يجب أن أموت لأربع أو خمس سنوات خلت، لكنّه رجل حاذق وطبيب رائع وعالم كبير. إنّ براعته في التعامل مع هذا المرض القاسي والغادر قد ألهمتني أن أظلّ أقاوم، وهو ما أفعله. ويجب القول إنّني أستمتع بالحياة، وأنا محاط بالناس الذين أحبّهم. إنّني أعشق التدريس، وأستخرج طاقة هائلة من الطلاب الذين أتفاعل معهم، لكن ذلك لم يعد بالقدر الذي أرغبه في هذه الأيّام لأنّ تعليمي قد تقلّص. لكن كوني عضوًا في مجتمع الأكاديميين وفي مجتمع سياسي أوسع من الناشطين والناس الذين يشعرون بأنّهم يسيرون نحو الحرِّيَّة والوعي هو أمر مبهج ومنعش. في الحقيقة، لا أستطيع التفكير بشيء أفضل كنت لأرغب القيام به.

الهوامش

(1) Michael Jansen, «Military Is Deliberately Destroying State Structures Built by Palestinians,» *Irish Times*, April 16, 2002, p. 9.

(2) Jansen, «Military Is Deliberately Destroying,» p. 9. See also Justin Huggler and Phil Reeves, «What Really Happened When Israeli Forces Went Into Jenin?» *The Independent* (London), April 25, 2002, pp. 4-7.

(3) Mahmoud Darwish, «Identity Card,» *in Splinters of Bone*, trans. B.M. Benani (New York: Greenfield Review Press, 1974), pp. 13-14.

(4) Mahmoud Darwish, «A State of Siege,» available online at:

http://www.mafhoum.com/press3/92C10.htm.

(5) Pablo Neruda, «Explica Algunas Cosas/ I'm Explaining a Few Things,» in *Selected Poems*, ed. Nathaniel Tarn (New York: Delta, 1972), pp. 150-55.

(6) Tim Rutten, «The Poets Fly Like Doves,» *Los Angeles Times*, September 12, 2003, p. 5:2.

(7) Seattle Times New Service, «Impact of Old DUI Unclear as GOP Charges Dirty Trick,» Seattle Times, November 4, 2001, p. A1.

(8) Peter Ford, «Antiwar Movement Awakens over Iraq,» *Christian Science Monitor*, February 18, 2003, p. 1; Anastasia Hendrix, Pamela J. Podger, and Steve Rubenstein, «Peaceful S.F. Crowd Protests Stance on Iraq,» *San Francisco Chronicle*, February 17, 2003,p. A1.

(9) Angelique Chrisafis et al., «Millions Worldwide Rally for Peace,» *The Guardian* (London), February 17, 2003, p. 6; Todd Richissin, «Millions March for Peace,» *Baltimore Sun*, February 16, 2003, p. 1A.

(10) David Barsamian, *The Decline and Fall of Public Broadcasting* (Cambridge: South End Press, 2001).

(11) «Size of Protest - it's like deciding, well, I'm going to decide policy based upon

a focus group,» Bush said. 'The role of a leader is to decide policy upon the security, in this case, the security of the people. Quoted in Richard W. Stevenson, «Antiwar Protests Fail to Sway Bush on Plans for Iraq,» *New York Times*, February 19, 2003, p. 17.

(12) David E. Sanger, «Bush Tells Critics Hussein Could Strike at Any Time,» *New York Times*, October 6, 2002, p. A3.

(13) Dan Plesch, «Operation Regime Change,» *The Guardian* (London), February 19, 2003, p. 17.

(14) James Bennet, «Palestinian Subdued and Shot, Yet His Bomb Kills Three,» *New York Times*, October 28, 2002, p. A3.

(15) Justin Brown, «Saddam's Rise Puts Pressure on US Officials,» *Christian Science Monitor*, September 21, 2000, p. 1.

(16) Claire Sanders, «Harvard Drops Paulin's Talk,» *Times Higher Education Supplement*, November 15, 2002, p. 52. See also Claire Sanders, «Harvard Makes U-turn and Asks Paulin Back,» T*imes Higher Education Supplement*, November 22, 2002, p. A2.

(17) See Tanya Schevitz, «Professors Want Own Names Put on Mideast Blacklist,» *San Francisco Chronicle*, September 28, 2002, p. A2.

(18) Martin Kramer, «The Columbia Club of Middle Eastern Studies,»

http://www.MartinKramer.org, November 5, 2002.

(19) Stephen Kinzer, «Armenia Never Forgets. Maybe It Should,» *New York Times*, October 4, 1998,p. 4: 16.

(20) Milan Kundera, *The Book of Laughter and Forgetting*, trans. Aaron Asher (New York: HarperPerennial, 1999), p. 3.

(21) Jorge Luis Borges, «Funes, His Memory,» in *Collected Fictions*, trans. Andrew Hurley (New York: Penguin. 1999), pp. 131-37. See also «Unresolved Geographies, Embatted Landscapes,» lecture by Edward W. Said, Hampshire College, Amherst, MA, September 17, 1999. Text available from Alternative Radio.

(22) Franz Kafka, «In the Penal Colony,» *in The Complete Stories* (New York: Schocken, 1995), pp. 140-67. See also Edward W. Said, «Punishment by Detail,» *Al-Ahram Weekly*, August 8-14, 2002.

(23) Edward W. Said, «Tourism Among the Dogs,» *in Reflections on Exile and Other Essays* (Cambridge: Harvard University Press, 2002), pp. 93-97.

(24) George Orwell, *The Road to Wigan Pier* (New York: Harvest Books, 1973).

(25) George Orwell, *Homage to Catalonia* (New York: Harvest Books, 1987)

(26) George Orwell, «A Hanging,» in *Essays*, ed. John Carey (New York: Knopf / Everyman's Library, 1996), pp. 16-20.

(27) George Orwell, *1984* (New York: Knopf, 1992)

(28) Divine Intervention, dir. Elia Suleiman (New York: Avatar Films, 2002).

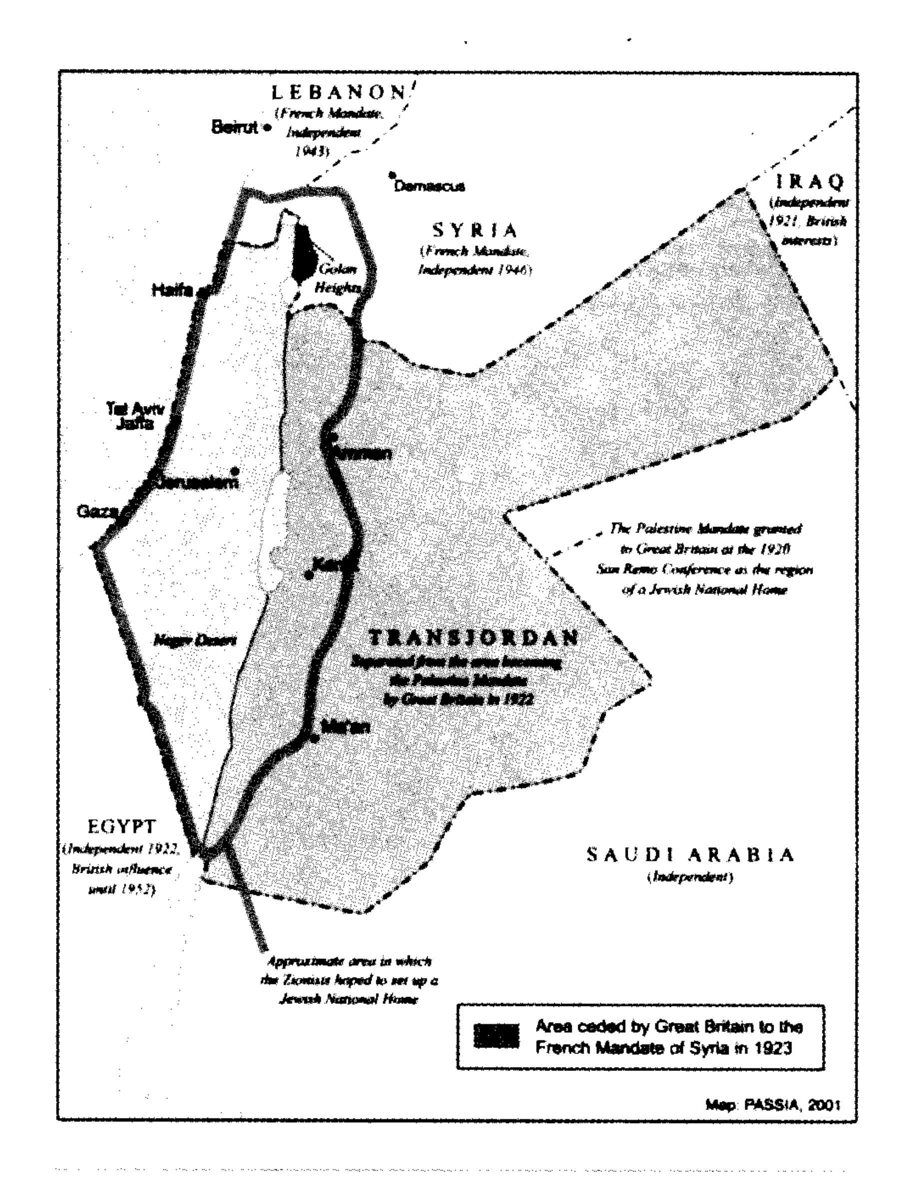
(29) Stuart Klawans. «The Eastern Front: Film of the Present Conflict,» *Nation*, February 10, 2003, p. 34.

(30) Joseph Conrad, *Heart of Darkness* (New York: Penguin, 1999), p. 31.

(31) Thomas Friedman, «Thomas Friedman on Iraq and the UN,» interview by Charlie Rose, PBS, *The Charlie Rose Show*, February 13, 2003. Online at http://www.charlierose.com/archives/archive.shtm.

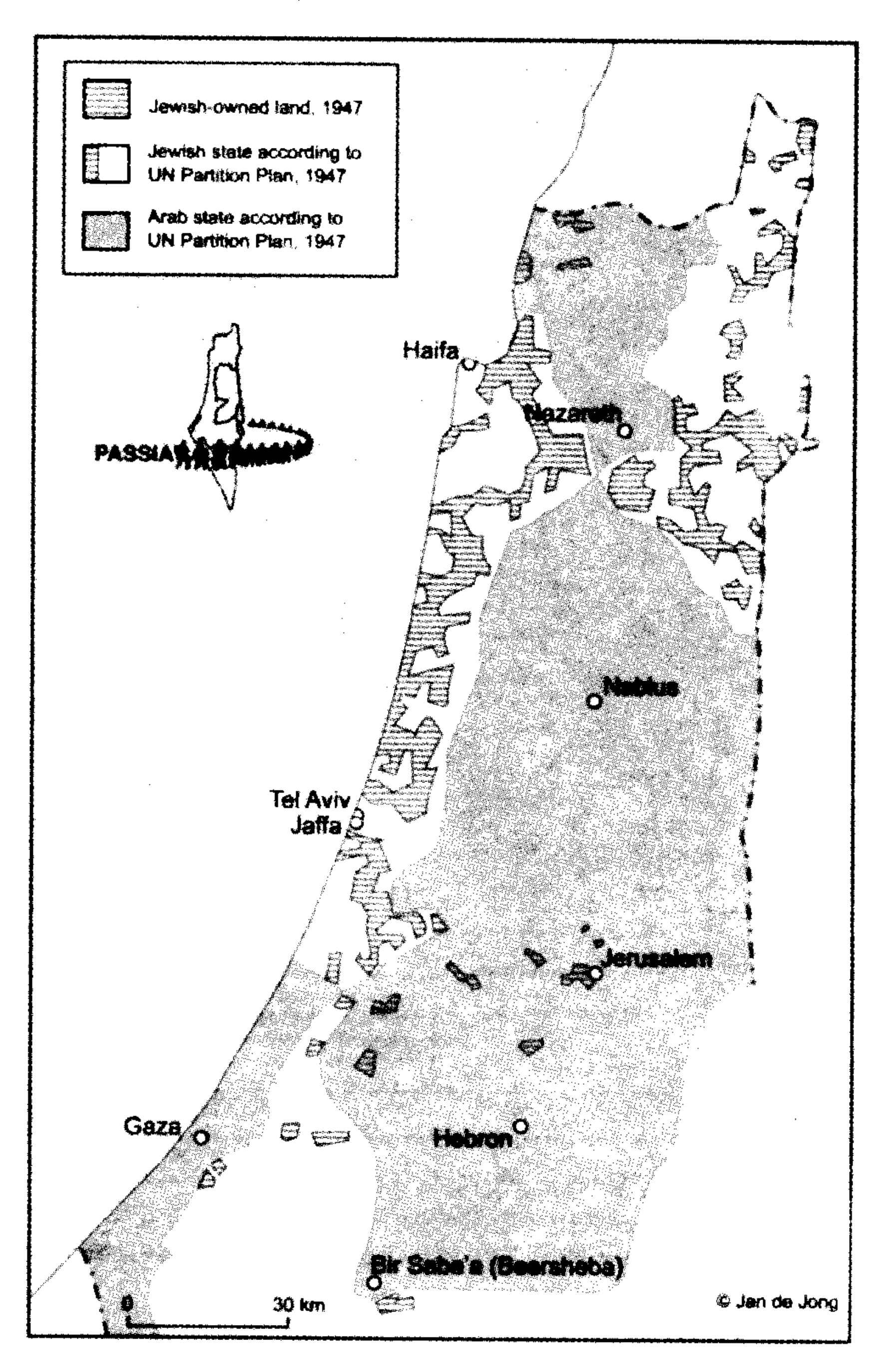
(32) Edward W. Said, Out of Place: A Memoir (New York: Vintage Books, 2000), p. 295.

Palestine Under the British Mandate

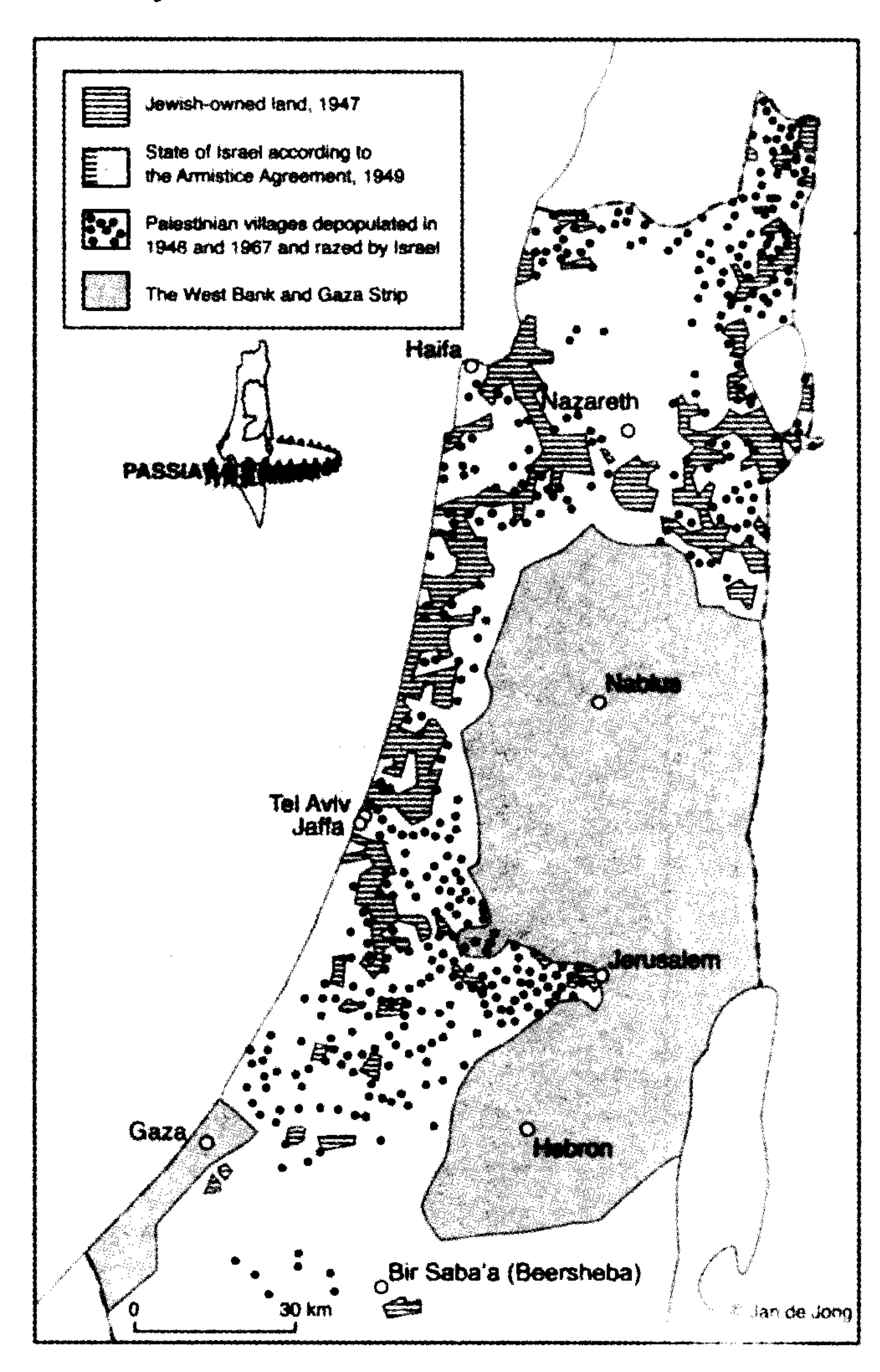


Maps source: Palestinian Academic Society for the Study of International Affairs (PASSIA), *The Palestine Question in Maps: 1878–2000* (Jerusalem: PASSIA, 2002). Maps also available online at http://www.passia.org.

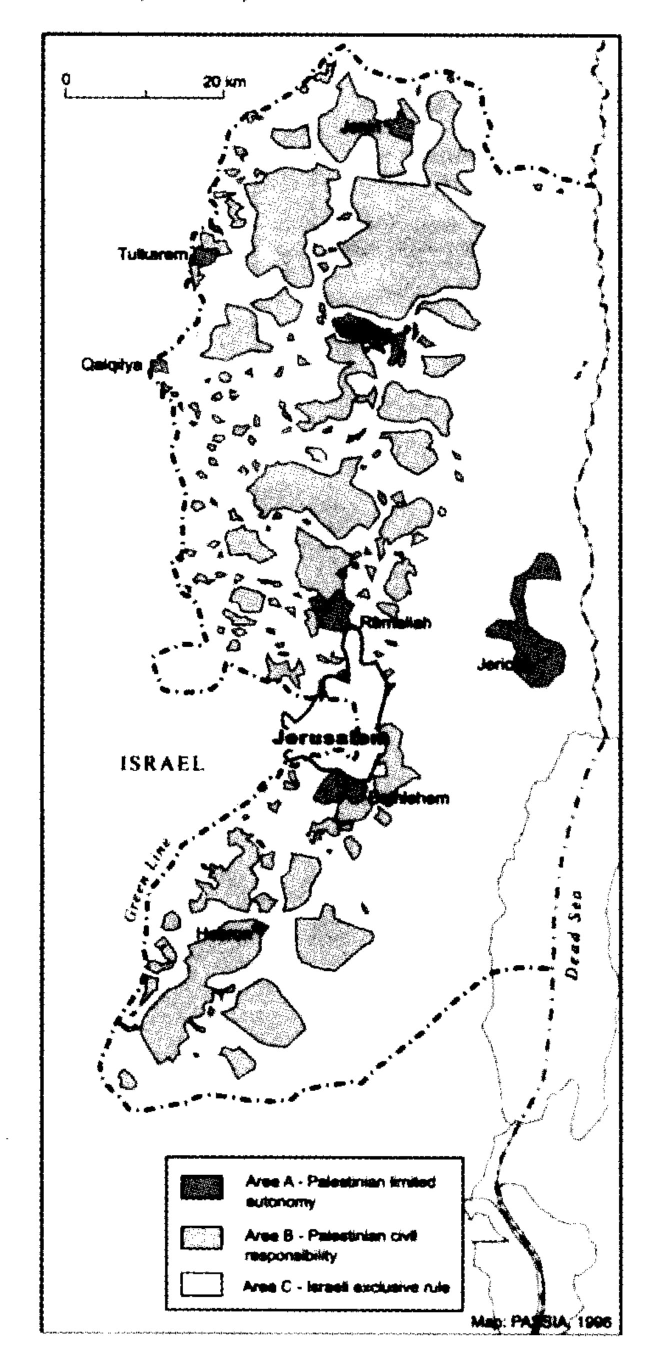
Land Ownership in Palestine and the UN Partition Plan, 1947



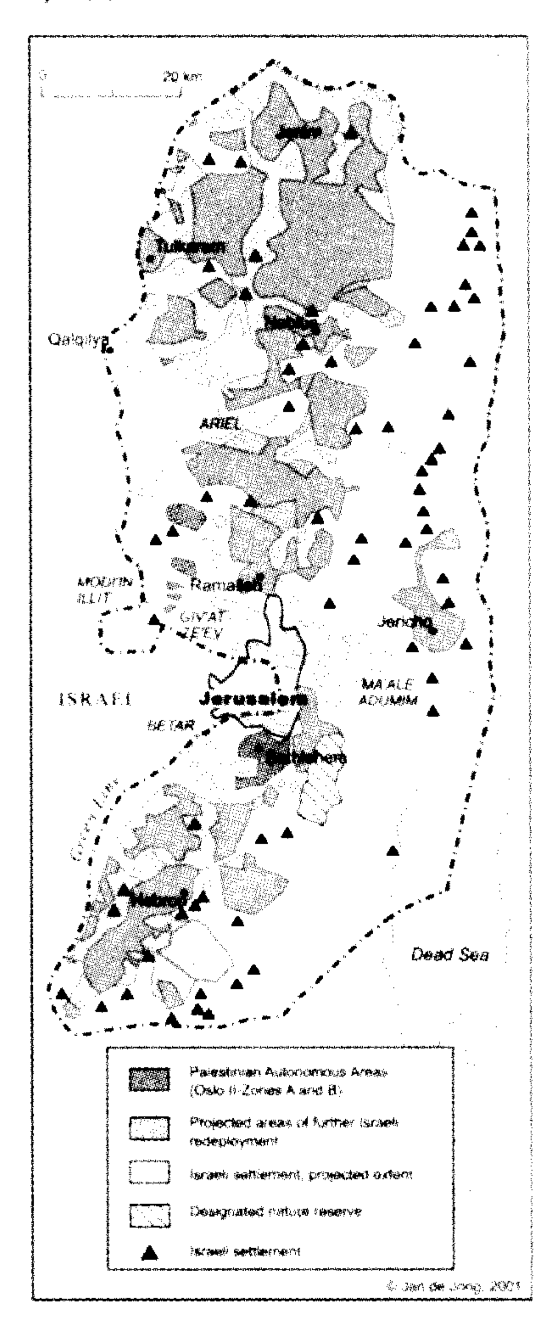
Palestinian Villages Depopulated in 1948 and Razed by Israel



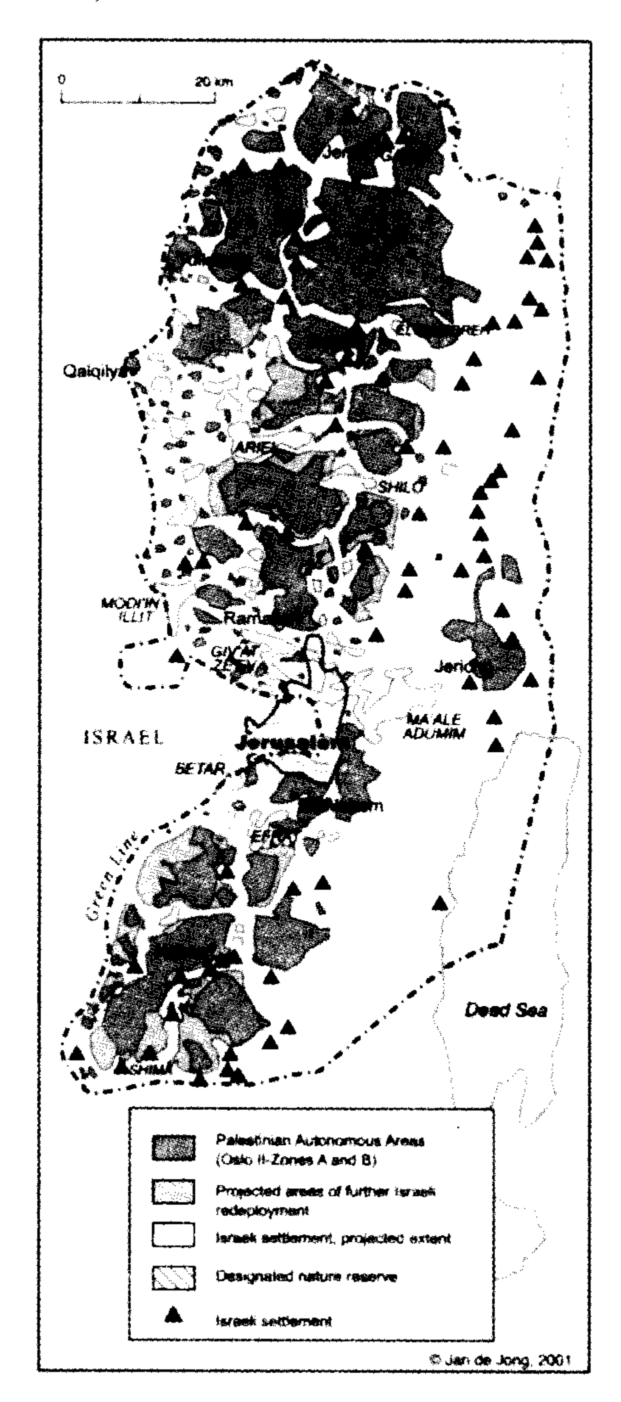
Interim (Oslo II) Agreement, September 28, 1995, TABA



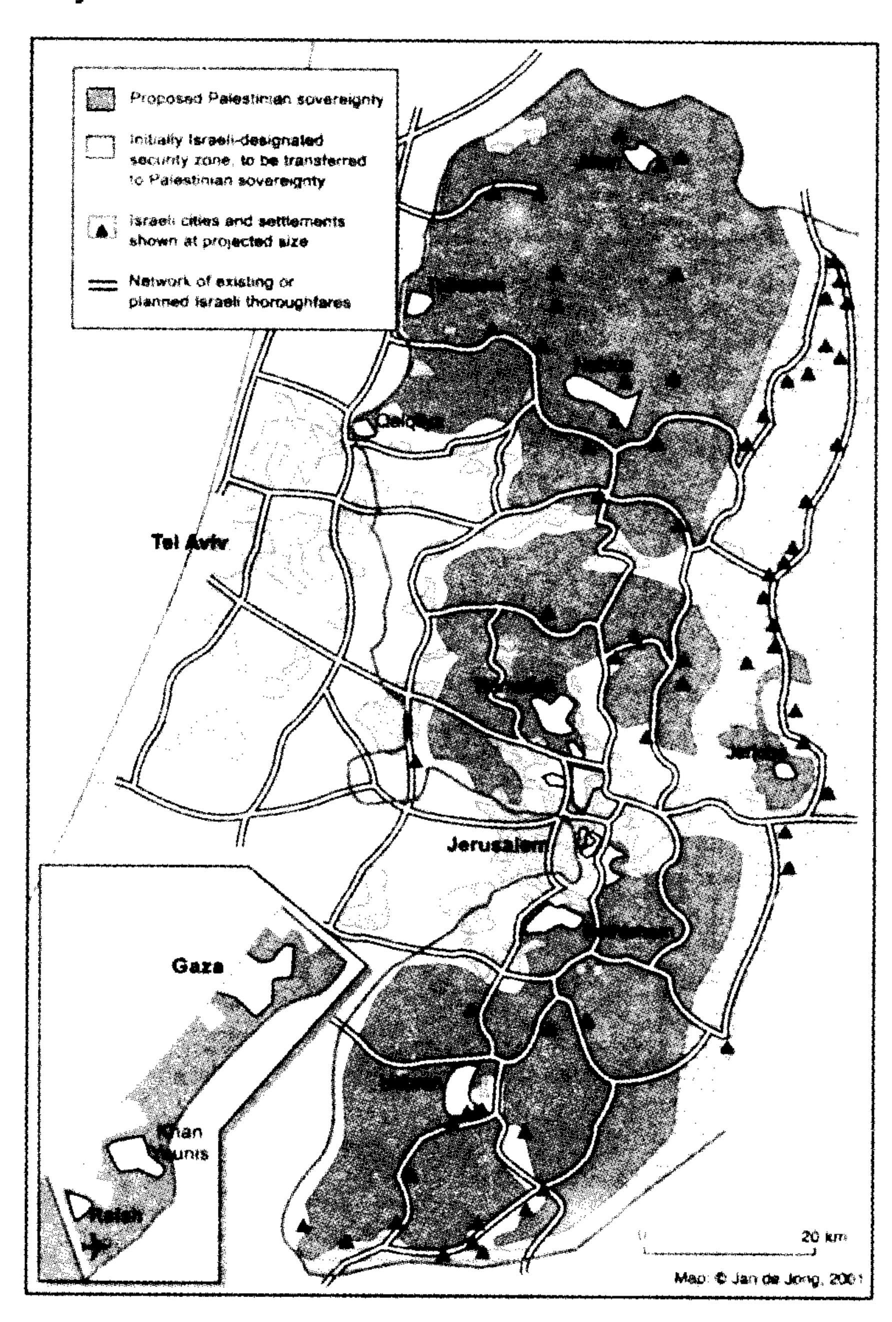
Wye River Memorandum,
October 23, 1998



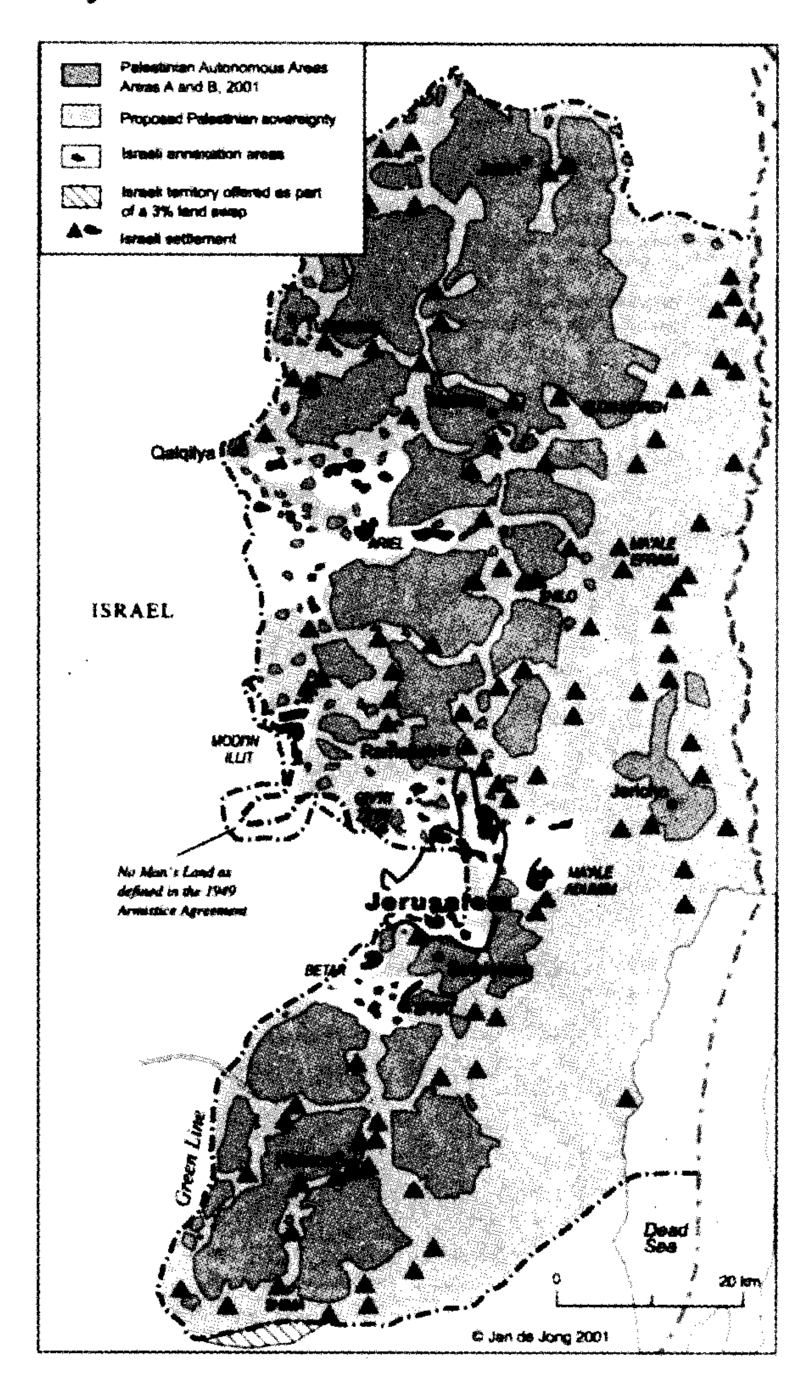
Sharm Esh-Sheikh Agreement, September 4, 1999



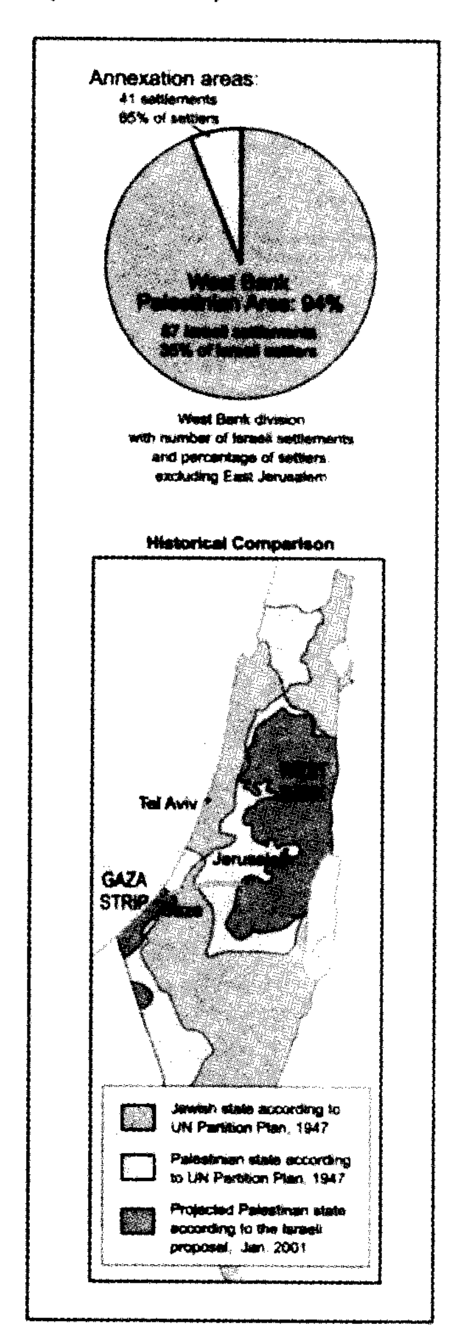
Camp David Projection, July 2000



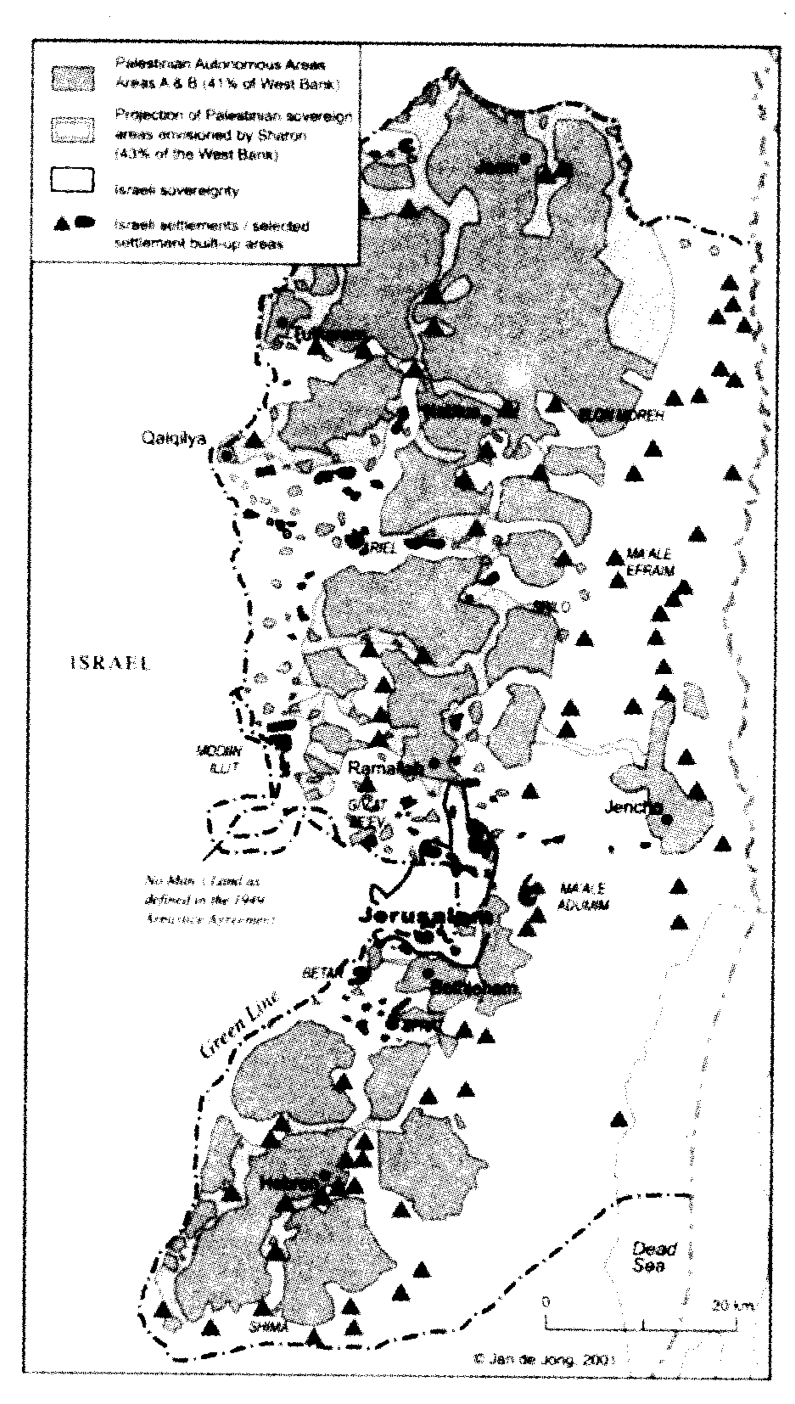
TABA Talks Projection, January 2001



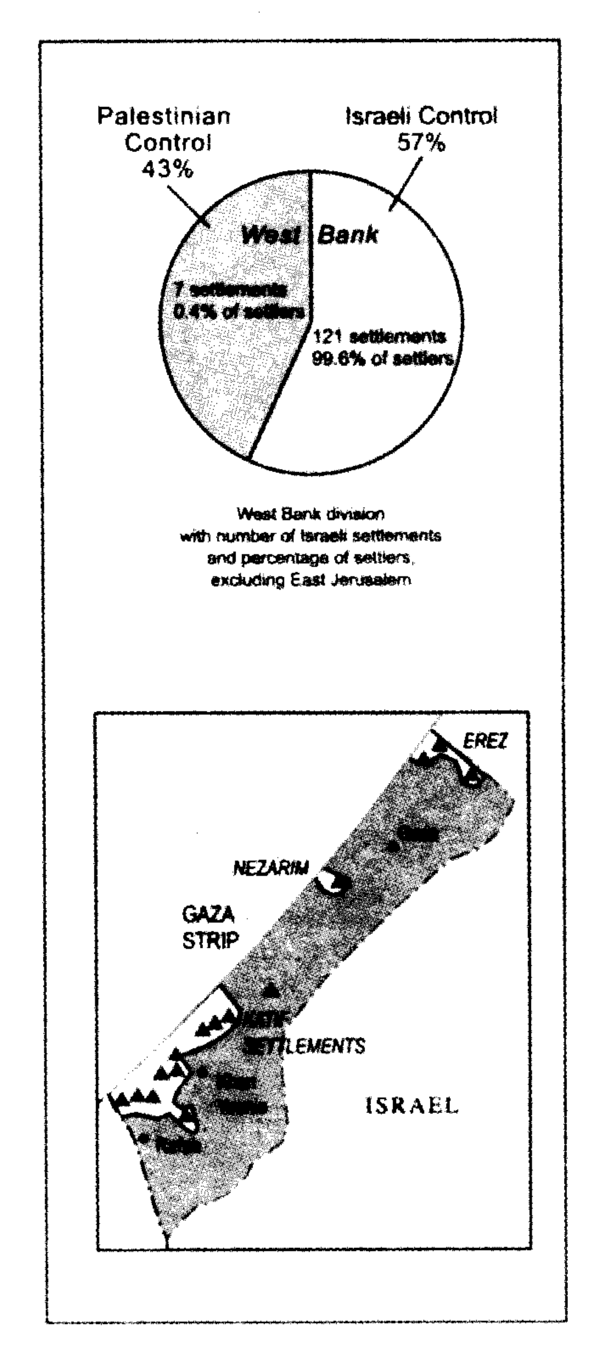
TABA Talks Projection, January 2001 (continued)



The Sharon Proposal, Spring 2001

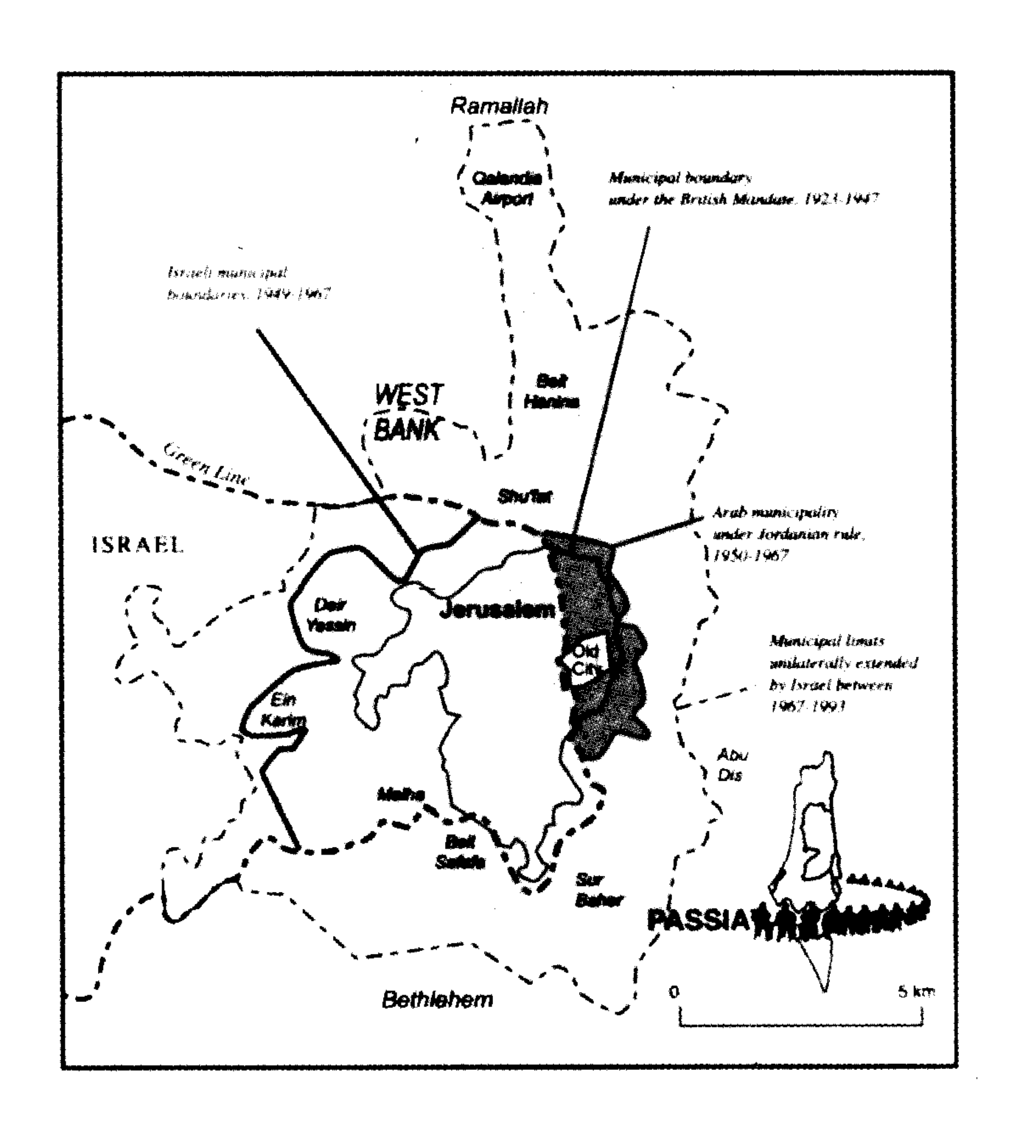


The Sharon Proposal, Spring 2001 (continued)

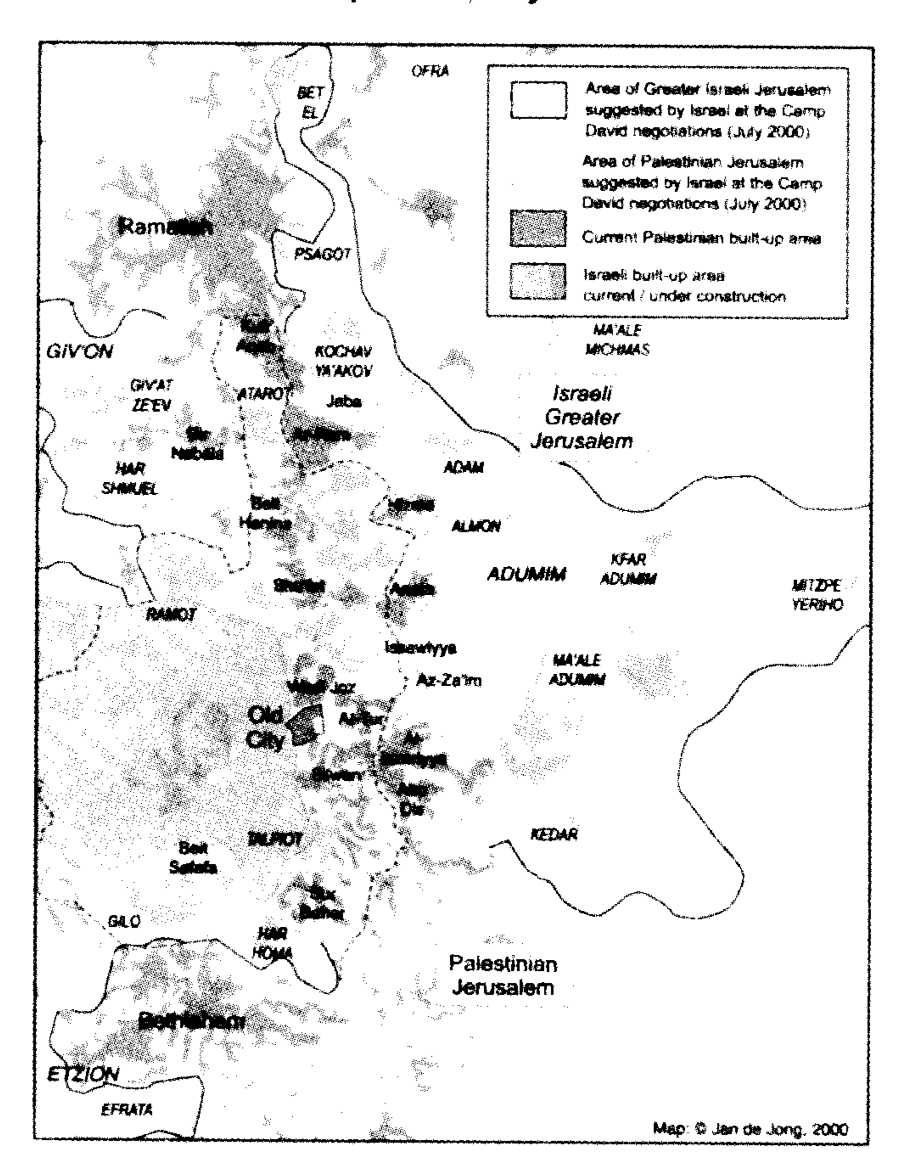


West Bank division with number of Israeli settlements and percentage of settlers, excluding East Jerusalem

Municipal Boundaries of Jerusalem, 1947-2000



Projection of the Israeli Proposal for Jerusalem's Final Status at Camp David, July 2000





الفهرس

المؤلف فى سطور :

إدوارد سعيد

من مواليد فلسطين عام ١٩٣٥ ، تلقى دراسته الابتدائية فى السندس والثانوية فى القاهرة ، ثم تابع دراسته فى جامعتى برنستون وهارفارد ، وعين أستاذًا فى جامعة كولومبيا بمدينة نيويورك فى الأدب الإنجليزى وأدب المقاومة عام ١٩٦٣ ؛ إذ بقى يعمل فيها إلى أن رحل عن العالم عام ٢٠٠٣ .

من بين كتبه : قضية فلسطين ، الاستشراق ، تغطية الإسلام ، الثقافة والإمبريالية ، تأملات فى حياة المنفى ، استكشافات فى الموسيقى والمجتمع ، حول الأسلوب الذى يأتى متأخرًا فى حياة الفنان (والذى نشر بعيد رحيله) .

كتب ما لا حصر له من المقالات فى عدد من الصحف والمجلات العالمية فى مواضيع مختلفة فى مختلف فروع المعرفة ، وتغلب على كتاباته الاهتمام بالثقافة التى توضح الآفاق الواسعة التى تطل من خلالها الثقافة على حياتنا . ومن أهم أطروحاته هى العلاقة الوثيقة بين العالم والنص والناقد (القارئ) التى أحدثت توجهًا جديداً فى تقييم النص ؛ إذ لم يعد مجرد قيمة جمالية تنحصر فى البرج العاجى . كيف ينبع النص من حياتنا فى هذا العالم ، ثم كيف يتشكل على يد الفنان ليعود ثانية إلى العالم وقد اكتسب قيمة جديدة تؤثر فى حياتنا لأنها تتفوق على مصدرها الذى نبعت منه أصلاً ؟ وهكذا انتقلت القراءة انتقالاً نوعيًا من أفق تقليدى محدود انحصرت أبعاده فى الانشغال بالشكل اللغوى والجمالى إلى الثقافى الذى يعرفه ريموند وليمر إطار الثقافة إنه نمط حياة شامل بكل معانى الكلمة . أما إدوارد سعيد فإنه يعرفه على أنه وسيلة ناجحة لمحاربة الفناء والقهر الذى تمارسه الهيمنة فى العالم .

المحاور فى سطور :

ديڤيد بارساميان

مؤسس ما يسمى بالإذاعة البديلة فى مدينة بولدر كلورادو ، ويعد من أشهر عشرة إعلاميين فى أمريكا . من كتبه فى المقابلات والحوار : حوارات مع ناعوم تشومسكى وأحاديث مع إقبال أحمد . وقبل هذا الكتاب الذى نحن بصدده أصدر كتاب حوارات بعنوان "السيف والقلم" التى تضم حوارات متنوعة مع إدوارد سعيد . وهو ناشط مرموق وصحفى بارز ، وله مساهمات عديدة فى ميدان الثقافة شرقًا وغربًا .

المترجم فى سطور :

علاء الدين أبو زينة

يعمل مترجمًا فى صحيفة الغد الأردنية ، نشر عددًا من القصص والمقالات فى الصحافة الأردنية ، وترجم كتاب «الثقافة والمقاومة» الذى تضمن حوارات مع إدوارد سعيد .

المراجع فى سطور :

محمد شاهين

أستاذ الآدب الإنجليزى والأدب المقارن بالجامعة الأردنية . من كتبه بالإنجليزية التى نشرتها دار النشر ماكميلان – لندن هى :

– "الروائى مردث" .

– "القصة العربية القصيرة" (ط أولى ١٩٨٩ ، ط ثانية ٢٠٠٢) .

– "فورستر وسياسة الاستعمار" .

– "إليوت فى العربية" (مطبعة جامعة چين – أمريكا) .

– "پاوند فى العربية (مطبعة جامعة چين – أمريكا) .

قام بنشر العديد من الأبحاث بالإنجليزية والعربية فى مجلات عالمية . من كتبه بالعربية :

– إدوارد سعيد : رواية للأجيال .

– إدوارد سعيد : مقالات وحوارات .

تأثير إليوت فى العربية : السياب – صلاح عبد الصبور – محمود درويش – الأسطورة والأدب .

آفاق الرواية .

الإشراف اللغوى : د. عبد الرحمن حجازى

الإشـراف الفنـى : حســـــن كامــــل




أصبح إدوارد سعيد، منذ استقالته من المجلس الوطني الفلسطيني عام ١٩٩١، واحدًا من أبرز المناهضين لما يسمّى بعملية السلام، وظلّ صوتًا منفردًا للمقاومة وسط جوّ استسلامي يائس. ويَعْتبر سعيد أنّ الثقافة هي من أهم الوسائل لمحاربة الذوبان والإلغاء.

هذا الكتابُ يبرز الطاقة الهائلة والإثارة العقلية والحماس التي يستطيع سعيد أن يولّدها. إنّه يمنح نكهة رائعة للأخذ والردّ في الحوار.

دايڤيد بارساميان هو مؤسّس ومدير «الراديو البديل» في كولورادو وصاحب عدة كتب من الحوارات مع تشومسكي وإدوارد سعيد والمثقف التقدُّمي طارق علي.



دار الآداب
هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

تصميم الغلاف رسم الجندي